رشفات من رحيق الأدب العباسي
(العصرين: الأول ،والثاني)

الأســتاذ الدكـتـور
علـى الخـطـيـب
أســتــاذ ورئــيــس قــســم الأدب والنــقــد
والـعمــيد الأســبق لكـلـية اللـغــة العربـيــة
جامعة الأزهر – سوهاج – جرجا

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٨١٠.٩
ا.ع

الخطيب ، علي.

رشفات من رحيق الأدب العباسي (العصرين : الأول ، والثاني) / علي الخطيب.- ط١. - كفر الشيخ- دسوق : العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

٢٩٢ص ؛ ٢٤سم .

تدمك : ٥ ـ ٤٨٧ ـ ٣٠٨ ـ ٩٧٧

١. الأدب العربي – تاريخ ونقد. ٢. الأدب العربي- تاريخ- العصر العباسي

أ - العنوان

رقم الإيداع : ٢٥٧٥٤.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتـف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٢٠٢٣

E-mail: **elelm_aleman@yahoo.com**

elelm_aleman@hotmail.com

إهْـــــــدَاءٌ

إلى أولادي ، وأحفادي . حُبّاً وأمَلاً..
ثُمَّ إلى عُشَّاق الأدَب العربي .

فهرس الكتاب

مقدمة

أحمد الله – تبارك وتعالى – على جزيل نعمائه ، وأشكره – تعالى جَدّه – على جميل آلائه ، وأسأله وحده فيض عطائه ، وفضل سنائه.
وأصلّي وأسلّم على رسوله المصطفي ،ونبيّه المجتبَى ، سيّدنا ومولانا وقائدنا ورائدنا محمّد بن عبد الله ، سيّد العرب والعجم ، وأفضل من سارت به على الأرض قدم .وعلى آله وأصحابه الذين آزروه ونصروه واتبعوا النّور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون.
و بعـد :
فإنّنى مما يُثلج صدري ،ويُبهج خاطري ، ويُريح قلبي، ويَشرح فؤادي ويسرّ نفسي ويثير حسي أن أقدّم لأبناء اللّغة العربيّة وعشّاق آدابها الخالدة وقرّاء أساليبها الرّائدة هذا الكتاب "رشفات من رحيق الأدب العباسي في العصرين الأول والثاني"، وأن أضع أمامهم هذه التموّجات العميقة مختالة في غرب الحلي ، ونُضَار الحُلَل، مبيّناً لهم سمات اللّغة البيانيّة ، والتي ترتبط أشدَّ الارتباط بكتاب الله ، وسُنَّة رسوله – صلى الله عليه وسلم.
فعلى الدّارسين لآداب اللّغة العربيّة أن يقدِّموا نسقاً من البيان، يطوف حول القرآن ويقبس من أضوائه السّاطعة في كلّ حي.
فإن كُنّا قد وُفِّقنا فلله الحمد والمنَّة ،وإن كانت الأخرى فحسبنا القراءة والاطِّلاع والدَّرس والتّحليل ،والاجتهاد والله الموفِّق للعباد.

المؤلف /
أ . د / على الخطيب
الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف

العصــر العباسي الأول

العصــر العباسي :

وهو العصر الذي بدأ في التاريخ السياسي سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة النبويّة الكريمة ، والتي توافق سنة تسع وأربعين وسبعمائة للميلاد "٧٤٩"م وذلك بسقوط الدولة الأمويّة في الشّام ، وقيام الدّولة العباسيّة في الكوفة – يعنى العراق وينتهي العصر العباسي في التاريخ السياسي بسقوط "بغداد" على يد "هولاكو" قائد "التتار" وكان ذلك في سنة ست وخمسين وستمائة "٦٥٦" للهجرة والتي توافق سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف للميلاد "١٢٥٨" .

وهذا التحديد عرفي قليل الصّلة بالحقيقة التاريخيّة ، أن هذا العصر قد بطل أن يكون عباسياً منذ أيّام الخليفة "المتوكل" الذي جاء إلى عرش "بغداد" في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة "٢٣٢"هـ ، والذي يوافق سنة سبع وأربعين وثمانمائة للميلاد "٨٤٧"م، والقوّاد والأتراك يملكون الدولة من جميع جوانبها ، ثم لم يكن للخليفة المنصوب على عرش "بغداد" بعد الخليفة "المتوكّل" من الأمر شئ ، وكثرت الدّول والدّويلات في العصر الذي نسمّيه "عباسياً".

كان بعضها دولاً غير عربيّة ، ولا "عباسيّة" تنبع في أطراف الخلافة ثم تستقل بما تحت يدها ، وربما مَدّ بعضها نفوذه إلى "بغداد" ذاتها.

بَيْد أن حظّ "الأدب" كان غير حظّ السّياسة ، حيث إنّ الخصائص "العباسيّة"في الأدب ظلّت سائدة في النّتاج الوجداني من الشّعر والنّثر إلى سقوط "بغداد"في يد "التّتار" بقيادة "هولاكو" ، ثم إلى الفتح العثماني للبلاد العربيّة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة للهجرة "٩٢٣"، والتي توافق سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف للميلاد "١٥١٧"م ، ثم إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجري والذي يوافق القرن التاسع عشر الميلادي .

وهناك كثرة كاثرة من الناثرين والناظمين ينهجون النّهج العباسي في الأدب، أصالة وتقليداً ، والأصيلون من هؤلاء الأدباء الذين يُخلّدون في حياتهم الأدبية.
ويقول الدكتور "عمر فروخ" : "أما في هذا الكتاب فسنجعل "العصر العباسي" يتّصل إلى السنة التي فتح فيها السلطان "سليم الأول" العثماني "مصر" سنة "٩٢٣"هـ / ١٥١٧م ، وقضى على المنصب الرمزي الذي كان العباسيون قد احتفظوا به في "مصر" بعد سقوط دولتهم في "العراق"، هذه الحقبة الطويلة من سنة "١٣٢"هـ إلى سنة "٩٢٣"هـ تنقسم من الناحية السياسية والأدبية أيضاً فترات متفاوتة في الطول وفي الأهمية.
فإذا نحن اعتبرنا تلك الفترات وما كان فيها من الدول التى اتسع نفوذها في **أقسام متباينة من بلاد الخلافة الإسلاميّة وجدناها التالية :**

١ – الفترة العبّاسيّة الأصيلة (نفوذ فارسي ثم تركي) ١٣٢ – ٢٣٤هـ
٢ – عصر الدّويلات ودولة بنى بويه (فارسيّة شيعيّة) ٢٣٢ – ٤٤٠هـ .
٣ – دولة السلاجقة (تركيّة سُنيّة) : ٤٢٩ – ٥٧٩ هـ.
٤ – الأتابكة آل زَنْكى (من السلاجقة) : ٥١٦ – ٦٣٩ هـ .
٥ – الدّولة الأيّوبية : ٥٥٥ – ٧٣٢ هـ .
٦ – دولة المماليك (المماليك البحريّة) : ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ .
٧- (المماليك البرجيّة) : ٧٨٤ – ٩٢٣ هـ .

الحقبة العباسية الأصيلة :

وفي هذه الحقبة انتقلت الخلافة في سنة "١٣٢" والتي توافق سنة "٧٤٩" للميلاد من الشّام إلى العراق ، وذلك من بنى أميّة الذين كانت دولتهم عربيّة خالصة وعصيّة إلى "بنى العباس" الذين أصبحت دولتهم دينيّة جامعة ، وقد كانت البداوة غالبة على المجتمع الأموي تتبدّى في المثل العليا التي كانت بدويّة جاهليّة ، وفي اللغة أيضاً ، فقد كان عدد مِن معاني الأدب إسلامياً جديداً أما الأسلوب الذي استهوى الأمويين فقد ظل جاهلياً ، وأما المجتمع العباسي فقد استبحرت فيه الحضارة ،

وانتشر الترف ، وإن كانت طبقات كثيرة قد ظلت بعيدة عن تلك الحضارة ، وعن ذلك التّرف ، أما الدولة والحكم فقد كانا متنازعين بين **أصحاب تيارين :** بين العلويين الشيعة يظاهرهم "الفرس وعرب الجنوب عامة"، وبين "العباسيين يعضدهم أهل السنة والجماعة وأبناء الدولة" .

وقد كان المقصود من الدعوة إلى "آل محمد" أن يتولى العلويّون الخلافة ولكن العباسيّين وهم من نسل "العبّاس" عمّ الرّسول – **ق** – كما كان العلويّون وهم من نَسْل على بن أبى طالب – ا – وبالأحرى هم من نسل "أبى طالب" عمّ الرّسول أيضاً – استطاعوا أن يستبدّوا بالأمر ، وأن يبايعوا واحداً منهم ، وهو "أبو العباس عبد الله بن محمد" ابن عمّ "على بن عبد الله بن عباس" الشهير بـ "أبى العباس السفاح" ، وتتبَّع السّفاح "بنى أمية" وأنصارهم بالقتل والتّشريد ، حتى خلص الأمر لبنى العباس، وفي هذه الأثناء كان السَّفاح قد اتخذ "الكوفة" عاصمة له ، ثم هجرها ؛ لأنها كانت مركزاً للعلويين وأنصارهم ، واتّخذ "الأنبار" على "الفرات في شمالى العراق" عاصمة جديدة وحَكَم "السفَّاح" أربع سنوات ، ثم توفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة والذي يوافق سنة أربع وخمسين وسبعمائة للميلاد ، فخلفه أخوه "أبو جعفر المنصور" ، وكان أَسَنَّ منه ، ولكن كانت أُمّه أَمَةً ، فتأخّر السّفّاح ؛ لأن أمَّ السّفّاح كانت حُرّة .

وقد كانت "الأنبار" متطرِّفة في "العراق" ، فبنى "المنصور" بغداد سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة ، وجعلها عاصمة الدّولة العباسية ، بعيدة عن الشّام ، ولكنها كانت قريبة من "فارس"،ومن الجوالى الفرس في العراق نفسه.

١. وقد نبتت في أيام "المنصور" حركات دينيّة ، **مثل :** "الرّوانديّة" ، وحركة "سُنْباذ" اللتين كانتا تحملان طابعاً مجوسيّاً من الشّيوع في المال ، والنّساء ، وطابعاً وثنياً من تأليه البشر ، فأخذ "المنصور" هذه الحركات بالشّدّة وقتل رؤساءها والدّاعين إليها وكثيراً من أنصارها .

ولعلّ أهمّ ما حدث في أيام "المنصور" أن تولّى الوزارة "خالد بن يَرْمك" ، ثم استمرّ بعده ابنه "يحيى" ، وحفيداه : "الفضل" ، و"جعفر" ، يتولونها حتى نَكَبهم "هارون الرشيد" سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافق سنة ثلاث وثمانمائة للميلاد ، بعد أن استبدّوا بكلّ سلطة في الدولة ، وبعد أن طغت أسباب الحياة الفارسيّة على "بغداد" ؛ فانصرف النّاس بعد نكبة "البرامكة" عن أوجه الحضارة الفارسيّة ، وعادوا إلى التّظاهر بالميل إلى البداوة ،وإلى العصبيّة العربيّة .

منهم من فعل ذلك خوفاً من أن يُتَّهم بمثل ما اتُّهم به "البرامكة" ، فيصير أمره إلى ما صار أمرهم أليه ، ومنهم من فعل ذلك مصانعة لأرباب الدّولة،حيث إن النّاس على دين ملوكهم .

وكثر العمران في أيام "هارون الرشيد" ، واستبحرت الحضارة،وعَمَّ التّرف وازدهرت العلوم والآداب ، وعظمت هيبة الدولة ، ويعدّ عصر "هارون الرشيد" ذروة القوّة السّياسيّة للعرب ، وأزْهى ما بلغت إليه عصورهم في العمران والحضارة ، والأدب والعلوم .

وخلف "هارون الرّشيد" ثلاثة من بنيه : "الأمين" ، و"المأمون"، و"المعتصم"، وكان "الرّشيد" قد قسَّم "الإمبراطوريّة" سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، والتى توافق سنة واحد وتسعين وسبعمائة للميلاد بين "الأمين" و"المأمون" ، فأوصى للأمين بالمُلك على "غَرْب الإمبراطورية" : "بغداد وما يقع غربها" ، حيث يسود العنصر العربيّ ، ويكثر أنصار "الأمين"، وأوصى "للمأمون" بالمُلك على شرقيّ الإمبراطورية "ما يقع شرق بغداد" ، حيث يكثر العنصر الفارسي وأنصار "المأمون".

ويبدو أن القسمة على هذا النّحو كانت راجعة إلى أنَّ "أُمّ الأمين" كانت عربية ، بينما أُمّ "المأمون" كانت فارسية .

وسرعان ما نشب النّزاع بين الأخوين ، وانتهى الأمر أخيراً بمقتل "الأمين" سنة تسع وتسعين ومائة للهجرة ، والتى توافق سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد "٨١٣"م ، وإعادة وحدة "الإمبراطورية" تحت سلطة "المأمون".

بَيْد أن "المأمون" انقلب بعد مقتل أخيه على السّياسة الفارسيّة العَلَوِيَّة ، وترك عاصمته "مَرْو" في "خراسان" ، ثم عاد إلى "بغداد" سنة أربع ومائتين للهجرة النبويّة الكريمة "٢٠٤" هـ ، بَيْد أن النّفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف ، فلمَّا جاء "المعتصم" سنة "٢١٨" للهجرة ، والتى توافق سنة "٨٣٣" للميلاد فتح أبواب الجيش "للأتراك" ، وذلك لمقاومة النفوذ الفارسي ، ولكن لمّا كثر الجند من الأتراك في "بغداد" كثُر شغبهم فيها ، فبنى لهم "المعتصم" مدينة "سامراء" على أربعين كيلو متراً شمالى "بغداد" ؛ لتكون لهم معسكراً .

ويَحسُن بنا أن نذكر أنّ "أُمّ المعتصم" كانت تركيّة ، من أجل ذلك أصبحت "سامراء" في حقبة من حِقب الزمن عاصمة للخلافة العباسيّة،وقد حدث في خلافة "المعتصم" حدثان مهمّان،**وهما :**

أولاً: القضاء على فتنة "بَابَك الحرمِىّ"، وقطع دابر الفتن السياسيّة الدّينيّة.

ثانياً:فتح "عَمُورِيَّة" ؛ وكان ذلك ردّاً على اعتداء "ملك الروم" على "زِبَطْرَة"، وانتهاكه لحرمة المسلمين بها ، حتى صرخت إحدى المسلمات، وقالت: "وامعتصماه" ، فجيَّش "المعتصم" الجيش الإسلاميّ ، وفتح "عَمُورِيَّة" ، وهى إحدى المدن "الرّوميّة" وتقع في "آسية الصّغرى" ، وبذلك كان خَضْد شوكة "الرّوم" ، فدمَّرها وأحرقها وكان ذلك ردّاً حاسماً وصارماً وقاسياً على اعتداء ملك الروم على "زِبَطْرَة" وانتهاكه لحرمات المسلمين فيها ،**وفي ذلك يقول الشّاعر "أبو تمام حبيب بن أوس الطائى :**

يا يوم وقعة عموريّة انصرفت ∴ منك المنى حَفلاً معسولة الحلب (١)

---

١ - الديوان .

● تاريخ الأدب العربى ٣٦/٢ بتصرف .

● رشفات من رحيق الأدب العباسي : لشيخنا وأستاذنا المرحوم الدكتور / عبد السلام أبو النجا سرحان ص١٣٨ .

أبقيت جد بني الإسلام في صَعَد ∴ والمشركين ودار الشرك في صبب

وخلف "المعتصم" اثنان من أولاده ، وهما : "الواثق" سنة "٢٢٧"هـ-"٨٤٢"م و"المتوكّل" سنة "٢٣٢"هـ-"٨٤٧"م ، ولم يحدث في أيامهما إلا اتّساع نفوذ الأتراك في الجيش ، حتى صار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء ، فيقتلون من شاءوا ، ويولّون من شاءوا .
وقد بدأ استعلاؤهم بقتل "المتوكّل" نفسه سنة "٢٤٧"هـ ، والتى توافق سنة "٨٦١"م ثُمّ لم يبق للخلافة زَهْوٌ بعد ذلك ، ولم يبق للخلفاء سلطان (١).
الأطوار الاجتماعيّة في العصر العباسي :
إنّ البيئة العربيّة لم تنقلب فجأة ، بل بدأ التبدّل فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقطار العالم في الشّرق والغرب ، ومنذ أخذ الإسلام يسود بين غير العرب، ومنذ شرع البدو يتخلّون عن سكنى البادية ، وينزلون الحواضر، ومنذ شغف الفاتحون العرب الساميّون بالجَمال الآرىّ ، فتزوّجوا الفارسيّات والتّركيّات والرّوميّات .
إلا أنّ هذا التبدّل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدوّلة العباسيّة مبلغاً لفت الأنظار وغطّى على خصائص الشّعر البدوي الأُولى .
وقد نتج من ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأمم ، واقتباسهم أموراً كثيرة من أوجه الحضارة الماديّة ، ومن أساليب التّفكير ، ثم إنّ الموالى (المسلمين من غير العرب) الأوّلين احتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم ،ومن عاداتهم في الجدال خاصّة ، وأخذوا يتساءلون عن كثير مما في الإسلام من فروض وأحكام وعقائد ، بعد الموازنة بينها وبين ما عرفوا في أديانهم القديمة – كالتّفريق بين ذات الله وصفاته ، والبحث في شأن الجنّة والنّار وفي أعمال الإنسان ، وهل هو مخيَّر يأتي أعماله حرّاً مختاراً ، أم مسيَّر مجبر على أعماله.

---

١ - تاريخ الأدب العربى : للدكتور / عمر فروخ ٣٣/٢ وما بعدها بتصرف .

وهكذا نشأت منذ أواسط العصر الأموي حركة الاعتزال ، ثم اتسعت في العصر العباسي اتّساعاً كبيراً ، والاعتزال: حركة فكريّة تقوم على أنّ العقل وحده حَكَم في جميع الأمور حتّى في العقائد ، ولم يضق صدر الإسلام بهذه الحركة؛ لأنها حركة أصيلة فيه ولكن أهل الدّولة حملوا الأمر على ظاهره ، فكانوا إذا ضاقوا ذرعاً بخصم سياسي ثم وجدوا عنده شيئاً من حريّة الفكر ، قالوا عنه : إنه زنديق ، وأخذوه في الظاهر بهذه التّهمة بينما هم كانوا في باطنهم ينقمون منه خصومته السّياسيّة.

وكان أبعد الأسباب أثراً في تبدل المجتمع الإسلامي: الزواج بغير العربيات، فقد تبدلت به الحياة البيئية في المطعم والملبس ، وآداب السلوك

وبينما كان العرب الأوَّلون خُلَّصاً ، لا يرون للأمم على العرب فضلاً في شئ أصبح الجيل المولَّد الجديد يتعصب أيضاً لخؤولته ، ويرى أن العرب ليسوا أفضل من سواهم في كل شئ ، هذه التسوية بين غير العرب وبين العرب هى التى سمّاها أهل الحمية العربية "الشعوبية".

وكان في البيئة العباسيّة طبقة أثرت في حياة المحدثين تأثيراً عميقاً ،تلك هي طبقة الجواري ، والجارية في الأصل : هى الفتاة ، أو الفتية من النساء، ولكنها أصبحت تطلق على الإماء – أي الجواري المملوكات – على أنّ الجواري في العصر العباسي لم يكنَّ يمتهنَّ في خدمة البيوت ،أو أننا نحن لا نعنى هؤلاء منهن ، بل كان هنالك أستاذون وأستاذات يعلِّمون الجوارى أصناف العلوم ، كالفقه ، والكلام ، وأنواع الفنون كالغناء والرقص والشّعر حتى إنهن كنَّ يُتَّخذن للمباهاة والمناظرة ، وقد بلغ ثمن الجارية مثل هذه مئات ألوف الدراهم أو الدنانير.

وكثر التّقرب "التشبّه بالعرب" بين الموالى ، وبلغ من إعجابهم بالعرب أنهم كانوا يلفِّقون لأنفسهم أنساباً عربيّة ، فأبو تمام الرومى أصبح "حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن عدى بن عمرو بن الحارث بن طئ بن أدد بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان".

وهكذا أصبح المسلمون من التّرك والفرس والرّوم يشعرون شعوراً قومياً عربياً فاللّغة العربيّة أصبحت لغتهم ، والتّاريخ العربى تاريخهم ، والحياة العربية حياتهم، حتّى إنّ الذين لم يدخلوا في الإسلام بل ظلّوا في أهل الكتاب، من النّصارى واليهود والصّابئة، كانوا لا يختلفون في شعورهم الظاهر عن المسلمين في شئ، وربما تسمّوا بالأسماء الإسلامية وتكنوا بالكنى العربية.

إنّ شكل الدولة والحكومة الذى كان للعرب قبل الإسلام لم يصلح للإمبراطورية الجديدة وللمجتمع الجديد ، وكان للبلاد المفتوحة حكومات ،فلم يستنكف العرب أن يستفيدوا من اختبار من نزل في تلك البلاد قبلهم من الدول، فاستعانوا بالأنظمة القديمة وبرجال الدول القديمة ، وبما أن الفرس هم الذين ساعدوا العباسيين على نيل الخلافة لم يكن مستغرباً أن يلقى العباسيون قياد دولتهم إلى الفرس جملة ، حتى أصبحت الدولة العباسية فارسية في كل شئ، وحتى أصبح الفرس والخراسانيون خاصة يدعون "أبناء الدولة" ، فأثار ذلك نقمة العرب -والشّيعة منهم خاصّة -على العباسيّين.

خصائص الأدب العباسي :

إنّ الأدب العباسي الذي ساد في صدر الدّولة العباسيّة يسمّى "الأدب العباسي" نسبة إلى الدّولة التي قيل في أيامها ، ويسمّى "الأدب المولَّد" ؛ لأن معظم الأدباء في ذلك العصر كانوا مولَّدين (مولَّد بين أبوين أحدهما عربي والآخر غير عربي) ، أو "الأدب المحدث" ؛ لأن أولئك الأدباء كانوا محدثين (جدداً أو متأخرين ، بالإضافة إلى أدباء الجاهلية وأدباء العصر الأموي).

ثمّ إنّ الأدب نفسه كان بهذا المعنى مولّداً ، لم يكن عربياً خالصاً في معانيه وأسلوبه فقد دخل في الأدب العربي فنون وأغراض ومعان لم يألفها الأدب العربى من قبل كالغزل بالمذكر ، والخمريات ، والتوفّر على الأوصاف الحضريّة ، وإهمال العصبيّة العربيّة البدويّة ثم دالت دولة الجمل والطّلل ،وقام على أنقاضها "دولة الرياض

والحسان" ، وزالت من الشعر المطبوع بالطّابع الجديد آثار التّقليد للأقدمين والاحترام لهم ، وحلّ مكانها النّفور من حياتهم وأغراضهم ، وبدأ الابتكار ، ثم مات التّستّر والكناية ، وظهر مكانهما التّصريح وقلة المبالاة.

أما الأسلوب :

فدخل عليه شئ من الضَّعف في معرفة خصائص الألفاظ ، وفي التَّركيب أيضاً ولكن اكتسب رقّة في التّعبير ، ودخل عليه التّكليف بالإكثار من الصناعة (الجناس والطباق خاصة) وتطوّر النّثر في العصر العباسي تطوُّراً كبيراً ، وبدأ التَّأليف على ما نعرف اليوم.

وحدث تطوُّر آخر في الشّعر ، إذ مال المحدثون إلى الأوزان القصيرة ، وإلى نظم المقطعات (الأبيات المعدودة في أغراض محدَّدة) ، كما أحبّوا القوافي التي كانت إلى ذلك الحين مهجورة أو شبه مهجورة ، فبنوا بعض مقطعاتهم على ما غرب من الذال والطاء والضاد فلم تنفر في السمع ؛ لأنهم لم يطلبوا القصائد فيضطروا إلى الاستعانة بقواف غريبة.

-الألفاظ الجديدة :

إن البيئة العباسية بما جدّ فيها من مظاهر الحضارة المادية ، ومن أوجه الثقافة الأجنبية خاصة ، وبما حدث فيها من جوانب الحياة الاجتماعية اقتضت ألفاظاً جديدة للتعبير عن تلك المظاهر والأوجه والجوانب ، **وقد تجلّت العبقرية اللغوية في العرب عن ثلاثة أنواع من الألفاظ :**

-الألفاظ المولّدة :

وهى صيغ مشتقة من جذور عربية ، نحو "تلاشى" أي: اضمحلّ ، و"استأهل" بمعنى "استحق" ، و"الإيقاع" : أى الضرب على الدف ونحوه على نظام معيّن ، وكذلك لفظة "أدب" الدّالة على الإنتاج الراقي من الشّعر والنّثر.

وربّما كان التّوليد في استعمال صيغة عربية قديمة لتأدية معنى جديد ،

نحو: "استعرض" فإن معناها الجاهلي "قتل بالسيف" ، فاستعملت في العصر العباسي بمعنى"تصفح الأوجه المختلفة في شئ ما" ، كقولنا اليوم : "استعرض القائد الجيش" .
ثم حدث في البيئة العباسية مظاهر ومعان لم يجد العرب لها في لغتهم ألفاظاً تؤدّيها من قُرب أو من بُعد ، فعرّبوا ألفاظها الأجنبية (أى هجروا اللّفظ الأجنبي في صيغة عربية قدر الإمكان) ، نحو : "أنذزاه" الفارسية ، فإنها أصبحت هندسة ، و"كليما" اليونانية فإنها أصبحت "إقليم" . فهاتان وأمثالهما هي الألفاظ المعرَّبة .
وبقى عدد من الكلمات لم يمكن تعريبها أيضاً ، فظلّت مدّة على لفظها الأجنبي نحو أبا ذميا" ، "اسطقسى" ، "اسطرونوبيا" ، ثم أوجدت لها ألفاظ عربية هى : "الوباء" "العنصر" ، "الهيئة" أو "الفلك" ، ثم بقى ألفاظ لم يجد العرب حاجة إلى تعريبها ، أو لم يتأتَّ لهم تعريبها ، نحو : "قانون" ، "جغرافية" "اسطرلاب" "كاغد" الخ ، وهذه كلها تسمّى الألفاظ الدخيلة ؛ لأن العُجمة ظلّت ظاهرة عليها.
المذهب البغدادي ، والمذهب الشيعي :
انقسم الشّعراء منذ الجاهليّة إلى فريقين :
- فريق أخذ شعره بالتّنقيح والتّهذيب ، مثل "أوس بن حجر" ، و"زهير بن أبى سلمى" و"النابغة الذبياني".
- وفريق جرى في نظم الشّعر على السّليقة ، مثل "طرفة بن العبد" ، و"عنترة" و"الخنساء" .

وكانت قيمة شعر الفريق الثاني بالمعاني التي فيه ، أما تراكيبهم فكانت تتعقَّد أحياناً حتى تكاد تستغلق ، كما نرى في شعر "طرفة" ، أو تضعف حتى تَرُكّ، كما نرى في شعر "عنترة" .
أما الفريق الأوَّل فكانت قيمة شعرهم في العناية بالتّعبير عن المعاني ، وفي تطلّب التّشابيه والاستعارات ، وإخراجها مخرج الصّور الشّعرية .
وعاش المذهبان إلى العصر الأموي ، "فالأخطل" كان من الذين يأخذون شعرهم بالتّنقيح ، بينما "عمر بن أبى ربيعة" كان يجرى في

شعره على السّليقة، فلما جاء العصر العباسي كان الميل فيه إلى نظم الشّعر سليقة وطبعاً ، كما نرى عند "بشار بن برد" ، و"أبى نواس" ، و"ابن الرومي" .
وبما أن معظم الشعراء الذين كانوا يفضّلون المعنى على اللّفظ كانوا يعيشون في "بغداد" ، فقد عُرفت طريقتهم باسم "المذهب البغدادي" ، ثم كان هنالك شعراء مالوا إلى "التأنّق" في اللّفظ ، وبما أن معظم هؤلاء كانوا ممن نشأوا في الشّام ، ثم اتّفق أن انتقلوا إلى بغداد ، مثل "أبى تمام" وتلميذه "البحتري" ، أو كانوا من الذين أثروا "الشام" في السكنى مثل"ديك الحى الحمصى" أستاذ "أبى تمام" ، ومثل "المتنبي" و"أبى فراس" ، و"المعرى" – فقد سمّيت طريقتهم في الشّعر "المذهب الشامي" .
ويَحسن أن نشير هنا إلى أن نفراً من شعراء "بغداد" "كمسلم بن الوليد" ، و"الشّريف الرضىّ" كانوا من أتباع "المذهب الشّامى" ، ثم إننا كثيراً ما نجد لأتباع المذهب الشّامى مقاطع وقصائد تجرى على المذهب البغدادي ، كما نرى للبغداديين أبياتاً يتأنّقون فيها ويغالون [١] .

خصائص الشعر الشامي :

قليلاً ما يميل الشّاعر الشامي إلى "الهزل" أو "المرح" في شعره ،فمِن أبرز خصائص الشّعر الشّامى ما يلى :

أولاً : النّسيب القديم :
فقد كان الشاعر الشامي يُعجب إعجاباً شديداً بالنّسيب القديم سواء أحبَّ حُباً عفيفاً أو حبّاً مادّياً ، أو لم يحب قط.

ثانياً : الفخر :
ومن الأغراض التى عشقها ، وتعلّق بها الشّاعر الشامي "الفخر بالعرب" في شعره ، سواء أكان عربيّاً (مثل : الشّاعر "البحتري"،

---

١ - تاريخ الأدب العربى : للدكتور / عمر فروخ ص٤٢ .

و"المتنبي") أو فارسياً (مثل : الشاعر "مسلم بن الوليد") أو كان رومياً (مثل الشاعر "أبو تمام").

ثالثاً : الحماسة :
وهى الفروسيّة ، ووصف المعارك الحربيّة ، سواء أكان فارساً وخاض المعارك (مثل الشاعر "المتنبي"، و"أبو فراس الحمداني") ، أو جباناً (مثل الشاعر "البحتري").

رابعاً : تكلّف الألفاظ العربية :

خامساً : تكلّف التّشابيه والاستعارات والبديع ، (مثل الجناس ، والطباق) خاصة حتى إن الشّاعر الشّاميّ ليحاول ألا يُخْلى بيتاً له من ضَرْب من ضُروب البديع ومنها الاتّكاء في التّشابيه والاستعارات على قضايا (المنطق، والنحو ، والفقه) وغيرها من العلوم .
من أجل ذلك ظلّت القصيدة لَدَى الشاعر الشامي على شكلها القديم تجمع فنوناً متعددة.
● أما سبب اتّساع المذهب الشامي منذ صدر العصر العباسي: فراجع إلى أن خصائص الأدب المُحْدث "وجلّها على المذهب البغدادى" كانت شائعة في شعر شعراء اتُّهموا بالزندقة حيناً ، وبالشّعوبية حيناً آخر ، ثم كانوا من الذين يفضلون الحياة "الفارسية" وممّن نالوا حُظْوة لدى رجال الدّولة من الفرس، فلمّا نكب "الرّشيد" "البرامكة" حدثت رِدَّة إلى الحياة البدويّة وإلى خصائص الشعر البدوى ، وهذه الخصّيصة جانب من جوانب المذهب الشامي.
ولمّا أصرّ الخلفاء والوزراء والأمراء على أن يُمدحوا بشعر على المذهب القديم مع الوقوف على الأطلال ، لم يجد الشعراء المتكسِّبون بُدّاً من موافقة هؤلاء على هواهم وإن لم يكن ذلك رأياً لهم ، كما كان شأن الشاعر "أبو نواس" ، وكذلك كان ثمة شعراء لم يشاءوا أن يتركوا "المذهب البغدادي " ، ولو أدّى ذلك إلى أن تصيبهم الخيبة لدى الممدوحين ويخسرون دخلهم وعطاياهم من المديح لهم بالشعر.

الوصف في العصر العباسي :

اتّسع الوصف في العصر العباسي اتّساعاً كبيراً ، وتناول مظاهر البيئة الجديدة **مثل :** الهياكل ، والجنائن ، والمطاعم ، والملابس ، والخمر ، والزهر. ثم تعرض الشعراء للأحوال الفكرية والاجتماعية ، وذلك من إدخال مدارك النحو والمنطق والفلسفة في الشعر ومن وصف "مجالس الغناء" .

وكذلك اتّسع التّحليل النفسي ؛ إذ أخذ الشّعراء خاصّة ينظرون إلى ما وراء أعمال الإنسان الظّاهرة ، فتكلّموا في "الصّبر" ، و"المكر" ، واستشعروا شعور "السّكران" والغضبان" ، والثّاكل" ، والمهزوم" ، والغنىّ" ، والمتكبّر"، والكريم" ، والبخيل" كما نراه لدى جُلّ الشّعراء ، وعلى وجه خاص لدى الشّاعر "أبى نواس" ، وابن الرومي".

ولقد اقتضى ذلك كلّه أن يحاول الشاعر أن يستوفي كثيراً من عناصر الوصف والتّحليل في مكان واحد من قصيدته ، وفي أبيات متتالية ، فنشأ شئ من "وحدة الموضوع" في القصيدة ، وقد برزت "وحدة الموضوع" في الشعر العباسي بُرُوزاً واضحاً .

اتساع الفنون الأدبية في الشعر والنثر :

إن الفنون الأدبية في العصر العباسي كانت كلّها في الجاهلية ، عدا فن "الغزل بالمذكر" أو لها على الأقل صلة بالفنّ الجاهلي .

فمثلاً : فنّ الفخر ، والمديح ، والرّثاء ، والغزل ، والحكمة ، والوصف ، والزّهد والمجون كانت فنوناً معروفة أصولها في الشعر الجاهلي ، وقد تضاءل الفخر القبلي القديم بينما اتّسع الفخر الشخصي بالنّفس وخصائصها الذاتيّة والأخلاقيّة وبنتاجها الشعري وكذلك اتّسع المديح بالشّجاعة ، والكرم ،وشرف النجار ، وعراقة الأصل ، وأصالة الرأي **وزادت عليه خصائص منها** :

أولاً : المقدرة الفائقة في لعب "الشّطرنج" ، كما نراه لدى "ابن الرومى".

ثانياً : المديح الغزلي ، كما نراه لدى الشّاعر "أبى نُواس" في مدح "الأَمين" وأصبحت خدمة الإسلام في الحرب والإدارة والعدل من

عناصر المدح العباسي ، وكثيراً ما كان الشعراء يَمُنّون على الممدوحين بأنهم يمتدحونهم ، وينظمون فيهم شعراً يعجز غيرهم عن مثله ، كما نراه عند "أبى نواس" ، و"ابن الرومىّ" ، و"المتنبى" فيما بعد.

كما رق الاعتذار والذى رأيناه لدى الشاعر "النابغة الذبياني" واتّسع فيه العتاب الرّقيق الذى نراه عند "البحتري" ، كما كثر الزّهد والحكمة ، وأصبحا فنَّين يعالجهما نفرٌ من الشعراء في قصائد أو مقطّعات تامة ، واتسع القول فيهما في "الأغراض" ، و"الأسلوب".

وكان وصف الصّيد معروفاً في الأدب القديم ، بَيْد أنّه صار في العصر العباسى باباً مستقلاً ، ولم يقتصر على الصّيد فحسب ، بل تناول كل ما يتعلّق بالحيوان ، حتى إنهم وصفوا قتال "الدّيكة"، كما نشاهد ذلك لدى الشاعر"أبى نُواس" .

وكذلك وصف الخمر ، فقد أصبح فناً يشغل بال كثرة كاثرة من الشّعراء في العصر العباسي ، بل أصبح وصف الخمر فناً قائماً بنفسه ، مستقلاً في القصائد الشعرية والمقطّعات على ما يتبع ذلك من آداب المنادمة.

أما الفنّ الذي تستطيع أن تقول إنّه نشأ في العصر العباسي ، ولم يكن موجوداً من قبل فهو فنّ "الغزل بالمذكّر" ، فهذا الغرض لم يكن له وجود في العصر الجاهلي ، ولا في غيره من الأعصر التي سبقت العصر العباسي ، والذي دعا إلى هذا الفن ووجوده في ذلك العصر وظهوره في الشعر ،هو الإعجاب بالذّكور ، ومزيد من الحاجة والألفة والتَّرف الذي تسرب إلى العرب من الفرس مع مجئ جيوش "أبى مسلم الخراساني"، وقد أماط اللّثام عن سبب وجود هذه الظّاهرة إمام العربيّة "الجاحظ" في كتابه "المعلمين" للجاحظ [1] **فيقول**

---

١ ـ كتاب "المعلمين" مفقود ، ولكنى عثرت على صفحة منه منسوخة فى مخطوطة لديوان "أبى نواس" من جمع "حمزة بن حسن الأصفهانى" ، والقول الأخير للدكتور/ عمر فروخ . راجع كتابه "تاريخ الأدب العربى" ٤٤/٢ ــ طبع دار العلم للملايين ــ بيروت ــ لبنان .

"حمزة الأصفهاني" :
"إن الشِّعر قاطبة من مولد الشّعر قبل الإسلام إلى آخر عصر "بنى أمية" كان نسيبهم وتشبيبهم بالنّساء لا غير ، حيث كان النّساء دواعي عشقهم ،فلما أقبلت المسوّدة من المشرق مع أهل "خراسان" أحْدث فيهم "اللواط" ،وذلك لارتباطهم "بالغلمان" ، فتغزّل الشّعراء بالمذكّر .
وكان لحدوث هذه الفاحشة في "الخراسانيين" سببٌ حكاه "الجاحظ" في كتاب "المعلمين" ، فقد زعم أن السّبب الذي أشاع "اللواط" في أجناد "خراسان" خروجهم في البعوث مع الغلمان ، وذلك حين تعذّر عليهم اصطحاب النّساء والجواري حين سَنَّ أبو مسلم الخراساني" صاحب الدّولة في تلك "العساكر"ألا يصحبها النساء خلافاً على بني أمية في إخراجهم النّساء معهم في العساكر، ولم يكن لهم بدّ من غلمان يخدمونهم فتعوّد القوم ذلك في أسفارهم ، فلم يقفلوا منها إلى منازلهم إلا وقد تمكنت منهم هذه الخصلة السيّئة المنبوذة ،وهى خصلة "اللّواط".
والمسوّدة : هم دعاة "بني العباس" ، وسمّوا أنفسهم بتلك التسمية بعد أن اتّخذوا ثياباً سوداً ، ورايات سوداء ، خلافاً لبنى أمية الذين كانت راياتهم "بيضاء" ولو كانت هذه الشّهوة شائعة لدى الأعراب لتعشّقوا الغلمان ولو أنّهم عشقوا الغلمان لقالوا فيهم شعراً يصف مفاتنهم والغرام بهم ولكان فنّهم : الهجاء ، والفخر ووقع بينهم التّنافس في هؤلاء الغلمان .

أما النثر :
فقد كان أكثر تطوراً واتساعاً في العصر العباسي من الشعر، حيث نشأت التّوقيعات وهى جُمل قصار مقتبسة ، أو منشأة كان الخلفاء خاصّة يوقِّعون بها ، ومن هنا جاء اسمها في آخر القصص ، وهى الرّقاع والأوراق التي تعرض عليهم ، وفيها اقتراح بعمل أو طلب من محتاج ، أو حكم من قضاء، أو مبلغ من المال للصَّرف والإنفاق ، ومع أن التّوقيعات كانت معروفة منذ عصر الخلفاء الراشدين ، لكنها قد

اتسعت في العصر العباسي اتساعاً جعلها من خصائص هذا العصر .
فمن التّوقيعات العباسيّة ما يلي :
شكا أهل الكوفة إلى "أبى جعفر المنصور" سوء معاملة "عاملهم" ، والعامل وقتذاك : هو الحاكم الذي يحكمهم ، وقد كلّف بجمع الضرائب منهم ، فوقَّع "أبو جعفر المنصور" في أسفل رُقعتهم التي كتبوا عليها شكواهم ، والتي رفعوها إليه في هذا الموضوع :
"كما تكونوا يؤمّر عليكم"، وردّ "أبو جعفر المنصور" شكواهم وطلبهم ، ولم يغير "العامل" – يعنى أميرهم وحاكمهم.
واتّسعت الكتابة الدِّيوانية : وهى تبادل الرّسائل بين الخلفاء والولاة ، وكثرت أيضاً الرسائل الإخوانية ، والتى يتبادلها الأصدقاء والخلّان فيما بينهم ، وبذلك قلَّ واضمحلَّ شأن الخطابة.

التدوين والتأليف :
إن المظهر الأدبي الذي برز في العصر العباسي بُرُوزاً عظيماً هو "التدوين" ، فقد كان الأدب القديم يقوم على الرواية فحسب ، يتناوله الرواة باللسان ، أما في العصر العباسي فقد غلب "التدوين" يعنى الكتابة وتدوين ما يُسمع للاحتفاظ به إلى وقت الحاجة ، يقول الشاعر :

العلم صَيْد والكتابة قيده ∴ قيّد صُيودك بالقيود الموثقة

وقد تناول التدوين جوانب كثيرة ، منها :
أولاً : إثبات الرّوايات كما سمعت ، وخاصة فيما يتعلّق بالحديث والتاريخ.
ثانياً : إثبات معانى الروايات ، وذلك بعد إيجاز ما طال منها ،أو ما تكرّر فيها وخصوصاً فيما يتعلّق بتاريخ الأدب ، وبالأحوال الاجتماعيّة عند تعدّد الروايات .
ثالثاً : تنسيق الرّوايات ، وهو "جمع المتشابه منها بقد الإمكان في محلٍّ واحد ورواية واحد" مثلما نجد ذلك في كتاب "الكامل" للمبرّد ، على أن هذا التنسيق لم يكن جامعاً فقد ينسى المدوِّن أمراً فيعود إلى

ذكره في مكان تالٍ للمكان الأول .
رابعاً : التأليف ، وهو أن يضع المدوّن نظاماً معيّناً لمادّته الأدبية، أو العلمية كما نشاهده في كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفّع ، وكتاب "الحيوان" للجاحظ.
خامساً : النّقل : وقد اتّسع النّقل في العصر العباسي ، ودون المنقول من الحِكَم والآداب والسّلوك ، وفنون العلم والفلسفة عن اللغة الفارسيّة والسّريانيّة واليونانيّة والهنديّة وربما كان الذي دوّن الروايات يُبدى رأياً بعد رأى في صحّة الرّواية أو في قيمتها أو يفسّر ما يدوّن من بعض الشعر أو النثر، وذلك طليعة النّقد ، ثم إن هؤلاء جعلوا في كتبهم مقاطع خاصّة "بالنقد اللغوي" أو "البلاغي" أو "الأدبي" ثم نشأت فيما بعد كُتُب النّقد .
المذاهب اللغوية والأدبية:
إنّ جميع بحوث العرب في اللّغة يعنى في "الألفاظ والتراكيب" ، وفي صيغ الكلمات المتباينة وفي الإعراب ، وفيما ورد عن العرب ، وما لم يَرِدْ ،وفيما ورد عن قبيلة دون قبيلة إنّما قصد بها ضبط لغة القرآن حتى يظلّ القرآن يُقرأ كما أُنزل على رسول الله سيدنا محمد **ق** فقرأه الرسول – عليه السلام – على المسلمين الأُوَل .
ومن الواجب أن نعلم أن جميع أشعار العرب الجاهليين ، وأخبارهم ، وأمثالهم إنّما قُصد به أيضاً ما قُصد من جميع لُغاتهم في ألفاظهم وإعرابها ،ولا بدّ من فهم ما يسمّيه مؤرّخو التاريخ والأدب : الخلاف بين علماء البصرة وعلماء الكوفة في ذلك كلّه من اعتبار ما يلى :
أولاً : إن اللغة تتطوّر بالإضافة إلى الأمكنة والأزمنة ، حتى تظلّ موافقة لحاجات المتكلّمين بها ، وقد اختلفت اللغة العربية بِحَسْبِ ذلك بين"القبائل الشمالية" نفسها قليلاً كما اختلفت "لغة العرب الجنوبيين" لغة القبائل اليمنية كثيراً ، حتى أصبح أهل اليمن قبل الإسلام يتكلّمون لغة مخالفة للغة "مُضَر" وهم "عرب الشمال" .

ثانياً : لما نزل القرآن الكريم نزل بلغة "قريش" ، ولغة "قريش" يومذاك أفصح قبائل العرب لدى علماء اللغة ، قد ظل ما يبعد عن لغة قريش في لفظه وصيغته وإعرابه غريباً نادراً في اللغة العربية .
وجدير بالذكر أن نقول : إن علماء اللغة حين جمعوا ألفاظها لم يقوموا بجمع ألفاظ "مضر" فحسب ، بل جمعوا كلّ ما سمعوه من "البدو" ، حيث إن "البدو" كانوا في رأى أولئك العلماء يتكلّمون سَلِيقة ولا يخطئون .
من هذا الفَرْض انطلق العلماء يصنّفون الألفاظ: فصيحة، وغريبة ، وحُوشيّة ودخيلة.
ثالثاً : إن الذي نسمّيه "اختلاف الرواة" ليس في الواقع سوى تمسّك كلّ فريق بما سمع في البيئة المحيطة به ، ويبدو أن الفرق بين رأى علماء البصرة، ورأى علماء الكوفة في طُرق اشتقاق الألفاظ ، وفي الدِّفاع عن بعض أو جلّ الإعراب ، وفي إقامة الأدلة على رأى دون رأى إنّما هو من عَمَل العلماء المتأخّرين ، وقد بدأ مع "المبرد" و"ثعلب" في الأغلب الأعم .

العوامل المؤثرة في الأدب العباسى :

أولاً : الحياة السياسية :

لم يكن ظهور الدولة العباسية على مسرح السياسية العربية أمراً مفاجئاً للأمّة العربية خاصّة ، والعالم أجمع بصفة عامة ، فقد كانت هناك مقدّمات واستعدادات أخذت تتبلور في نفوس حكّام "بني العباس" منذ أن ولى"أبو بكر الصديق" أمر الخلافة .
وزادت رغبة تولّى الأمر بعد نهاية عهد "أبى بكر" ، وقيام "عمر بن الخطاب" بالأمر ثم "عثمان بن عفان" ، فالقوم يجمعون على أن أحقّ الناس بالخلافة هم "بنو العباس" الذين ينتمون إلى ق بصلة الرحم القريبة ، حتى عن "على بن أبى طالب" وأبنائه .
فلم تكن نفوس "آل العباس" مهيّأة أو مستريحة لقبول أمر الخلافة للخلفاء الراشدين جميعاً ، كذلك ملأها الحقد والبغض والنّفور مع

الباغضين والنّافرين من "بني أمية" ووُلاتهم ، وكانوا دائماً يتحيّنون الفرصة المواتية لاسترجاع الأمر المسلوب في اعتقادهم وإعادة الأمور إلى نصابها المستقيم.
وبدأ "بنو العباس" على رأس القرن الأول الهجري يدبِّرون في دعوى سرية للقضاء على "بني أمية" ، ويرسلون دعاتهم في الآفاق، خاصّة في "خراسان" و"الكوفة" ، وظلوا يتناوبون الدعوة فيها بينهم ، حتى تمكنوا من القضاء على الدولة الأموية، وكان ذلك على يد "أبى العباس السفاح" الذي رأى أن يتخذ الهاشمية بقرب الكوفة مكاناً مختاراً له وحاضرة الدولة العباسية.
وكان همُّ العباسيين القضاء التامّ على كل من يناصبهم العداء من الأمويين، وكذلك التّخلص من عنصر العلويين ، أتباع سيدنا "على بنأبى طالب" وأبنائه ، وكل من تشيّع لهم .
وإذا كان الأمويون قد خَدَعُوا "على بن أبى طالب" ، وسلبوه الخلافة وأبناءه ، فإن العبّاسيين لعبوا نفس الدّور ، وخدعوا أتباع العلويّين ، وتظاهروا أنهم ليسوا طلاب خلافة فنصبوا أنفسهم للدفاع عن قضية نصرة الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم (١).
ومن هنا فقد تعدّدت الآراء في الأسباب التي أدّت إلى ضعف الدولة الأموية ثم سقوطها في سنة ١٣٢هـ : فمن المؤرّخين من أرجع ذلك إلى انشغال خلفاء بني أمية بالملذات والشهوات عن تفقّد أحوال الرعيّة وأمور الدولة، وظلمهم الرعيّة ، حتى يئس الناس من إنصافهم ، فتمنّوا الراحة منهم .
وأرجع الدكتور / حسن إبراهيم أسباب انهيار الدولة الأموية إلى تحلُّل الأسرة المروانية من داخلها ، ووقوع النّزاع على السّلطة بين أفرادها .
كما عزا بعضهم الأسباب إلى الصراع القبلي ، واضطراب النّظام المالي للدولة وظهور الطّبقيّة بشكل حاد بين العرب والموالى .
وكل هذه الأسباب أو بعضها يصلح تفسيراً لانهيار دولة بني أمية ، بالإضافة إلى العنصر المناوئ للأمويين ، والذي كان يمثّل شوكة في

---

١ - آراء الشعر العربي – مذاهبه وفنونه ص١٥٦ وما بعدها : د/ عبد الرحيم محمود زلط.

حلق الأمويين ، وأعنى به "الشّيعة" الذين كانوا يرون أحقيتهم في ولاية أمر الناس ، ذلك أنّ استشهاد "الحسين" في "كربلاء" وتنازل أخيه "الحسن" عن حقه في الخلافة ، ومبايعة "على زين العابدين" لـ "يزيد بن معاوية" ثم لـ "عبد الملك بن مروان" ، ثم مبايعة "محمد بن على" لـ "عبد الملك" نفسه – كل ذلك لم يكن معناه مطلقاً أن "الشيعة" في هؤلاء الذين تنازلوا عن حقهم إلا أنهم مغلوبون على أمرهم ، وحين مات "محمد بن على" غلا فيه بعضهم فأنكر موته ، وقال إنه تغيب وسيرجع **وأشار إلى ذلك شاعرهم "السيد الحميري" فقال :**

ألا إنّ الأئمّة مِنْ قريش ∴ ولاة الحقّ أربَعَة سواء

علىّ والأئمّة من بنيه ∴ هم الأسباطَ ليس بها خفاء

فسبط سبط إيمان ويُسر ∴ وسبط غيّبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموتَ حتّى ∴ يقود الخيل يقدمها اللواء

وقد ظلّت فكرة الإمام المستتر ، وعودته ذات يوم (يقود الخيل) لكي يحلّ العدالة ويعيد الحق إلى نصابه ،تمثّل أكثر من رمز يلتف حوله لا العلويون وحدهم ، بل كل من يقع عليهم الغبن وينشدون الخلاص .

ومن ثم يمكننا بلغة العصر أن نقول :

إن الشيعة قد مثلت في حياة الدولتين : الأموية ، والعباسية – دور المعارضة السّياسيّة

ولكن ما علاقة الشيعة بالعباسيين ؟ وكيف قامت الدولة العباسية ؟

ينتسب العباسيون إلى "العباس بن عبد المطلب" عم النبى **ق** ولقد توفي "العباس" في أواخر خلافة "عثمان بن عفان" ، وكان أبرز أبنائه "عبد الله" ،وقد انصرف "عبد الله" إلى التفقه في الدين ، حتى صار حجة في التفسير والسنة ، ولم تكن له مطامع سياسية أما ابنه "على" فيبدو أن فكرة الخلافة راودته ، وإن كنا لا نعرف له حركة في سبيل تحقيقها

وإنما بدأت الثّورة على يد ابنه "محمد" ، فحينما آلَ الحُكم إلى "معاوية بن أبى سفيان" بقى نفر من آل "على بن أبى طالب" ا وشيعته متمسّكين بحقّهم في الخلافة وساعين إليها سعياً ظاهراً أو خفياً ،وكان على رأس هؤلاء النفر "أبو هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب"، وحينما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى بالإمامة من بعده لـ "محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، شريطة أن ينقل الخلافة إلى "آل على بن أبى طالب"

وبهذه الوصية وجد "محمد بن على" ركيزة يعتمد عليها في إثبات حقه في الخلافة وكان حصيف الرأي ، بعيد النّظر، فعمد إلى تنظيم الدّعوة العباسية سراً، متّخذاً من الكوفة – دار التشيّع ومستقره – مهداً لها ومركزاً ، ولكنه أسَرَّ في نفسه أمراً ، وهو أن ينقل الخلافة إلى "بني العباس" ، لا إلى "بنى علىّ" ، وقد استطاع في النّهاية أن يحقّق هدفه ويصل إلى غايته [١] بما أوتى من معرفة وذكاء وخبرة في السّياسة ودهاء .

فلقد فكّر أولاً في أنسب الأماكن لنشر دعوته ، فقال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار : " أما الكوفة وسوادها فشيعةُ عليٍّ وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانيّة تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحروريّة مارقة ، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النّصارى وأما أهل الشّام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، أما مكة والمدينة فقد غلب عليهما "أبو بكر وعمر" ، ولكن عليكم "بخراسان" فإن هناك العدد الكثير ، وهناك صدور وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء .. وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدين ومصباح الخلق".

وواضح أنّ هذا الرجل أحسن اختيار المكان الذي تنبعث منه الدعوة ، فهو مكان بعيد عن قلب الجزيرة العربية موطن الدعوة الأموية ،

---

١ - دارسات في الأدب العباسي ص٥ .

لأنه أدرك بفطنته أن دعوته لم تجد طريقها في البلاد التي يسيطر عليها الأمويون،كما أدرك مدى استجابة الفرس لهذه الدعوة الجديدة ؛ لحبّهم الشّديد لآل البيت، وبغضهم للبيت الأموي ، الذي أبعدهم عن المناصب العليا في الدولة .

ومن هنا نقول : لم يكتف باختيار أنسب البينات في وقته لتقبل الدعوة فحسب بل أنسب الجماهير التي يمكن أن يعوّل عليها عندما تخرج الدعوة من السرية إلى العن ويكون عليها حقاً أن تصطدم بقوات الأمويين المحاربة[١].
ومن الأمور التي ساعدت على تحقيق ما هدف إليه العباسيون أيضاً : اختيار الوقت المناسب ، فقد أرجأ العباسيون الدعوة الجهرية إلى عام ١٢٦هـ حين ضعفت الدولة الأموية في حين سلكت الدعوة السرية طريقها في "خراسان" وما جاورها سنة ١٠٣هـ، ١٠٤هـ وهذا إن دل فإنما يدل على أن "محمد بن على" كان حاد الذكاء ، بعيد النظر إذ رأى أن القيام بأى ثورة آنذاك سيعرضهم لبطش الأمويين ، بل إن مجرد الإعلان عن أنفسهم ودعوتهم سيجر عليهم المتاعب ، وسيفسد الأمر عليهم ، ومن ثم فقد آثر أن تظل الحركة سرية، مستفيداً في هذا من التنظيم السري الذي كان لـ "أبى هاشم" .
كما اختار العباسيون لدعوتهم رجالاً أكفاء ، ذوى لسان وجنان نهضوا بدعوتهم على أكمل وجه ، وقاموا بها خير قيام ، ومن أشهر هؤلاء الدعاة " أبو سلمة الخلال" الذي كان يلقب بـ "وزير آل محمد" ، و"أبو مسلم الخراساني" الذي كان على رأس هؤلاء الدعاة ذلك الذى كان داهية أريباً ، وداعية بصيراً ، يحسن سياسة الأمور ، ويعرف ما سيكون بما هو كائن[٢].

---

١ - في الشعر العربي – الرؤية والفن ص٢١ .
٢ - دراسات فى الأدب العباسى ص٧ .

وقد استطاع هذا الرجل بذكائه ودهائه أن يوقع الهزيمة "ببنى مروان" ، ولما قيل له بأي شئ أدركت هذا الأمر ؟ قال : "ارتديت بالكتمان ، واتّزرت بالحزم ، وحالفت الصبر وساعدت المقادير ، فأدركني طلبي ، وحزت بغيتى". **وأنشد في ذلك :**

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ∴ عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم ∴ والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا

حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ∴ من نومة لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ∴ ونام عنها تولى رعيها الأسد

وبهذه الأسباب الثلاثة : تخير المكان المناسب ، وتخير الوقت المناسب لإظهار الدعوة ثم اختيار الدعاة الأكفاء والرجال القادرين ، مضافاً إلى هذه الأسباب حسن التخطيط وبراعة التنفيذ - سقطت دولة "بنى أمية" ، وقامت دولة "بنى العباس" [(١)].

ولئن سقطت دولة بنى أمية وسكت صوتهم بسيف العباسيين ، فلقد ظل الشيعة العلويون يناوئون حكم العباسيّين ، ويرون أنهم قد اغتصبوا حقاً هم به جديرون ، فضلاً عن أن لهم الفضل في نجاح الثورة ، واستمر الصراع بين العباسيين والعلويين مدة طويلة من الزمن .

---

١ - راجع دراسات فى الأدب العباسى ص٧ ، ٨ نقلاً عن د / كمال لاشين فى كتابه من تاريخ الأدب فى العصر العباسى الأول .

ويطول بنا الحديث لو أننا تتبعنا حركات الشيعة العلويين وثوراتهم ضد العباسيين في كل جزء من أجزاء الدولة الإسلامية ، وكل صقع من أصقاعها ، وإنما الذي نريد أن نؤكد عليه هو أن الشيعة ظلوا طوال الحكم العباسي يمثلون المعارضة النشطة الخطرة على خلفاء "بني العباس" ، وهى معارضة لم تكن ترتكز على قوة السلاح بقدر ما كانت تعتمد على أيديولوجيتها الخاصة في شرعية الحكم وفي نظام الإمامة (الوراثة)، وفي صفات الإمام .

واستمر الجدل بين الحزبين : الشيعى ، والعباسي – وقد انعكست أصداء هذا الجدل على المستوى الفقهي ، فكان الصراع بين فقهاء السنة ، وفقهاء الشيعة . كما انعكست أصداء هذا الجدل على المستوى الأدبي ، فظهر الشعر السياسي المعبر عن وجهة نظر العباسيين ، ووجهة معارضيهم من الشيعة .

ويشغل هذا الشعر قدراً غير يسير من أدب ذلك العصر ، كان له فعله وتأثره وخطره لدى الفريقين المتعارضين ، ولدى جماهير الناس ، حيث كان الشعر ما يزال في هذا العصر كما كان في العصر الأموي – يقوم بدور الصحافة الحزبية السياسية [١].

وبحسبنا أن نتوقف عند هذه الحرب الشعرية التي دارت بين الشيعة والعباسيين ، فهذا "مروان بن أبى حفصة" – شاعر العباسيين المقرب الذي نظم شعره في مدح العباسيين ، نجده في بعض الأحيان يمزج مدحه لهم بتأكيد شرعية خلافتهم ، وأحقيتهم بها دون الشيعة العلويين .

من ذلك قوله في مدح الخليفة "المهدى" :

يا بنى الذى ورث النبى محمدا ⁂ دون الأقارب من ذوى الأرحام

١ - فى الشعر العباسى – الرؤية والفن ص٤٩ ، ٥٠ بتصرف .

الوحى بين بنى البنات وبينكم ∴ قطع الخصام فلات حين خصام

ما للنساء مع الرجال فريضة ∴ نزلت بذلك سورة الأنعام

ارضوا بما قسم الإله لكم به ∴ ودعوا وراثة كل أصيد حام

فهو يشير إلى أن حقهم في وراثة النبى **ق** تؤكده آيات الميراث في القرآن الكريم فتحسم كل خلاف .. ويقال : إنه كان أشد ما أزعج العلويين في هذا الشعر بيته الذي يقول فيه : أنى يكون – فقد أثار حفيظتهم فردوا عليه شعراً كذلك ، ويقال : إنهم تعقبوا "مروان" نفسه واغتالوه ، **وجاء في ردهم على لسان شاعرهم "جعفر بن عفان الطائي"**

لم لا يكون وإن ذاك لكائن ∴ لبنى البنات وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله ∴ والعم متروك بغير سهام [١]

وبعد مقتل "محمد النّفس الزّكيّة" وأخوه "إبراهيم" بأيدي "بني العباس" ، وتشتت العلويين في شتى الأقطار الإسلامية قال "دعبل" قصيدة رائعة فيما حلَّ "ببنى علىّ" من النّكبات ، وما أصابهم من تشتّت وتشريد واضطهاد ،وضنك في العيش استهلّها **بقوله :**

بكيت لرسم الدار من عرفات ∴ وأذريت دمع العين بالعبرات

مدارسي آيات خلت من تلاوة ∴ ومنزل وحى مقفر العرصات

ديار عفاها كل جون مبادر ∴ ولم تعف للأيام والسنوات

---

١ - فى الشعر العباسى – الرؤية والفن ص٥٠ ، ٥١ .

ثم تحدّث في مقطع منها عن حقّهم المشروع في الخلافة بوصفهم ورثة النبي **ق** وأنّ أعداءهم ليسوا سوى حاسدين لهم على هذا الشّرف، بما تواتر من خبر الوصيّة "لعلى" **وحاقدين عليهم :**

قفا نسأل الدار التي خفّ أهلها ∴ متى عهدها بالصوم والصلوات

وأين الألى شطت بهم غربة النوى ∴ أفانين في الآفاق مقرفات

هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا ∴ وهم خير سادات وخير حماة [1]

وقد استطاع الحزب العباسي أن يستقطب بعض الشعراء الذين لم تكن ميولهم الحقيقية عباسية ، بل ربما كانوا أكثر تعاطفاً مع العلويين ، وذلك إما عن طريق التّرغيب أو عن طريق التّرهيب .

وبالطبع وُجد في هذا الجو شعراء التملق والنفاق ، فهذا شاعر متلوّن استطاع بطريقة عجيبة أن يجمع بين ميوله العلوية ومدح العباسيين ، وهو "إسماعيل بن محمد" المعروف بـ "السيد الحميرى" ، فقد أكثر من مدح العلويين وندب قتلاهم ، والتغني بفضائلهم وكان تشيّعه لهم واضحاً ، ولكنه – فيما يبدو- استخدم مبدأ "التّقية" الذي كانت الشّيعة تقول به في أن يوجّه بعض شعره إلى مدح العباسيين والتحدّث بأفكارهم.

ومبدأ "التّقية" : هو يدعو الأتباع من الشّيعة إلى كتمان انتمائهم ، والتّظاهر بالطّاعة وأن يعملوا الأعمال المطلوبة إليهم من قبل الولاة الظّاهرين على أتمّ وجه ، حتى لا تحوم حولهم الشّبه إلى أن تنضج الثورة ، **يقول** :

أمرر على جدث الحسين ∴ فقل لأعظمه الزكية

---

١ - السابق ص٥٧ .

يا أعظماً لا زلت من ∴ وطفاء ساكبة روية

وإن مررت بقبره ∴ فأطل به وقف المطية

وخذ المطهر للمطهر والمطهرة النقية

وهو نمط من شعر الشيعة المفعم بحرارة العاطفة .
وما يكاد الأمر يستقر لبنى العباس حتى نجد "السيد الحميري" يسرع إلى "أبى العباس السفاح" أو خلفائهم – مادحاً له ولعشيرته ، ومروِّجاً لفكرة من أفكارهم الرئيسية ، وهى أنهم سيتبادلون الخلافة في الأرض ، وأنها ستظل فيهم إلى أن يظهر "المسيح" ، **فيقول** :

دونكموها يا بني هاشم ∴ فجددوا من عهدها الدارسا

دونكموها لا علا كعب ∴ من كان عليكم ملكها نافسا

دونكموها فاقسموا تاجها ∴ لا تعدموا منكم له لابسا

قد ساسها قبلكم ساسة ∴ لم يتركوا رطباً ولا يابسا

ولست من أن تمسكوها ∴ إلى مهبط "عيسى" آيسا

جدير بالملاحظة هنا أن الشاعر يوجه خطابه إلى "بني هاشم" جملة ولا يخص "بني العباس" بمعروف أن العلويين يقظون كذلك .
بالإضافة إلى هذا الصراع الذي كان بين العباسيين والعلويين ، والذى أرّق الخلافة العباسية من بدايتها حتى النهاية ، وجد صراع آخر بين العرب من جهة والموالى من جهة أخرى .
فلقد كان الفرس أبرز العناصر البشرية في المجتمع العباسي ، فعلى

أكتافهم قامت الدولة ، وبسيوفهم رسخت دعائمها ، ومن بينهم اتخذ "بنو العباس" وزراء وقواداً ، وليس غريباً أن يستتبع هذا غلبة الفرس وقوة نفوذهم [١] .

وبالطبع لم يستسلم العرب لقوة الموالى ونفوذهم ، بل قاوموا وكان بين الجانبين صراع عنيف حيناً ، وهادئ حيناً ، واتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة بعضها سياسي يكيد فيه العرب للموالى ويكيد الموالى للعرب ، وقد كان هذا أخطر وجوه الصراع وأخفاها في نفس الوقت ، فكانت الرعية تفاجأ بين الحين والآخر بخليفة يطيح بوزير من وزرائه الموالى .

والذي يعنينا هنا هو أصداء هذا الصراع في الأدب ، ومن أبرز هذه الآثار الشعرية ما نراه في شعر "بشار" ، و"أبى نواس".

من ذلك ما يروى : من أن "المهدي" سأل "بشاراً" فيمن تعتد يا "بشار"؟ فقال : أما اللسان والرأي فعربيان ، وأما الأصل فعجمي ، **كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :**

ونبئت قوماً بهم جنة ∴ بقولهن : ذا ؟ وكنت العلم

ألا أيها السائلي جاهداً ∴ ليعرفني ، أنا ابن الكرم

فإذا كانت "قريش" تتنسم أعلى مكانة بين القبائل العربية ، فإنه انتمى إلى القبيلة التي تناظرهم في الرفعة لدى العجم ، **ثم نراه يقول :**

هل من رسول مخبر ∴ عنى جميع العرب

من كان حياً منهم ∴ ومن ثوى في الترب

---

١ - فى الشعر العباسى ص١٠ : د/ محمد فتوح ص١٩٧٤ .

بأنني ذو حسب ∴ عال على ذي الحسب

جدي الذي أسمو به ∴ كسرى وساسان أبى

إلى أن يقول :

ولا حداً قط أبى ∴ خلف بعير جرب

وهكذا يبدأ بالانتساب ، فيعزو نفسه إلى ملوك الفرس من جهة أبيه ، وإلى قيصر الروم من جهة أمه ، ولكنه يتطرق إلى ذم العرب ، وتحقير شأنهم من خلال تلك الموازنة التى يعقدها بين سيرة آبائه ، وبين جانب من نمط الحياة لدى العرب البداة ، حيث يشير إلى رفع عقيرتهم بالغناء (الحداء) خلف الجمال الجربة .

وهذه الموازنة بين حياة الأعراب وطراز الحياة التي جلبها الموالى الفرس إلى مجتمع الدولة الجديدة كثيرة في شعره ، وهى موظفة دائماً عنده للحط من شأن العنصر العربي وإبراز مظاهر تخلفه الحضاري في حياته اليومية .

ومن ذلك ما قاله في الرد على أعرابي قال : ما للموالى والشعر ؟

أحين كسيت بعد العربي خزاً ∴ ونادمت الكرام على العقار

تفاخر يا ابن راعية وراع ∴ بنى الأحرار ؟ حسبك من خسار

وعلى إيقاع هذه الموازنة التي تهدف أساساً إلى تحقير العرب راح "أبو نواس الحسن بن هانئ" يضرب ضرباته ، **فيقول** :

دع الأطلال تسقيها الجذور ∴ ويبكى عهد جدتها الخطوب

وخل أراكب الوجناء أرضاً ∴ تخب بها النجيبة والنجيب

بلاد نبتها عشر وطلح ∴ وأكثر صيدها ضبع وذيب

فهكذا يصف "أبو نواس" حياة العرب بالخشونة ، وأن المتحضّرين المنعّمين المترفين لا مكان لهم فيها ، فهي حياة جدب وشقاء ، وترحال لا ينتهي على ظهور الجمال في الفيافي والقفار .
كما كان هناك صراع له أثره الكبير على الحياة الأدبية ، هو صراع العرب مع الرّوم وهو صراع قديم منذ الجاهليّة ، ولم تكفّ الصّراعات بين العباسيين والرّوم منذ عهد الخليفة "المنصور" ، وحتى ضعف شأن الخلافة العباسية ، وانقسمت إلى دويلات.
وتابع الشعراء هذه الحروب ، وتلك الصّراعات فكانت أشعارهم وثيقة من وثائق العصر .
وفي تأثير الفرس في الدولة العباسية يذكر الأستاذ / أحمد حسن الزيات : أن الدولة العباسية قد اصطبغت بصبغة فارسية ؛ لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيّدوها ، فاتّخذت قصدتها "بغداد" أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأطلق الخلفاء أيدي الموالى في سياسة الدّولة فاستقلوا بشئونها ، واستبدوا بأمورها ، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع فضعفت العصبيّة العربيّة ،وعلا صوت الشّعوبية ، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسيّة والتركيّة والسريانيّة ، والروميّة ، والبربريّة في تكوين الدّولة [١].

١ - تاريخ الأدب العربى ص٣٣٣ وما بعدها – دار الثقافة – بيروت – ط١٩٧٨/٢٨ .

هذا ، وقد كان هدف العباسيّين في سياستهم لدولتهم منذ نشأتهم يتركّز في النّقاط التّالية :

١ – الإلحاح الدائب بأنّ الخلافة حق شرعي لبنى العباس .

٢ – مطاردة الشّيعة الذين يزعمون أن لهم الحقّ في الخلافة .

٣ – الاستعانة بالعنصر الفارسي ، وبخاصّة "آل برمك"، و"آل الفضل".

٤ – القضاء على بقايا الأمويّين .

٥ – استبقاء الهيبة في النّفوس بالتّهديد والوعيد .

ثانياً : الحياة الاجتماعية وأثر العناصر الأجنبية فيها :

الخليفة يتصفّح تاريخ الدولة العباسية ، يبهره ذلك الثراء الواسع الذي كان ينعم به وفي ظلاله خلفاء وأمراء هذه الدولة ، ومن على شاكلتهم من أفراد الطّبقة الحاكمة الوزراء والقادة ، وكبار رجال الدولة ، ومن يرضى عنهم هؤلاء فيقرِّبونهم ، من شعراء وأدباء وعلماء ، ومثقّفين ، وجَوَارٍ ، ومغنيين ، فهؤلاء جميعاً كانوا يعيشون عيشة هنيئة يتمتّعون فيها بكلّ مظاهر الترف .

فالخلفاء ومن والاهم كانوا يعيشون في أبراجهم العاجية بعيداً عن العامة، يمنعهم الحرّاس والحُجَّاب ، كما كان الشأن في بلاط الساسانيين ، كما كانت قصورهم في فخامتها وما تشتمل عليه من مظاهر الأبهة صورة مكرّرة لقصور الفرس إن لم تزد عليها [1].

هذا ، والأسباب التي دعت إلى ترف الطّبقة الحاكمة واضحة لمن يدرس أحوال العصر الاقتصاديّة ، حيث كانت تحمل إلى خزانة الدولة حمولة الذهب والفضّة من أطراف الأرض .

ونذكر هنا مقولة "هارون الرشيد" حينما رأى سحابة تسير في السماء ، فقال لها : "أمطري حيث شئت ، ففي أي مكان نزلت سيأتينى خراجك".

---

١ - تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول ص٤٤ وما بعدها : د/ شوقى ضيف – دار المعارف – ط : التاسعة - سنة ١٩٨٦ .

ومن مظاهر الترف في هذا العصر :

١ – **كثرة العطايا والصّلات** التي كانت تُمنح للشعراء والأدباء ، ومن ذلك ما يروى من أنّ الخليفة "المهدي" منح "مروان بن أبى حفصة" مائة ألف درهم على قصيدة مدحه بها حينما أهداه إياها ، والتي مطلعها :"طرقتك زائرة في خيالها" ؟

قيل: عندما سمعها "المهدي" – وكان في صدر مصلاه – زحف حتى صار على البساط إعجاباً بها ، ثم قال له : كم هي ؟ قال "مروان" : مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم [١].

فلقد انهالت المنح والعطايا الجزيلة من الخلفاء العباسيين على من ابتسم له الحظّ وضحكت له الدنيا من الشعراء والأدباء والعلماء ، فهذا "البحتري" الذي كان يمدح السوقة فإذا به ما أن اتّصل بـ "المتوكّل" حتى أغدق عليه العطايا والهبات التي جعلته يسير وخلفه العبيد والخدم .

ويروى أن "المأمون" كان كثير البذل والإغداق على حاشيته ، حتى قالوا: فرَّق في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف درهم [٢].

وعلى الرغم من كثرة العطايا والهبات ، فإننا نجد من الشعراء من يشكو الفاقة وضيق ذات اليد مما جعلنا نعجب أشد العجب من ذلك ، **عندما نسمع شاعراً يقول :**

غنى من الآداب لكنني إذا ∴ نظرت فما في الكف غير الأنامل

١ - العصر العباسى الأول ص٤٥ .
٢ - العصر العباسى الأول ص٤٧ .

وآخر ينشغل بتحصيل لقمة العيش فيقول :

جلوسي في سوق أبيع وأشترى ∴ دليل على أن الأنام قرود

ولا خير في قوم يذل كرامهم ∴ ويعظم فيهم نذلهم ويسود

٢ – **بناء القصور والمدن** : من ذلك ما يروى من أن الخليفة "أبا جعفر المنصور" بذل الكثير من الأموال في بناء مدينة "بغداد" ، وما فعله الخليفة "الرشيد" في بناء قصره المعروف ، والذي وصفه الشاعر"أشجع السلمي" **بقوله**:

قصر عليه تحية وسلام ∴ نثرت عليه جمالها الأيام

فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتقت ∴ للملك فيه سلامة ودوام

قصر سقوف المزن دون سقوفه ∴ فيه لأعلام الهدى أعلام

ولقد كان بناء القصور الفاخرة الشاهقة ، والإنفاق ببذخ على تأثيثها وتزيينها – من مميزات العصر ، فقد بنى الخليفة "المنصور" قصر (الذهب) في "بغداد" على غرار "إيوان كسرى" ، كما بنى "بغداد" بصورة دائرية على غرار "مدينة المدائن" عاصمة "بلاد الفرس" .

٣ – **ترف يتمثل في المأكل والمشرب** والملبس والزينة واللهو واللعب ، إلى غير ذلك من هذه المظاهر .

الشعوبية :

فهي نزعة تفخر بشعبها ضد العرب ، وأوّل من دعا إليها هم "الفرس" ، فقد كانوا يفخرون بمجدهم التالد ، وحضارتهم التي سبقت كل الحضارات ، فقد كان الفرس على درجة عالية من الحضارة في سالف الأيام، وقت أن كان العرب يعيشون حياة خشنة بين البوادي المقفرة

والفيافي الواسعة ، وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى المساواة بين الناس جميعاً في ظله وتحت لوائه ،فقد نمت في أذهان الفرس هذه النزعة عندما وجدوا أنفسهم يعامَلون معاملة سيئة في المجتمع الأموي ، **وهؤلاء فريقان :**

فريق مقتصد معتدل ، وقف عند حد التسوية بين الغرب وغيرهم من الشعوب ؛ **استناداً إلى تعاليم الإسلام التي تسوى بين الناس جميعاً :**

وفريق متطرّف ، يسعى إلى ازدراء العرب ، والحطّ من قدراتهم ، وتفضيل الشعوب الأجنبية عليهم ، وهذا الفريق كان أكثره من الملاحدة والزنادقة الذين يبغضون الدين الحنيف ، وكل ما يتصل به من عرب وعروبة.

ووضع الشعوبية المتطرفون كتباً في ذكر مثالب العرب وهجائهم ،كما وضعوا قصصاً في الأدب تؤيد هذه الأفكار ، من ذلك ما رواه "الهيثم بن عدى" في قصة طويلة تتلخص في أن رجلاً من "تنوخ" نزل بحى من "بنى عامر"، فخرجت إليه جارية ، فقالت : من أنت ؟ .. فقال : من تميم .. فذكرت له أبياتاً في ذم تميم .. فقال لها : لست من "تميم" ، بل أنا من قبيلة "عجل" .. فقالت مثل ذلك .. وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة ، وهى تروى الأبيات في ذمها ، حتى استنفذ القبائل ولما انتسب إلى "بنى هاشم" قالت : أتعرف الخليفة يقول"بنى هاشم" عودوا إلى تحلائكم .

ومنذ عصر بني أمية - وعلى مرأى ومسمع من "هشام بن عبد الملك" -**يقول "إسماعيل بن يسار" طاعناً العرب في خفاء :**

فاتركي الفخر يا أمام علينا ∴ واتركي الجور وانطقي بالصواب

واسألي إن جهلت عنا وعنكم ∴ كسيف كنا في سالف الأحقاب

إذ تربى بناتنا وتدسون ∴ سفاهم بناتكم في التراب [1]

---

١ - القصيدة العباسية – قضايا واتجاهات ص١٣٦ .

فهو يفخر بقومه الفرس على العرب ، ويرمز للعرب بـ "أمام" ، فقد كان العرب يفاخرون بآبائهم ، وأنهم أعلى مكانة ، وأرقى منزلة منهم ، ويؤكد الشاعر أن قومه أولى بالفخار من هؤلاء .
وفي هذا العصر وجدنا "أبا نواس" ، و"بشارا" ، و"الحزيمى" ،و"إسحاق بن إبراهيم الموصلي" يسيرون على هذا الدرب ، بل أشد ، وتمتلئ بأشعارهم كتب الأدب والتاريخ والأدب دائماً صورة لحياة المجتمع ، بارزة الملامح ، واضحة القسمات ، فنرى فيها نعيم الناس وشقائهم ، وغناهم وبؤسهم، وعاداتهم وتقاليدهم ، وأنماط سلوكهم .
والمجتمع في العصر العباسي كان خليطاً من العرب والفرس ، والأتراك ، والزنوج والروم والبربر ، والهنود وقد كثر اختلاط هذه الأجناس ، وامتزاجها عن طريق المجاورة والتعامل ، والتزاوج ، وكثر الغلمان والجواري في بيوت المترفين التي كانت بمجالس الشرب والغناء ، كما كثرت الخصومات الدينية والعقدية بسبب تعدد العناصر واختلاف الاتجاهات وكان لأهل السنة والمعتزلة والشيعة أكبر الأثر في الخصومة .
وعندما نستعرض دواوين الشعراء وكتب الأدب، نجدها حافلة بتصوير مظاهر الحياة الاجتماعية بغناها وفقرها ، وجدها وهزلها ، ورضاها وسخطها ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية .
فقد أدت حياة الترف ، وكثرة الجواري والغلمان في بيوت المترفين إلى شيوع شعر الغناء واشتهر به "بشار بن برد" ، و"مطيع بن إياس" وأضرابهما، وقد اندفعوا ينظمون مقطوعات قصيرة يثيرون بها مشاعر الحب والعتاب ، والصد والدلال ، وما يقترن بذلك كله من مجون ، وخمر ، وغزل فاضح مكشوف ، لا يتوارى ولا يستتر .
وكأن الشعراء حين أحسوا بأنهم ينظمون هذا الشعر في الجواري لم

يجدوا من الحرج ما كان يستشعره أسلافهم حين كانوا يتغزلون بالحرائر المحصنات من بنات العرب .

وما ظنك بتلك المطاردة الصريحة الفاجرة التي يحدثنا "أبو نواس" عن نتائجها في رائيته التي نجتزئ منها الأبيات التالية :

وناهدة الثديين من خدم القصر ∴ سبتنى بحسن الجيد والوجه والنحر

كلفت بما أبصرت من حسن وجهها ∴ زماناً وما حب الكواعب من أمرى

فما زلت بما أبصرت في كل مشهد ∴ ألينها والشعر من عقد السحر

إلى أن أجابت للوصال وأقبلت ∴ على غير ميعاد إلى مع العصر

فقلت : اشربي إن كان هذا محرّما ∴ ففي عنقى يا ريم وزرك مع وزرى

ونمسك عن ذكر بقية القصة ، فهي نموذج واضح لأثر الجواري والمغنيات في المضامين الشعرية لذلك العصر .

ولم تكن الجواري كما لم يكن ذيوع مجالس الغناء والطرب هما السببين الوحيدين وراء شيوع ظاهرة الخلاعة والمجون ، وما أنتجته من آثار في الشعر والأدب ، بل إن اتساع عمران الدولة وازدياد مصادر الثروة قد ساعد من ناحية أخرى على الاستكثار من أسباب اللهو، ومع رغبة الخلفاء والأمراء والوزراء في الأدب والعلم ، فإنهم سايروا الحضارة فكانوا يعقدون مجالس الأنس والشراب ، يحضرها الشعراء والظرفاء والمغنون ، فكثر في الشعر أهل الخلاعة والمجون والتهتك .

وقد كان لهذه الحياة العابثة أثرها الأكيد في أدب هذه الفترة ،ومن بين ما أسفرت عنه ذيوع شعر "الخمر" وانتشاره بشكل لم يسبق له مثيل ، كما أسفرت أيضاً عن مظهر من مظاهر التهتك لم يلبث أن انعكس على الأدب العباسي ، وبخاصة الشعر ، وهذا المظهر هو "التسرى بالغلمان" ، فلم يبق شاعر من المقيمين في "بغداد" إلا واشتهر بغلام يعشقه ويتغزل به ، ولم ينج من هذا الدنس غير الذين ظلوا على أخلاقهم بعيدين عن مفاسد المدنية [1].

ومما يتّصل بتأثير الحياة العابثة والحضارات والعقائد الدخيلة ، ظاهرة الزندقة التي فشت كثيراً في العصر العباسي ، فقد شاع الجدل الديني ، ومذاهب علم الكلام ، وتنوع البحث الفلسفي ، وقد اقترن اسم الزنادقة بالمجان

وقد اشتهر بالزندقة في هذا العصر كثيرون ، ومنهم طائفة غير قليلة من الشعراء والكتاب ، في مقدمتهم "الحمادون الثلاثة" : ("حماد بن عجرد" ، "حماد الراوية" ، "حماد بن الزبرقان") – و"بشار بن برد" ، و"ابن المقفع" ، و"مطيع بن إياس" ، و"صالح بن عبد القدوس ، و"ابن مناذر" وغيرهم .

فهذا "بشار" يذكر الظلام والنور ، ويمجد عبادة النار في بيته القائل :

الأرض مظلمة والنار مشرقة ∴ والنار معبودة قد كانت النار

وهو القائل :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ∴ فتنبهوا يا معشر الفجار

النار عنصره وآدم طينة ∴ والطين لا يسموا سمو النار

---

١ - فى الشعر العباسى : د / محمد فتوح ص٢٥ .

ومن تمام الصّورة أن نشير إلى جانب آخر يقابل (جانب اللهو والمجون والزندقة) وهو جانب الإيمان والزهد الذي ألمحنا إليه آنفاً ، ويمثل هذا إلى جانب كثرة كاثرة من المسلمين في ذلك العصر بعضهم زهد تمرداً على ما كان يراه من مظاهر الخلاعة والعبث وبعضهم نتيجة عزوف تلقائي عن الجاه والسلطان ، وبعضهم إيماناً بما في الزهد من قلة في متاع الحياة ومؤن العيش.
ومن هنا ذاعت في آفاق ذلك العصر أسماء الأتقياء ، من أمثال :"سفيان الثوري" و"موسى الأسوارى" ، و"عبد الله بن المبارك" ، و"سفيان بن عيينة"، و"عمرو بن عبيد" وغيرهم ممن لا يزال ورعهم وزهدهم في الجاه والسلطان مفخرة من مفاخر الحياة المسلمة لذلك العهد . ولعل أبرز مَنْ مَثَّل هذا التيار في الإبداع الشعري هو "أبو العتاهية" الذي استقر به الأمر في النهاية على إسلام راسخ ، وزهد في الدنيا،وعزوف عن متع الحياة ومباهجها ومن لطيف معانيه في تحقير شأن المال والحث على التحرّر من أسره بإنفاقه في وجوه الخير **قوله :**

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه ∴ تملكه المال الذي هو مالكه

ألا إنما مالي الذي أنا منفق ∴ وليس لي المال الذي أنا تاركه [١]

ومن آثار العناصر الأجنبية في الحياة الاجتماعية تقليد العرب للعجم والزواج بغير العربية ، والاندراج بالعنصر الأجنبي ، يقول الدكتور /عبد الرحمن عثمان : " وقد هاجر العرب من "الكوفة" و"البصرة" و"الشام" إلى عاصمة الخلافة العباسية ، وأقاموا مع العجم مجتمعاً جديداً له خصائصه الجديدة وطابعه المستحدَث ، وتلك أول مرحلة من مراحل التغيير التي أكرهت العربي على أن يتنازل عن بعض طباعه ،

١ ـ فى الشعر العباسى : د / محمد فتوح ص٢٥ .

ثم قبل مختاراً أن يمتزج بالعنصر الاجنبى الذي كان يستعلى عليه من قبل ، فتزوج بغير العربية ، واكتسب طباعاً كانت غريبة عنه .
والعرب قلدوا العجم في كل شئ حينذاك ، حتى في ردئ العادات ، إلا قليلاً ممن عصم الله – تعالى – فكنت ترى العربي في زى الوسط الذي يعيش فيه ، ويجعل طعامه وشرابه على مثال أطعمتهم وأشربتهم ، وكان يخوض أحياناً في لهوهم ومتعهم .
ويضيق المقام عن ذكر كثير من النماذج الشعرية والنثرية التي تصور كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، وتكشف عن مدى تأثيرها في الحياة في هذا العصر ، وبحسبنا ما سقناه من نماذج ، ولمن أراد المزيد فليرجع إلى قائمة المصادر والمراجع التي اهتمت بهذه الناحية .

ثالثا : المؤثرات الثقافية في أدب هذا العصر :

لقد نشطت الحركة الثقافية في هذا العصر نشاطاً كبيراً ، كما ظهر في هذا العصر عدد كبير من العلماء والرواد والأوائل في مختلف فروع المعرفة آنذاك.. فازدهرت علوم اللغة العربية من نحو ، وصرف ، وبلاغة – كما ازدهرت العلوم الدينية والتشريعية .

❖ ففي الفقه والتشريع ظهر الأئمة الأجلاء : "مالك" ، و"أبو حنيفة" ، و"الشافعي" و"أحمد بن حنبل" ، و"الحسن بن زكريا العدوى" ، و"يحيى بن صاعد" ، و"أبو بكر بن مجاهد" ، و"أبو يعلى الموصلي".

- وفي الحديث لمع نجم الأئمة الأعلام : الإمام "البخاري" ، والإمام "مسلم" وأصحاب السنن الستة .
- وفي علوم اللغة : "أبو عمرو بن العلاء" ، و"الخليل بن أحمد" ، و"سيبويه" و"الكسائى" ، و"الأصمعى" ، و"ابن درستويه" ، و"الزجاج" ، و"الأخفش" و"نفطويه" .
- وفي رواية الشعر وجمعه ونقده اشتهر : "المفضل الضبى" ،و"حماد الراوية" ، و"أبو عمرو الشيبانى" ، و"ابن سلام" ، و"ابن الأعرابي".

- أما الاشتغال بالأدب والتأليف فيه : فقد اشتهر في هذا العصر "ابن قتيبة"، و"المبرد" و"الجاحظ" وغيرهم .
- وأما الشعراء فقد كانوا كثرة يصعب إحصاؤهم ، وأشهرهم"أبو العتاهية"، و"بشار بن برد" ، و"أبو تمام" ، و"أبو نواس" ، و"البحتري" ، و"ابن الرومي" ، و"ابن المعتز" و"مسلم بن الوليد" ، وكثيرون غيرهم .
- وفي مجال النثر : اشتهر في هذا العصر "الجاحظ" ، و"ابن المقفع" .
- وفي مجال الفلسفة والطب والعلوم : اشتهر "الكندي" ، و"الفارابي".

وكان لهؤلاء دور كبير في إثراء المعرفة الإنسانية بما مدّوا الأدب بوجه خاص [١].

ولقد كان العصر العباسي الأول بحق بداية العصر الذهبي للعلوم والفنون، فقد بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ، ولا من بعد أثمرت فيه المعارف الإسلامية ، وازدهرت الآداب العربية ، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً للبحث ، ومجالاً للتفكير بما تيسر له من سعة الفكر وعمق الثقافة

وكان لهذه النهضة بواعث عدة ، **نذكر منها :**

١ – جمع وتدوين التراث العربي – شعره ، ونثره ، وتاريخه ، ومعارفه المختلفة – حتى أصبح مادة ثقافية ميسورة للناس يقرءونها ويحفظونها ، ويديرون الحوار حولها في دراسة نقدية ، تبين عناصر الجمال والقبح فيها .

٢ – قننت قواعد اللغة في هذا العصر ، بل في أوائله ممثلة في كتاب سيبويه ، وآراء سابقيه ومعاصريه ، كما استنبطت موازين الشعر وقوافيه .

٣ – جمعت اللغة وفسرت مفرداتها في معاجم خاصة ، كـ "العين"كما فسرت مفردات الشعر الغريبة في "كتاب المعاني" .

---

١ - محاضرات فى تاريخ الأدب العباسى : د / على جاد الحق ص٢ .

٤ – دونت معارف الجاهليين والإسلاميين الجغرافية ، والفلكية ، والطبية، والتاريخية والحكايات والأساطير الشعبية ، والعادات القديمة في كتب اختص بعضها بجانب منها ككتابى "الأنوار ، والميسر والقداح" لابن قتيبة ، وتوزعت بعضها في كتب غير متخصصة ككتاب "الحيوان" للجاحظ.
٥ – استُنبطت الأحكام الشرعية من مصادرها بعد الصّراع الفكري الطّويل عليها وفُسِّر القرآن الكريم ، ودُوِّن الحديث الشريف [١].
وفي علماء البصرة والكوفة من اللغويين ورواة الشعر يقول الدكتور شوقي ضيف : " تعاقبت في هذا العصر ثلاثة أجيال ، ورأس الجيل الأول في البصرة "أبو عمرو بن العلاء" وهو أحد القراء السبعة المقدَّمين الذين أُخذت عنهم قراءات القرآن الكريم
وأشهر الجيل التالي له "خلف الأحمر" ، و"الأصمعي" ، وكان ثقة ، ومجموعته الشعرية الملقبة بـ "الأصمعيات" بعيدة الشهرة ، ورويت عنه دواوين كثيرة ، أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين "امرئ القيس" ، و"النابغة" ، و"زهير" ، و"طرفة" ، و"عنترة"
وأهم أفراد الجيل الثالث من لغويِّى البصرة "محمد بن سلام الجمحى" صاحب "طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين" ، وهو كتاب نفيس ، إذ يصور عمل المدرسة البصرية في توثيق الشعر القديم ، ووضع شعرائه في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية .
ورأس الجيل الأول من لغويّى الكوفة "حماد الراوية" ، وكان عالماً بالشعر والغريب وكان "المفضل الضبى" ثقة صدقاً ، وحجة في الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بـ "المفضليات" أنفس مجموعات الشعر القديم .
وأشهر أفراد الجيل الثاني في الكوفة "أبو عمرو الشيبانى" ، ويقال : إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة . ولا يقل عنه شهرة معاصره "ابن الأعرابي" ، وقد رويت عنه دواوين كثيرة

---

١ - المرجع السابق ص٣ .

ومن أفراد الجيل الثالث "أبو عبيدة القاسم بن سلام" ، ويقال : إن الناس لم يكتبوا في اللغة أصح من كتبه ، وله مصنفات كثيرة من أشهرها "غريب الحديث" [١]

الثقافات الوافدة وحركة الترجمة

ذكر الدكتور / شوقي ضيف – أن من أسباب ازدهار الحركتين : العلمية والأدبية – الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة ، وبين ثقافات الأمم المستعربة وما فيها من معارف وعلوم ، **وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر "بني أمية" طريقين:**

الأول : طريق المشافهة مع المستعربين .

الثاني : طريق النقل والترجمة .

وقد ظل الطريق الثاني ضيقاً زمن الأمويين ؛ إذ لا يعدوا ما يُذكر من أنه ترجمت "لخالد بن يزيد بن معاوية" كتب في الصنعة ، والطب ، والنجوم.

أما في هذا العصر فقد كانت ترجمة المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التي كان كثير منهم يحذقها ، ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية .

وكان كثير من المصنفات اليونانية قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلوهم لا في نقل ثقافتهم فحسب ، بل أيضاً في نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل "ابن المقفع" لمنطق "أرسطو" .

وقد نقل "كليلة ودمنة" الهندي الأصل إلى اللغة العربية ، وفي ذلك إشارة إلى ما كان في الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلهم.

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة، وينفقون عليه الأموال الطائلة ، وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، ويعد الخليفة "أبو جعفر المنصور" من أوائل الخلفاء العباسيين المهتمين بحركة الترجمة .

---

١ - تاريخ الأدب العباسى – العصر العباسى الأول : د / شوقى ضيف ص١١٩ : ١٢٠ .

ولقد نشطت الترجمة نشاطاً ملحوظاً في عصر "الرشيد" ووزرائه البرامكة.

وكان مما أزكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة ، وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها ، وجلب الكتب إليها من بلاد الروم .

وللبرامكة فضل لا ينكر في حركة الترجمة ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية ، واليونانية ، والفارسية ، والهندية وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها في عصر "المأمون" ؛ إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً ، كما الحق بها مرصده المشهور [١].

وعن اتصال الثقافة العربية بالثقافة اليونانية يقول الدكتور / طه حسين: "لما جاءت النهضة العلمية في العصر العباسي ، وكان كثير من كتب اليونان قد تُرجم إلى اللغة السريانية أخذ "النساطرة" و"اليعاقبة" يترجمون هذه الكتب اليونانية الأصل من السريانية إلى العربية .

فنقل إلى العربية أهم مؤلفات "أرسطو" في الفلسفة وغيرها ، وبعض مؤلفات "أفلاطون" في الفلسفة ، وأهم كتب "جالينوس" في الطب ، فتسربت هذه العلوم .

وكان لترجمة المنطق اليوناني أثر واضح في العلوم المختلفة ، كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول العلماء في ذلك العصر [٢].

والذي نحب أن نؤكد عليه هنا : أن العرب لم يتأثروا كثيراً بالأدب اليوناني كما تأثروا بالفلسفة والطب والرياضة ، فلم ينقلوا الروايات اليونانية، **ولعل السبب في ذلك** :

أن الأدب اليوناني كان مملوءاً بأسماء الآلهة اليونانية فلم يستسيغوها ؛ ولأن هناك فرقاً واضحاً بين الفلسفة والعلم ، وبين الفن والأدب : فالفلسفة والعلم يرجعان إلى العقل والعقل عالمي يشترك الناس كلهم في قضاياه ونتائجه ، وأما الفن والأدب فمرجعها إلى الذوق ، والذوق

---

١ - تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول ص١٠٩ وما بعدها بتصرف – د/ شوقى ضيف.
٢ - التوجيه الأدبى ص٢٠٦ : ٢٠٧ : د/ "طه حسين" .

مختلف بين الشعوب ؛ لذلك قد استساغوا الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني في سهولة ، ولم يستسيغوا الفنون والآداب اليونانية ، فلم ينقلوها ولم يعنوا بها العناية التامة[١].

آثار الفرس في الأدب العربي :

أفادت الترجمة الفارسية إلى العربية الأدب العربي ، وأمدته بمعان قيمة يرجع معظمها **إلى موضوعين** :

الأول : الأخلاق والآداب والسياسة ، وما يتصل بها ، وقد ترجموا في هذا الباب طائفة صالحة ، تداولتها الكتب العربية وشاعت في الأدب العربي ، مثل كتاب "كليلة ودمنة" وهو كتاب هندي الأصل ، ولكن الفرس زادوا فيه ، وصبغوه صبغة فارسية وكتب أخرى .

وقد أمدت هذه الترجمة الأدب العربي بثروة من الحِكم والمواعظ ، والسنن الرشيدة ظهرت في كثير من الكتب التي أُلِّفت باللغة العربية ، مثل "الأدب الكبير" ، و"الأدب الصغير" لابن المقفع .

والثاني : الذي أجدت ترجمته على الأدب العربي التاريخ والقصص والأساطير ، فقد ترجم كتاب "خدامى نامه" أو "سير الملوك" ، وكتاب "التاج في سيرة "أنوشروان" ترجمها "عبد الله بن المقفع ، وغير ذلك من كتب التواريخ والسير .

وكان للفرس تأثير آخر في الأدب ، بما كتبوا فيه ، فأودعوه معارفهم ونتائج قراءتهم فلما دخل الفرس في الإسلام وخالطوا العرب ، واتخذوا العربية لساناً للعلم والأدب – نبغ منهم مؤلفون في كل من العلوم العربية والإسلامية[٢].

آثار الهند في الأدب العربي :

دخلت المعارف الهندية إلى الأدب العربي عن طريقين :

الأول : اتصال الأمويين بالآداب الفارسية ، وكانت "إيران" منذ

١ - التوجيه الأدبى ص٢٠٧ : د/ "طه حسين" .

٢ - المرجع السابق ص٢٠٩ وما بعدها .

الأزمان القديمة ذات صلة بالهند ، بالاشتراك في الحضارة الآرية القديمة، وبالمجاورة.
الثاني : الاتصال المباشر بين العرب والهند بنزوح العرب إلى الهند ، ونزوح بعض الهنود إلى البلاد العربية ، وبالنقل من اللغة الهندية إلى العربية..

وقد ذاعت بعض المذاهب الهندية في العالم الإسلامي حتى دخلت في الأدب فمذهب التناسخ مذهب هندي المنشأ فيما يظن . وفي هذا المجال نذكر كتاب "كليلة ودمنة" وقصصاً هندية ترجمت إلى العربية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية [١].

وخلاصة القول : إن المسلمين نقلوا إلى لغتهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة ، والطب والنجوم ، والرياضة والأدب عند الأمم المتمدينة، وكان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية ، وقد مرت حركة الترجمة من الثقافات الأجنبية إلى العربية بمرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى : من عصر الخليفة "أبى جعفر المنصور" حتى عصر "الرشيد" ، فقد كان "المنصور" حريصاً على إذاعة العلم بين الناس ، فأمر بترجمة الطب والنجوم ؛ لأنه كان يشكو المرض ويلتمس العلاج ، فإذا انتهى إليه نبأ كتاب أعجمي في الطب فتح خزائنه لمن يترجم له ورفع إليه مكانه ، وكان ـ كما ذكروا ـ يعتقد في النجوم ومطالعها على أنها سعود أو نحوس ، وكان له الفضل في تأسيس معهد الطب ، وعهد بإدارته والقيام عليه إلى طبيب أعجمي .

المرحلة الثانية : وفي عصر "الرشيد" ، وهو عصر الأمن والرخاء نشطت الترجمة واتسع نطاقها ، فقد أوفد رسله إلى جمع الكتب القديمة ،كما ترجموا له كتباً في الطب والنجوم والفلسفة ، إلى جانب ما ترجموا له من المنطق والطبيعة ، وقد كان وزراؤه "البرامكة" على غراره من إقبال على العلم ، وحرص على بعث تراثهم الفارسي ، ذلك التراث الذى تربطهم به ذكريات عزيزة.

---

١ ـ المرجع السابق ص٢١٧ .

ولما ولى "المأمون" الخلافة كان غرس الترجمة قد استقام عوده، وآتى أكله ضعفين فتلاقت الأفكار في ظلاله ، وتكاتفت الثقافات ، واجتمع إلى جمال اللغة العربية روعة إخوتها من اللغات الأخرى حينذاك ، وتوج "المأمون" تلك النهضة الفكرية بترجمة كل ما يعنيه من تراث الأمم الأخرى[١].

تطور البيئة الأدبية في هذا العصر :

عندما آلت الخلافة إلى "بني العباس" تطورت البيئة العربية ، فتطورت تبعاً لذلك البيئة الأدبية ، فلا نكاد نتقدم ربع قرن في المائة الثانية الهجرية حتى يطل الموالى ، وقد أثرت فيهم علاقات جديدة ، وأسباب حضارية مختلفة .

وكان لا بد أن يختلف الأمر ، ويحيد القصد عن مذهب الأوائل ، ويشكل القصيد من ثم مذهباً آخر .. ولقد ساعد في الابتعاد عن روح القديم ما رأينا من تطور الحياة الاجتماعية قبل ، وما صاحب ذلك من وقوف الناس على مذاهب جديدة في الفكر ، وفي العيش فقد ابتعد الأدب شيئاً عن البادية بعد أن بهتت صورتها ، واختلفت معالمها وخرب منها ما كان عماراً [٢].

ولا يعنى هذا أن السليقة العربية قد انتقضت في نفوس العباسيين ، أو حتى لدى الشعراء الذين ماتوا يحسنون اللغة الفارسية ، كلا ، فقد كان الشعراء إلى جانب إجادتهم للغة الفارسية كانوا حاذقين بأساليب اللغة العربية ، بارعين فيها ، من أمثال "أبى نواس" الذي يقول فيه "الجاحظ" : "ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من "أبى نواس" ، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه".

١ - دراسات فى تاريخ الأدب العربى فى عصره الذهبى ص٣٠ وما بعدها .
٢ - الحياة الأدبية فى البصرة حتى نهاية القرن الثانى الهجرى ص٣٥٦ وما بعدها : د/ أحمد كمال زكى .

و"بشار" الذي ذكر الرواة أنه أنشد "خلفاً الأحمر" قصيدته في "مسلم بن قتيبة" :

بكرا صاحبى قبل التهجير   إن ذاك النجاح في التبكير

نلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال : "بلغنى أن مسلماً يتباهى بالغريب ، فأحببت أن أرد عليه ما لا يعرفه" ، وقال له "خلف" : "لو قلت مكان "إن ذاك النجاح في التبكير" : "بكرا فالنجاح في التبكير" كان أحسن". فأجابه "بشار" : "إننى بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : "إن ذاك النجاح في التبكير" كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت : "بكرا فالنجاح" كان هذا من كلام المولدين"[١].

إلا أن التحضر قد دفع أدباء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولد جديد وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسعة بين لغة البدو الذاخرة بالكلمات الحوشية ولغة العامة الذاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال و"بشار" في طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد.

ويقول الدكتور / عبد الرحمن عثمان في تطور البيئة العربية والأدبية في العصر العباس الأول : "لما آلت الخلافة إلى العباسيين ، وتغير الدم العربي في الربع الأخير من القرن الثاني تأثر الشعر العربي في طريقته ، فنحى منحى الرقة، ونزل عن أسلوبه القديم ونهجه الذي كان يصدر عن ذوق عربي خالص، فوصف العرب وهم خارج جزيرتهم بيئتهم الجديدة وبقيام الدولة العباسية انتقلت الزعامة الأدبية من الحجاز ودمشق إلى عاصمتهم "بغداد" ، فقصدها الأدباء من كل فج ، وهوت إليها أفئدة الفنانين من شتى الآفاق ؛ لأنها قلب المملكة الإسلامية الخافق بالشعر والعامر بحب الفنون ؛ ولأن في "بغداد" علية القوم من مشايخ بني هاشم ، وأجاويد بني برمك ، وديدن الشعراء أن تجتذبهم المنح ، وأن تستهويهم حياة الترف والنعيم[٢].

---

١ - تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول ص١٤٣ وما بعدها : د/ شوقى ضيف .
٢ - دراسات فى تاريخ الأدب العربى "الأدب فى عصره الذهبى" ص٣٤ .

وعلى الرغم مما أحاط بالأدباء من مظاهر الحضارة، فإنهم – كما سبق – كانوا قريبى عهد بالبداوة ، وينزعون في شعرهم عن عرق بدوى عريق تتجلى فيه "المواهب الفطرية"

ازدهار الأدب في العصر العباسي الأول :

قلنا : إنه اجتمعت للأدب في هذا العصر عوامل كثيرة دفعت به إلى الرقى والازدهار وهذه العوامل ترجع إلى التغييرات التي طرأت على الحياة العامة بكل صورها في هذا العصر **ويمكن أن نوجز هذه العوامل فيما يأتي : -**

١ - فقد كانت للخلفاء والأمراء مجالس تحولت إلى ما يشبه ندوات علمية وأدبية يتناظر فيها العلماء ، وتطرح فيها موضوعات مختلفة للمناقشة والحوار.

٢ – ومن العوامل التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب بين الثقافة العربية الخالصة ، وبين ثقافات الألفاظ المغلوبة المستعربة وما طوي فيها من معارف وعلوم .

٣ – كذلك كان للأسواق الأدبية دور كبير في إثراء الحركتين العلمية والأدبية ، ومن أشهر هذه الأسواق ، سوق "المربد" ، وسوق "الكناسة" بالعراق، وقد راجت فيها حركة شعرية وأدبية ونقدية .

٤ – كذلك كان للرقى الحضاري الذي عم أرجاء الدولة أثره في خيال الأدباء ، وصداه في شعرهم ونثرهم ، فقد كان لتطور الحياة ، وتغيرها كبير الأثر في تطور الشعر وتنوع فنونه فكثرة المرئيات ، وتعدد أنواعها ، واختلاف أنماط التفكير ، وتباين العادات والتقاليد والأخلاق – كل ذلك استدعى من الأدب نشاطاً جديداً حتى يتلاءم الأدب مع ما استحدثته البيئة والمجتمع .

٥ – كذلك كان لازدهار الحركة الثقافية في هذا العصر عن طريق التأليف والترجمة والمناظرة دوراً في ازدهار الحركة الأدبية ، فمن الحقائق الثابتة أن ثقافة الأديب تلعب دوراً كبيراً في أدبه ، حيث تنمى مداركه ، وتوسع من أُفُقِه وتمده بالأغراض والأفكار،وتضيف إليه ألواناً من الأخيلة ، وكماً هائلاً من مفردات اللغة وتراكيبها .

بيئات الأدب الجديدة في العصر العباسي الأول : -
انتقلت عاصمة الخلافة إلى "بغداد" عندما آلت الخلافة إلى العباسيين،فقد رأى العباسيون أن يجعلوا عاصمة دولتهم في بلاد أنصارهم الفرس، فاتخذوا مدينة "بغداد" مقراً للخلافة ، وأحاطوا سلطانهم بمظاهر الترف التي كانت للأكاسرة، من قصور شامخة ونظام مهيب يليق بالجالس على العرس ، وأعانهم على ذلك كثرة الموارد في الدولة .
وبلاد فارس تمتاز عن "جزيرة العرب" بما حبتها الطبيعة من جمال وخصب فالبساتين النضرة هنا وهناك ، والأنهار والجداول تهب الحياة للسهول الفسيحة ، فتنبت الثمرات في وفرة وكرم ، والأمطار تكلل رؤوس الجبال بمورق الأشجار ، ومونق النبات وللفرس عادات من الترف نشئوا عليها منذ نعومة أظفارهم ، ولهم تقاليد ورثوها من أسلافهم رأى العرب هذا الإقليم الجديد فبهرهم جماله ، وسحرتهم فتنته .
كما هجر كثير من عرب "الكوفة" و"البصرة" و"الشام" و"قلب الجزيرة العربية" عاصمة الخلافة العباسية ، وأقاموا مع العجم مجتمعاً جديداً ، له خصائصه الجديدة وطابعه المستحدَث .
وبالإضافة إلى بيئة "بغداد" العاصمة العباسية وجدت في "العراق" بيئات ازدهرت فيها الحياة الأدبية ، وأهم هذه البيئات : البصرة ، والكوفة .
أما "البصرة" : فإن النثر كما يقول الدكتور / أحمد كمال زكى : لم يعد مقصوراً على الروايات الشفهية ، ولا على المواعظ الدينية ، وإنما تحول إلى دفاتر ، وإلى كتب لاسيما بعد أن يؤدى "ابن المقفع" دوره ، فاكتسب النثر صفة علمية ، ولم يعد وقفاً على عرض الفصاحة وقوة الأسلوب.
وهو مع ذلك يمثل ازدهاراً مهّد لحياة نصية مرّ بها النثر بعد ذلك في نهاية القرن الثاني والقرن الثالث على يد "الجاحظ" ، و"أبى الحسن

المدائنى" الذي يكثر "الجاحظ" من الرواية عنه ، و"سهل بن هارون" أيضاً.
أما الشعر فلقد خرج عن السياسة والهجاء والمديح – كموضوعات أساسية – إلى التعبير عن حياة العصر ، ووجد المجددون أن واحداً كـ "زيد بن مفرغ" قد فتح لهم الباب لاستعمال ألفاظ العامة ، فخرجوا إليهم ليمسح على قصيدهم روح خفيف رشيق ، وهنا نرى شعراء لا يمتون بصلة رحم ، ولا ولاء نرى "بشاراً" ، و"أبا نواس" ، والحسين الخليع و"أبن أبى عيينة" .
وعلى الرغم من أن المديح كان وظيفة الشاعر الأساسية ، وأن النقاد كانوا يشترطون اشتراطات تعتبر جامدة رجعية في القصيدة العربية، فإن الشعراء قد استطاعوا أن يفلتوا من أسر الجمود والرجعية ، حين صدروا للعامة بشعر يخالف الشعر الذي يردون به على الخاصة ومن ثم مثلوا أزهى عصر من عصور الشعر البصري .
ويقول الدكتور / شوقى ضيف – التوازن بين الثقافة العربية والثقافة الوافدة : فقد أصبح العرب ورثة الهند ، والفرس ، واليونان ، والأمم السابقة ، والأمم المصرية القديمة وبحيث كوّنوا من هذا الإرث حضارتهم العربية .
وقد ثبت العباسيون هذه الحضارة على قواعد راسخة من التوازن الوثيق بين الثقافة العربية الموروثة ، وثقافتهم الحديثة ، ومن أهم البيئات التي فرضت عليها قواعد التوازن بين الماضي والحاضر سلطانها بيئة الشعر والشعراء ،فقد مضت توازن بينهما بالقسطاس بحيث لا يبغى أحد الطرفين على صاحبه.
وبذلك احتفظ الشاعر العباسي في "البصرة ، والكوفة ، وبغداد" لأمته بمقوماتها اللغوية والفنية الموروثة ، ولم يفرض هذه المقومات للغناء ، بل أتاح لها كل ما يمكن من أسباب الحياة والازدهار ، إنشاء نماها ، ومد طاقتها بما أوتى من ثقافة حديثة .
انتقال الغناء من الشام إلى العراق :-
في هذا العصر العباسي تحول الغناء ، وما يستتبعه من رقص وموسيقى من الشام إلى العراق مع الملك العربي والدولة العربية ،

وكان لذلك أسباب مختلفة ، يرجع بعضها إلى اتصال أهل العراق بالبلاط الأموي .. ويرجع بعضها إلى أسباب فارسية ، فإن المعروف أن الفرس مشغولون بالملاهي والطرب ..
وهنا نلاحظ اتصال الغناء بالشعر العربي في العراق اتصالاً وثيقاً ، وكان تأثيره بعيداً في الشعر والشعراء ، فقد كان المغنون والمغنيات يغنون في الشعر الحديث أمثال "بشار" و"مطيع بن إياس" وأضرابهما .
ويذكر الدكتور / "طه حسين" – اتساع موضوعات النثر بعد قيام الدولة العباسية في الشام والعراق : عندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئاً فشيئاً ، واتسعت موضوعاته إلى أكثر مما كانت عليه في آخر العصر الأموي، وكان من أسباب هذا : اشتداد الاتصال بين العرب الفرس وغيرهم من الموالى في الشام ، والجزيرة ، والعراق ، ومن أهم هذه الأسباب تسلط الفرس والموالى، ووصول الأمة العربية الإسلامي العربي طور التسوية بين العرب وغيرهم من الموالى في الحقوق[١].
وقد تغيرت طبيعة النثر في هذا العصر – كما يقول الدكتور / "طه حسين" ليس غريباً إذاً أن تتغير طبيعة النثر في آخر القرن الثاني ، وطوال القرن الثالث، وأن تكثر موضوعاته وأن يزاحم الشعر حتى يسبقه ، فقد كان النثر لا يكاد يتجاوز النثر السياسي والتاريخي
أما في آخر القرن الثاني ، وطوال القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها ، وأصبح بعد هذا فن ترف ولَهْو يقوم مقام الشعر في إرضاء الشعور[٢].
ويشير الأستاذ / أحمد حسن الزيات إلى فتور حركة الأدب بعد أن انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة ، وقاعدة الملك ومقر الجند ، ومعقل الأدب .. فلما أنال الله العباسيين من الأمويين ، والفرس من العرب وبغداد من دمشق فترت حركة الأدب في الشام ، فما كان يصدر عنها ولا إليها حتى تملك "بنو حمدان" في القرن الرابع على "حلب".

---

١ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : د/ شوقى ضيف – ط: دار المعارف ص٥٩ .
٢ - المرجع السابق .

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة "البحتري" في إيثار اللفظ الجزل والأسلوب الفصيح السهل ، دون تعمق في المعنى .
وكفي الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في "أبى تمام" و"البحتري" وغيرهما سبق الشعر بعد أن غلبتهم عليه متعربوا الفرس ، وأبناء الموالى في صدر هذا العصر[1].
ومن شعراء "مصر" في القرن التالي "سعيد بن مفيد" الذي يبدو أنه كان يعيش أيام "المهدي"، وأيام "الرشيد" ، إذ يذكر له "الكندي" أبياتاً في مقتل "موسى بن مصعب" والى "مصر" أيام "المهدي" الذى قتله أهل الحرف، **ومنها :**

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم .:. وكانت سيوف لا تدين لمترفي

فما برحت فيه تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مدنف

أما عن بقية البيئات الأدبية في "الحجاز" و"الشام" "وحضرموت" فيمكننا أن نقول مطمئنين : إن الحركة الأدبية فيها قد انتقلت إلى العراق شيئاً فشيئاً منذ بداية القرن الثاني حتى استقرت فيه تماماً .
والحقيقة أن "العراق" كان منذ القرن الأول أكثر البلاد الإسلامية نشاطاً فكرياً ، وكان أحقها بأن يكون مركزاً للحركة العلمية والأدبية على السواء ، لولا أن الخلافة الأموية اجتذبت العلماء والشعراء حولها في دمشق
فما زالت تلك الخلافة عاد "للعراق" مركزه الذي كان جديراً به لعدة أسباب ،
يجملها"أحمد أمين" فيما يلى : -
أولاً : أسس العراق على مدنيات قديمة ، لها علم مأثور ، فكان "السريانيون" منتشرين قبل الفتح ، ولهم مدارس يدرسون فيها الآداب اليونانية.

---

١ - تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٣٢٨ : ٣٢٩ .

ثانياً : كثرة الحروب ، والفتن في العراق .
ثالثاً : كان للقبائل العربية النازلة بالبصري رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء أشبه شئ برؤساء القبائل في الجاهلية في السيادة على قبائلهم ، ووقوف الشعراء ببابهم ، وهؤلاء الرؤساء كانوا مصدراً لحياة أدبية قوية .
هذه الأسباب إذن – إلى جانب انتقال مركز الخلافة إلى "العراق" – هي التي جعلت له هذه المكانة في الحياة الأدبية في القرن الثاني ، وسلطت عليه الأضواء من كل مكان وكان إنشاء "بغداد" سبباً في جلب شعراء البيئات الإسلامية الأخرى إلى "العراق".
ويقول الدكتور / "شوقي ضيف" في حالة الشعر في مصر في العصر العباسي : "نجد مصر تأخذ بأسباب النهضة الفنية التي ستقبل عليها في العصر الفاطمي، ومع ذلك فلا يزال بينها وبين "بغداد" بون بعيد[١].

ازدهار النثر وأسبابه :

لقد تهيأت أسباب أدت إلى ازدهار النثر في هذا العصر وتطوره، ومنها:
١ – الاستفادة من الثقافات والأفكار الأجنبية التي كان لها تأثيرهافي الحضارة العربية وقد تم ذلك عن طريقين :
الأول : النقل والترجمة ، وهو طريق عنى به الخلفاء العباسيون ووزراؤهم ، وخاصة "البرامكة" إلى أبعد حد ممكن ، كما عنى به أفراد مختلفون مثل "ابن المقفع" .
وطريق ثان : لعله كان أوسع مجرى ، هو تعريب شعوب الشرق الأوسط، وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة،ولم ينتقلوا بمعرفهم فقط بل انتقلوا بعاداتهم وتقاليدهم،مما هيأ لظهور المدنية العربية في تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، وهى مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ، ومن الأدب

---
١ - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : د/ شوقى ضيف ص٣٦٤ .

العربي بشعره ونثره ، ومن صور الحياة العقلية والمادية في المحيط العربي الجديد[1].

٢ – ويذكر الدكتور / "طه حسين" الأسباب التي قوى بها سلطان النثر وعظم أمره ومنها : الاتصال بين العرب والأمم الأخرى ، والمساواة بين العرب وغيرهم من الموالى في الحقوق والحرية التي يتمتع بها غير العرب، ووصولهم إلى أعلى المناصب وقد شجع كل ذلك على الترجمة والعناية بالثقافة الأجنبية.

فعندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئاً فشيئاً ، واتسعت موضوعاته وكان من أسباب هذا الاتصال بين العرب والفرس وغيرهم.

ومن أهم الأسباب : تسلط الفرس والموالى ، ووصول الأمة العربية الإسلامية إلى طور التسوية بين العرب وغيرهم .

وفي العصر العباسي عندما تسلط الأجانب وتحققت المساواة بينهم وبين العرب وأصبح سلطانهم قوياً ، أحسّ هؤلاء الأجانب في أنفسهم قوة ساعدتهم على أن يمكنوا لثقافاتهم الأجنبية ، كما مكنوا لأنفسهم من المساواة بالعرب الخُلَّص ، فظهرت فكرة الإكثار من الترجمة ، والعناية بالثقافة اليونانية والفارسية ، ورأينا الوزراء ومن يتصل بهم ينقلون إلى العربية ما كان عند "الفرس" و"اليونان" من علوم[2].

٣ – تعدد شعب النثر وفروعه : فقد أصبح فيه النثر العلمي ، والنثر الفلسفي ، وأصبح فيه النثر التاريخي على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر باللغات الأجنبية ، وخاصة اللغة الفارسية على ما هو معروف عن "ابن المقفع" وترجمته عن هذه القصص "كليلة ودمنة"، ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ، ونظمهم في السياسة والحكم ، مما

---

١ - تاريخ الأدب العربى (العصر العباسى الأول) د/ شوقى ضيف ص٤٤١ .

٢ - من حديث الشعر والنثر : د/ طه حسين – دار المعارف ص٣٧ وما بعدها .

كان له أعمق الأثر في الرسائل الديوانية ، وفي نشوء اليوم باسم "المقالات"[1].

ويجمل الدكتور / "شوقي ضيف" عوامل تطور وازدهار النثر ، فيقول: "إن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر ، ولكي ينمو ويزدهر فقد أخذ يمتد ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي إذ أخذت تغزوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية ،كما أخذت تغزوه الثقافات الأجنبية ، وكل ما اتصل بها من الفكر اليوناني .

وقد أينعت الفروع الجديدة في شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكون فيها أزهار ذاكية الشذى ، بفضل كبار الكُتَّاب والمترجمين والمتكلّمين".

وفي عوامل تطور النثر يقول: "إن النثر تطور تطوراً خطيراً في العصر العباسي الأول فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة ، من يونانية وفارسية ، وهندية ، وسريانية حملاً لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان في المتعة العربية طاقات مستكنة لكى تحمل في يسر هذه الثقافات ، ولا تتأتى عليها واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل، وفي مقدمتهم "ابن المقفع"،ثم رعت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها نفقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نقل إلى العربية ، وبحيث يمكن أن نسمى العصر العباسي الأول "عصر النقل والترجمة" .

مدارســـه :

-مدرسة ابن المقفع :

- التعريف به :

"عبد الله بن المقفع" من أصل فارسي ، ولد حوالي سنة ١٠٦هـ، ونشأ بالبصرة وفيها تلقى العلم والأدب ، وكان ذكى القلب، فصيح المنطق، ضليعاً في أدب العرب والفرس مقدماً في بلاغة اللسان ، والعلم والترجمة ، واختراع المعاني ، وابتداع السير.

من ترجماته ومؤلفاته : "كليلة ودمنة" ، و"الأدب الكبير" ، و"الأدب الصغير" وقتل سنة ١٤٢هـ

---

١ - العصر العباسى الأول : د/ شوقى ضيف ص٤٤٢ .

مدرسته :
و"ابن المقفع" إمام الطبقة الأولى من الكتاب ، وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عرفت به وأخذت عنه ، **وهى** : تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخي السهولة والعناية بالمعنى ، والزهد في السجع.
وكان "ابن المقفع" بارعاً في البحث والتحليل ، وفي سرد القصص وضرب الأمثال ثم إنه يأتي بالبحث وبالقصص والأمثال متداخلة في استطراد محكم ، يبدأ قصة فإذا سار فيها شوطاً في بعض الأحيان ، ويكون البحث والتحليل والحِكَم موزعة بين أقسام القصة الواحدة ، وبين الأمثال المضروبة .
والألفاظ عند "ابن المقفع" فصيحة ، إلاَّ إذا اضطر إلى استعمال ألفاظ فنية، مثل شبه (التبس ، اختلط) ، مرية (شك، ريب) ، خافر (ناقض للعهد)،السباخ (الأرض المهملة).
والتركيب عنده صحيح سهل ، إلا أن جملة طويلة متعانقة بما يؤدى أحياناً إلى شئ من الغموض في التعبير.
و"ابن المقفع" بارع في التصرف بأحرف الجر الكثيرة، وبأسماء الموصول وأسلوبه خال من الصناعة إلا ما يقع له منها عفواً مرة بعد مرة ، وفي مواقف التهكم في الأكثر.
كان "ابن المقفع" كاتباً مترسلاً (موظفاً في الديوان أيام بنى أمية) ، ولكن شهرته تقوم على كتاب "كليلة ودمنة" ، وهو أشهر كتبه ، وأعظمها ، وأدلّها على أسلوبه ، وأجلّها في تاريخ الكتابة الأدبية ، وعليه تقوم شهرته الأدبية.
في كتاب "كليلة ودمنة" أربع مقدمات ، ثم خمسة عشر باباً تدور حول أسئلة يلقيها ملك من ملوك "الهند" بدعوته "دبشيم" على فيلسوف معاصر له يزعمون أن اسمه "بيدبا" وقد أجاب "بيدبا" على هذه الأسئلة بأجوبة مناسبة ،ثم ضرب على ما أجاب به أمثلة واستخرج من كل شئ مغزى صرح به تصريحاً أو تركه ملموحاً .

وكتاب "الأدب الصغير" : مجموع حِكَم يسوقها "ابن المقفع" مجردة من القصص والأمثال ، على خلاف أسلوب "كليلة ودمنة".
"الأدب الكبير" : مجموع حِكَم أكبر من "الأدب الصغير" ، وفيه كلام مبسوط على الصلة بين الحكام والرعية أكثر مما في "الأدب الصغير"، ثم فيه أمور تتعلق بالمخالفة بين الناس أنفسهم[١].

-عمرو بن مسعدة :
هو "أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد (سعد) بن صُول ، أصله تركي، قيل من بيت المُلك في "جرجان".
لما فتح "يزيد بن المهلب بن أبى صُفرة" "جرجان" ، في خلافة "سليمان بن عبد الملك" (٩٦ – ٩٩هـ) أسلم "صول" ، ثم إن "مسعدة بن صول" أصبح مولى لـ "خالد بن عبد الله القسرى" حينما كان "خالد" والياً على "العراق" كلّه ، وعلى "خراسان" و"الهند" (١٠٥ – ١٢٠هـ) ، فكان يكتب له "كاتباً عنده" ، ثم أصبح "مسعدة" كاتباً لـ "خالد بن برمك" ربما في أيام وزارته "للسفَّاح" و"المنصور" ، ثم لـ "أبى أيوب الموريانى" وزير "أبى جعفر المنصور.
لعل "عمر بن مَسعدة" نشأ في "بغداد" ، وأخذ عن علمائها ، وقد برع في الترسل فأصبح يُوقع بين يدي "جعفر بن يحيى البرمكى" في أيام "الرشيد".
ولم يدخل "عمر بن مسعدة" إلى ديوان الرسائل حتى توفي "الفضل بن سهل" (٢٠٢ – ٨١٧هـ) ، فكتب "للمأمون" (في مَرْو) ، ثم جاء مع المأمون إلى "بغداد" (٢٠٤هـ) فأصبح رئيس "ديوان الرسائل" وديوان "الخاتم" ، وتكسب من عمله مالاً جزيلاً قيل ثمانون مليون درهم.

---
١ - تاريخ الأدب العربى – الأعصر العباسية : تأليف: عمر فروخ ص٥٢ وما بعدها .
- الأدب الكبير والأدب الصغير : يوسف خليفة – بيروت – مكتبة البيان .
- الأدب الصغير : أحمد زكى – القاهرة ١٣٣٩هـ - القاهرة – دار المعارف .
- الأدب الموجز للولد الصغير – ترجمة وتحقيق: محمد عفرانى الخراسانى – القاهرة – بدون تاريخ.

وكان "عمر بن مسعدة" مقصوداً ممدّحاً ، مرض يوماً فعاده "مروان بن أبى حفصة" وهنأه (وتعرض "مجاشع" أخو "عمرو بن مسعدة" "لحماد بن عجرد" بالهجاء ، وكان "مجاشع" صغيراً ، فشبب "حماد" بـ "أم مجاشع" ، فبعث "عمرو" بهدية إلى "حماد" واعتذر إليه ، واستكفّه ثم لام أخاه "مجاشعاً" .

ولما غزا "المأمون" بلاد الروم كان "عمرو بن مسعدة" معه ، فأدركته الوفاة في "أذنه" قرب "طرسول" في ربيع الآخر من سنة ٢١٧هـ في الأغلب (٨٣٢م).

كان "عمرو بن مسعدة" صاحب توقيع ورسائل وفصول موجزة ، ولكن ليس له كتاب مؤلف في موضوع معين، وهو فصيح الألفاظ ، سهل التراكيب، حسن السبك ، كثير الإيجاز مع شئ من الغموض المقصود الذي تقتضيه عادة اللباقة السياسية ، وكذلك كان ينظم الشعر ، ووصف "الفضل ابن سهل" بلاغة "عمر بن مسعدة" فقال: "هو أبلغ الناس ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله ، فإذا رامه بعد عنه".

ومن كلامه : كتب "عمر بن مسعدة" إلى "الحسن بن سهل" :

"أما بعد ، فإنك ممن إذا غرس سقا ، وإذا أسّس بنى ، ليستتم تشييد أسسه، ويجتنى ثمار- غرسه ، وثناؤك عندى قد شارف الدروس ، وغرسك شن على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست وسقى ما غرست إن شاء الله".

ولـ "عمرو بن مسعدة" كلمات جوامع للحكم ، **منها** :

العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق – الود أعطف من الرحم – عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء وعُدة للبلاء [١]– ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلاَّ لفضلهما أو فضل أحدهما – علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخّر الجواب ، ولا يبتدئ بالكتاب – ظاهر العتاب خير من باطن الحقد – لا تتعرض لعدوّك في دولته ، فإنّها إذا زالت كفتك مئونته – نُصح الصّديق تأديب ونصح العدوّ تأليب.

---

١ - تاريخ الأدب العربى : تأليف/ عمر فروخ ص٢١٦ وما بعدها .

وكتب "عمر بن مسعدة" إلى "المأمون" رسالة في شأن رجل كان المأمون قد وعده عِدَة "إن رأى أمير المؤمنين أن يفكّ أَسْر عبده من رِبْقة المُطل بقضاء حاجته ، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فَعَل إن شاء الله"[1].

-الجاحظ :

نشأته وحياته :

"أبو عثمان عمرو بن بحر"، ولد بالبصرة، ونشأ بها، وقد اشتهر بلقبه الدال على نتوء حدقتيه وجحوظهما ، واختلف في السنة التي وُلد فيها،على حين اتّفق الرواة على أنه توفي سنة ٢٥٥هـ، والمظنون أنه وُلد في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويروى عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والنقرس (الروماتيزم) : "أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف وأعظمها ست وتسعون سنة .

ويذكر "بروكلمان" السنة التي وُلد فيها ، وأنه وُلد بالبصرة في أوائل سنة ١٥٠هـ وتوفي في شهر المحرم سنة ٢٥٥هـ وهو إنسان طموح قوى العزيمة ، دقيق الملاحظة مرهف الشعور ، مفرط الذكاء

وكان "أبو عثمان" دميم الخلقة ، جاحظ العينين ، ومن ذلك لقبه،حتى قيل: إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم فاستقدمه إليه ليؤدب ولده، فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم، وكان فيه دُعابة واستخفاف بالعادات المرعبة والآداب الوضعية ولكنه كان لطيف الروح ،ذكى الفؤاد، فكه المحاضرة [2].

وكان يتندر على كل شئ حتى على نفسه وشكله، ويروى عنه أنه قال:"ما أخجلني إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتاً، ثم سألت الصائغ فقال: هذه المرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت: لا أدرى كيف أصوره ، فأتت بك لأصوره على صورتك".

---

١ - معجم الأدباء : لياقوت الحموى ١٢٧/١٦ وما بعدها .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ١١١/٢ وما بعدها .
- تاريخ بغداد ٣٠٢/١٢ ، ٣٠٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٢٥٧ .

وقد نشأ "الجاحظ" نشأة فقيرة متواضعة ، ومن أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيمان أحد أنهار البصرة ، وكان يشير ذلك إلى أن نشأته كانت فقيرة، وأنه كان في حاجة إلى أن يكتسب معاشه ، ويروى أن أمه ضاقت بانهماكه في الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق ملئ بكراريس أودعها البيت ، وقالت له : ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس . تريد أن تنبهه إلى التكسب، فذهب إلى البائع مغتماً .

ولقيه "قويس بن عمران" أحد رفاقه الأثرياء في الدرس ، فسأله :"ما شأنك؟ فحدثه بحديث أمه، فأخذه إلى منزله ، وأعطاه خمسين ديناراً، فأخذها فرحاً ودخل السوق واشترى الدقيق، وحمله الحمالون إلى داره ، وسألته أمه: من أين لك هذا؟ فقال لها : من الكراريس التي قدمتها إليّ. وكأن "ابن عمران" كان رمزاً مبكراً لما سيصيبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء.

وكان "الجاحظ" يذهب إلى بعض الكتاتيب التي فيها تعليم القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب، وحفظ القرآن الكريم، وبعض الأشعار، ولما شبَّ مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها، وكانوا يحاضرون في كل فن، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس، وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شرعية ومن نحو وعلوم لغة ، ومن مناقشات ومحاورات بين المتعلمين من كل الفرق، وكان يختلف إلى المربد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار، وكانت المربد سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ العصر الأموي [١].

---

(١) العصر العباسى الثانى : د/ شوقى ضيف .

ولم يكن يكتفي بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد ، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر.
وقد أحاط "الجاحظ" على وجه العموم بجميع معارف عصره، وبرز في دراستها وتفوق على أقرانه في كل فن من فنونها، بدليل أنه كتب في معظم الموضوعات التى شاع فيه التأليف في عصره إن لم يكن فيها كلها، وكتابا : "الحيوان" و"البيان والتبيين" يشهدان له باتساع العلم، وغزارة الاطلاع، وتشعب الثقافة، والقدرة على التدفق والإفاضة في جميع معارف العصر؛ حيث كان ينتقل فيها من فن إلى فن في يسر وسهولة.
وكان من أهم ما شغف به مذهب المعتزلة، ولزم أساتذته في عصره، بادئاً بأبي الهديل العلاف، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقته.
وكان من أهم من لزمهم "النظام"، وكان لا يبارى في المناظرة وإقحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة.
وقد هداهم طول تفكيره في آراء أستاذه (النظام) الاعتزالية وغيره من "المعتزلة" إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كونت له فرقة سميت "بالجاحظية" نسبة إليه.
ولما شغل الخليفة "المأمون" بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة طلب من "الجاحظ" الكتابة في هذا الموضوع، وكتب "الجاحظ" فأعجب "المأمون" بما كتب إعجاباً كبيراً ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد "للجاحظ"؛ لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة.
ويقال : إن "المأمون" حاول أن يقلده ديوان الرسائل، ولكنه لم يستطع العمل إلا ثلاثة أيام، عاد بعدها إلى التأليف والكتابة الأدبية.
وكان "أبو عثمان" يحب العرب، ويعتز بالعروبة، وقد أثار في نفسه هذا الحب عقدة الكراهية للشعوبية، والتصدي لهم، ودحض مزاعمهم التي روَّجوا لها، وعملوا على إلصاقها بالعرب. وقد تنوعت آثار "الجاحظ" الأدبية بين المناظرات، والرسائل الإخوانية والرسائل الأدبية، والنثر القصصي، والنادرة. وقد نبغ في فن المناظرات إلى حد كبير، ولعل تشيعه لآراء المعتزلة، واعتقاده لها منحه وسائل النجاح في هذا اللون من النثر.

فقد اتخذوا المناظرات وسيلة فعّالة للدّفاع عن معتقداتهم، والانتصار لها أمام مذاهب الجماعات الأخرى [١].

مؤلفاته :

كُتبه تربو على مائتي كتاب، وهي كما قال الأستاذ "ابن العميد" :"تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً"، ومنها: "البيان والتبيين"، و"الحيوان"،و"المحاسن والأضداد"، و"البخلاء" و"ديوان رسائله"، وكان يقال: أربعة لم يُلحقوا ولم يُسبَقوا: "أبو حنيفة" في فقهه و"الخليل" في أدبه، و"الجاحظ" في تأليفه، و"أبو تمام" في شِعره.

نثره وشعره :

نقل "الجاحظ" الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض، ونهج للمترسلين والمثقفين طريقة في الإنشاء .

أما شعره : فلا روعة له، ولا جمال فيه، وقد نزع في نظمه إلى الإتباع لا الابتداع.

ومذهبه في الأدب أو طريقته أشبه بالطريقة الأولى (طريقة ابن المقفع) في سهولة العبارة، وجزالتها ، وإنما تمتاز الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجُمل، والاستطراد، ومزج الجد بالهزل لدفع سآمة القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية.

وفي سمات وخصائص كتاباته يقول الدكتور/ شوقي ضيف:

"إنه لا يعنى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه، وبألفاظه وملاءمتها لمعانيها موضوعاتها وقرائها كما يعنى بسريان روح الدعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية ، إلى نادرة ، إلى بيان سمة لشخص من معاصريه، إلى قرآن أو حديث، إلى فكرة من علم من علوم عصره، إلى عقيدة للمجوس، إلى ما لا يُحصى من المعارف وأحوال المجتمع، وبذلك ينفرد عن أدباء عصره؛ إذ جعل أدبه أدباً واقعياً يصوِّر مجتمعه، وكل ما فيه من أخلاق وعادات.

---

(١) النصوص الأدبية للسنة الثالثة - د/ عبد الحميد هلال ص٥٠ .

نماذج من نثره :

من كتاب البخلاء : قال "خاقان بن صبيح": دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً، وإذا هو قد أتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة، وإذا هو قد ألقى في دهن المسرجة شيئاً من ملح، وقد علق على عمود المنارة عوداً بخيط، وقد حز فيه، حتى صار فيه مكان للرباط. فكان المصباح إذا كاد ينطفئ أشخص رأس الفتيلة بذلك. قال: فقلت له: ما بال العود مربوطاً؟ قال: هذا عود قد تشرب الدهن. فإن ضاع ولم يحفظ، احتجنا إلى واحد عطشان. فإذا كان هذا دأبنا ودأبه، ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفاية ليلة .. قال "خاقان": فبينا أنا أتعجب في نفسي، وأسأل الله -جل ذكره -العافية والستر، إذ دخل شيخ من أهل "مرو"، فنظر إلى العود، فقال: يا أبا فلان، فررت من شيء ووقعت في شبيه به.

أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أو ليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى، وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك، حتى وفقني الله إلى ما هو أرشد. -عافاك الله! -بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة. وعلى أن العود والخلال والقصبة ربما تعلقت بها الشعرة من قطن الفتيلة، إذا سويناها بها، فتشخص معها. وربما كان ذلك سبباً لانطفاء السراج. والحديد أملس. وهو مع ذلك غير نشاف .. قال خاقان: ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس، وفضل أهل "مرو" على أهل خراسان! [(١)]

.

ومن كتاب "الحيوان": عجائب الوجود :

ثمّ اعلمْ أنَّ الجبلَ ليس بأدلّ على اللّه من الحصاة، ولا الفَلكَ المشتمل على عالَمنا هذا بأدلَّ عَلَى اللّه من بَدَن الإنسان، وأنَّ صغيرَ ذلك

---

(١) تاريخ الأدب العربى – الأعصر العباسية – تأليف: عمر فروخ ص٣١٠ وما بعدها.

ودقيقَهُ كعظيمهِ وجليلة، ولم تفترقِ الأمورُ في حقائقها، وإنما افترقَ المفكّرون فيها.
ومن شعره : الشيخوخة والشباب :

أترجو أن تكون وأنت شيخ   كما كنت أيام الشباب ؟!

لقد كذبت نفسك ليس ثوب   دريس كالجديد من الثياب

الخطـابــة :

وهى فن مخاطبة الجماهير، وتعتمد أول ما تعتمد على الإقناع واستمالة السامعين والتأثير فيهم، فالذي لا يؤثر في عواطف السامعين لا يسمى خطيباً، وهذا لا يتيسر إلا لمن حباه الله مَلَكة البيان، والقدرة على المشافهة والارتجال.
وقد كان العباسيون من الخلفاء وأقرباؤهم من العلويين وأعداؤهم من الخوارج وكبار القادة والولاة، ونابهوا الناشئين من الفرس والأدباء على جانب رفيع من فصاحة البديهة وقوة الحجة، وامتلاك وسائل الإقناع.
والخطابة ضرورية لكل مجتمع، في سلمه وحربه، فهي أداة الدعوة إلى الرأي والتوجيه إلى الخير، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين والزعماء والمصلحين، فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية(١).
والخطابة تنتعش إذا وجدت دواعيها، وتوفرت أسبابها، وفي العصر العباسي وجدت عوامل أدت إلى ازدهار فن الخطابة ، من أهمها :
١ - توضيح أصول الإسلام، وشرح مبادئه للعناصر غير المسلمة التي ضمها المجتمع في العصر العباسي؛ لتدخل هذه العناصر في دين الله، وطبيعي أن ألوان القول في مثل ذلك تتمثل في الخطب والمحاضرات.

---
(١) دراسات فى الأدب العباسى ص١٤٢ .

٢ – استخدمت الخطابة في الرد على الذين أثاروا الشبه حول الإسلام والجدل في مسائله، ومن هنا تكونت مدرسة للرد على هذه الشبه بالحجة البالغة والخطابة الممتعة، وكان هذا المجال معين الخطباء الذي لا ينضب.
٣ – كانت المناوشات على الحدود الإسلامية بين العرب والروم تستدعى دعاة للجهاد في سبيل الله ، ودفع العدو ، ونصرة دين الله ، وتأمين حدود الدولة، والجهاد دافع من دوافع الخطابة، وسبب مهم من أسباب نهضتها.
فقد كان لها في صدر هذا العصر مكانة في النفوس ، وسلطان على القلوب؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند، واستقبال الوفود، وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها شأن رفيع، مثل: المنصور، والمهدي، والرشيد، والمأمون . فلما استوثق الأمر لبنى العباس، وقام الموالى بسياسة الدولة وقيادة الجيش، وقلة النضال بالسنان واللسان، ضعفت الخطابة؛ لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعي، وحلت الرسائل والمنشورات محلها[١].
وقد تنوعت الخطابة وتعددت أغراضها ، وأهمها :
أ – الخطابة السياسية :
نشطت الخطابة السياسية منذ مطلع هذا العصر، واعتمد العباسيون عليها في الدعوة لهم، والتنفير من الحكم السابق، ومن ذلك خطبة "أبى العباس السفاح" حين بويع بالخلافة في الكوفة، وفيها يتحدث عن رحمهم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تالياً من القرآن الكريم الآيات التي تشيد بأهل البيت،ثم يُعَرِّض بالشيعة المغالية قائلاً : "وزعمت السبئية الغلاة أن غيرنا أحق بالخلافة، فشاهت وجوههم،

(١) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٢٤٣ .

ولم أيها الناس، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصَّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر [1].

ب - الخطابة الدينية :

حرص خلفاء هذه الدولة على أن يكون شعارهم هو الدين والعمل على إعزازه والجمع بين الولاية والصلاة، فأموا الناس في الصلاة الجامعة، يلقون الخطب في الْجُمَع والأعياد، كما عهدوا بالخطابة إلا الكفاءة من العلماء، فنبغ في أواخر هذا العصر طائفة من الأدباء اشتهروا بهذا النوع من الخطابة، كالخطيب البغدادي، والخطيب التبريزى.

ولما استعجم المسلمون، ومَلَك العلماء ألسنة الوعّاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم،"كابن نباتة المصري" وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها،ولا علم بمغزاها، ودرجوا على هذه الحالة المخزية مدة طويلة، حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة.

نموذج من الخطابة الدينية :

خطب المهدي خطبة بارعة قال فيها : "عباد الله ، إنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولم تُتركوا سُدى، حصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر أن النبي ق قال: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له"، إنكم سفر مجتازون، وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء؛ فسارعوا إلى المغفرة، وإلى الرحمة والتقوى، وإلى الهدى بالإنابة، فإن الله – تعالى – ذكر واجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين.

---

[1] محاضرات فى الأدب العباسى – د/ على جاد الحق ص٢٩ .

ج - الخطابة العسكرية :
وكانت تلقى في الجنود في ميادين الحرب إثارة لروحهم، وتقوية لمعنوياتهم، ونصحاً لهم، وإشادة بقوتهم، وقد تعودها قادة الجيوش يستعينون بها على تشجيعهم على قتال العدو.
وغالباً ما كانت تلك الخطب قصيرة في جملها، قوية في كلماتها، تستمد معانيها غالباً من الدين، ونصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف.
ومن الخطب العسكرية خطبة "عبد الله بن طاهر بن الحسن" في قتال الخوارج: "إنكم فئة الله، المجاهدين عن حقه، الذابّون عن دينه، الذائدون عن محارمه، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله، والطاعة لولاة أمره الذين جعلهم رعاة الدين، ونظام المسلمين فاستنجزوا موعود الله ونصره، بمجاهدة عدوه، فليكن الصبر معلقكم الذي إليه تلجأون وعدتكم التي بها تستظهرون[1].
د – الوعظ والإرشاد :
هو لون من النثر يجرى على اللسان ، يقوم على الوعظ ، والقص، والتذكير بالآخرة ، والتخويف من عقابها. وقد احتاج العصر العباسي لهذا النوع من الخطابة ، بعد أن تفشّت فيه الموبقات ، وانتشر الفساد. امتلأت بالوعاظ والنساك المجالس والمساجد، يسمعهم الناس فيبكون متأثرين بأقوالهم، وممن اشتهر بالوعظ "عمرو بن عبيد"، و"صالح بن عبد الجليل"، و"ابن السماك" واعظ الرشيد، وغيرهم.

الخصائص الفنية للخطابة في العصر العباسي الأول:
تميزت الخطابة في هذا العصر بروعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه، فكان الخطيب يستعين بآيات من الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول ﷺ والقصص الديني، كما تميزت

---
[1] العصر العباسى الأول – د/ شوقى ضيف ص٤٥٦ .

الخطابة بوجه عام بتفرع المعاني وتشعبها، وعنى الخطباء عناية واسعة بالأساليب، والدقة في اختيار اللفظ، والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة، وأدى بهم ذلك في بعض الأحيان إلى استخدام السجع مثل "الفضل بن عيسى الرقاشى"، وفيه يقول "الجاحظ": "كان ساجعاً في قصصه، وكان من أخطب الناس".
كما امتازت الخطابة غالباً بالسهولة والوضوح، وظهر فيها التأثير المنطقي، فاهتم الخطباء بالإقناع عن طريق الحجج والبراهين، وغلب عليها تنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء، كما عنوا بروعة الصورة والأخيلة.

الكتابة الفنية و موضوعاتها:
هي الكلام الذي يبدع فيه كاتبه في التعبير، ويتروى في تأليفه، ويتأنق في اختيار ألفاظه وأساليبه، ويعمل فيه فكره في ترتيب أفكاره الجزئية، وتنظيم أفكاره الكليَّة، مع الاعتماد على الخيال والتصوير، والمحسِّنات البديعية في تحسين الأسلوب وتوضيحه.
وقد نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً كبيراً من ذوى الرأي والخبرة، ومما يدل على أن الكتابة بلغت ذروتها في العصر العباسي تلك المنزلة التي تسنَّمها الكُتَّاب، فقد تبوأوا المراتب العليا في الدولة، حتى كان منهم الوزراء "كابن العميد"، و"الصابى"، و"المهلبى". كما كانوا يحصلون على ثروات طائلة من هذه الوظيفة.
وكانت منزلة الكاتب في الدواوين ترتفع على كل منزلة ، ومكانة تسمو على كل منزلة، وهو – كما يروى – مستشار الخليفة، وصاحب الرأي في مجلسه.
ويقول الدكتور/ شوقي ضيف في رقى الكتابة وأسباب ذلك بعد أن ذكر تَعَقُّد الدواوين وتنوُّعها بدواوين للخراج، ودواوين للنفقات، ودواوين للجيش، ودواوين للحرب:
وبذلك نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً واسعاً، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام، يحدوهم في ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة.. ولم يكن نجاح الكاتب هيناً، فقد كان لا بد له من

إحسان صناعة الكتابة، وإتقانها، من حيث الوضوح والجمال الفني .. والمادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت أهم المؤثرات في رقى الكتابة الديوانية وتطورها [1].
موضوعاتها : ويمكن تقسيم الكتابة إلى أنواع ، بحسب موضوعاتها ، فهناك:

١ – الرسائل الديوانية :
وهى واضحة من اسمها، فهي التي تصدر عن ديوان الخلافة، ولا تخرج موضوعاتها عن تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة، وأخذ البيعة، والفتوح والجهاد وتدبير السياسة والحُكم.. الخ.

٢ – الرسائل الإخوانية :
وهى التي يتبادلها الإخوان والأصدقاء مع بعضهم البعض، من تهنئة أو تعزية أو عتاب.. الخ.

٣ – الرسائل الأدبية :
وهى التي تعالج فناً من الفنون، أو علماً من العلوم، وهى كثيرة، ومتنوعة، ومن أهم كُتَّابها : "أبو عثمان الجاحظ"، ورسائله مشهورة طبقت الآفاق.
نماذج من الكتابة:
كتب الخليفة "المأمون"، وهو ابن "هارون الرّشيد" رسالة من رسائله "الدّيوانيّة" وذلك لتقرأ على أهل "خراسان"، ليكن أوّل ما تتعهّدون به أنفسكم، وتثابرون عليه من مصالح أدبكم تناصف الحقّ بينكم بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم، وتفخيم أمرهم، فقد علمتم أن منكم المبرز الفائت الذي لا يدرك شأوه، ولا يوازى بلاؤه.

---
[1] ( ) العصر العباسى الأول – د/ شوقى ضيف ص٤٦٥ .

ويكتب "الجاحظ" رسالة في الحسد يقول فيها: "الحسد – أبقاك الله – داءٌ ينهك الجسد، ويفسد الأود، علاجه عسير، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض، وأمر متعذّر فما ظهر منه فلا يُداوَى، وما بَطَن فمداويه في عَنَاء، الحسد عضيد الكفر، وحليف الباطل وضدّ الحقّ، وحرب البيان، وقد ذمّ الله أهل الكتاب
فمنه تتولّد العداوة، وهو سبب كلّ قطيعة ومنتج كل وحشة، ومفرّق كلّ جماعة وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرّق بين القرنَاء، يكمن في الصّدور كُمُون النّار في الحجر، وقد قال بعض الأعراب: "ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، تعس دائم وقلب هائم، وحُزْن ملائم".

فن التَّوقيعات :
فنّ التّوقيعات هو ما يعلّق به الخليفة أو الأمير أو الوزير على ما يرد إليه من الرّسائل والكتب في شكوى مال، أو طلب نَوال، والذي يميّزها هو "الجمع بين الإيجاز، والجمال والقوّة"، وقد تكون آية ، أو مثلاً، أو بيت شعر.
ومن الأمثلة التي نسوقها لفنّ التّوقيعات ما وقع به الخليفة "أبو جعفر المنصور" في كتاب أتاه من صاحب الهند، يخبره أن جُنْداً شَغبوا عليه، وكسروا أقفال بيت المال، فوقَّع الخليفة "أبو جعفر المنصور" بقوله: "لو عَدَلْت لم يشغبُوا، ولو وَفَيت لم ينهبُوا".
ووقَّع الخليفة "هارون الرشيد" إلى صاحب "خراسان": "دَاوِ جُرحك لا يتّسع". ووقَّع في نكبة "جعفر بن يحيى": "أنبتته الطاعة، وحصدته المعصية".
ووقّع "المأمون" في قصّة متظلّم "أبى عيسى" أخيه:
إن الكُتَّاب في العصر العباسي الأول ينقسمون إلى طبقتين:
الطبقة الأولى: الطبقة الأولى من الكتَّاب في هذا العصر كان إمامها "عبد الله بن المقفَّع"، وتتميّز هذه طريقة "ابن المقفّع" بتنويع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السّهولة، والعناية

بالمعنى، والزّهادة في السّجع. ومن رجال هذه الطبقة: "يعقوب بن داود" و"جعفر بن يحيى"، و"الحسن بن سهل بن هارون" و"الحسن بن وهب".

الطبقة الثانية : وكان إمام هذه الطّبقة "عمرو بن بحر" المكنى "أبو عثمان"، والملقب "بالجاحظ"، إمام العربية، وسيّد هذه الطبقة. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى، وذلك في سهولة العبارة، وجزالتها، وتمتاز بتقطيع الجمل إلى فِقْرات كثيرة "مقفّاة أو مرسلة" وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجدّ بالهزل وذلك لدفع السّآمة لدى القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدّعائية، ومن رجال هذه الطبقة "ابن قتيبة"، و"المبرّد".

الشِّعر في العصر العباسي الأوّل:

ازدهار الشعر وأسبابه:

قد اجتمعت للشعر في العصر العباسي الأول عوامل كُثْر أدّت إلى ازدهاره ورقيّه ومن أهم هذه العوامل ما يلى :

- أولاً: الامتزاج الشّديد بين عناصر المجتمع، مع نشأة جيل يتميز بصفات عقلية جديدة أيضاً.
- ثانياً: الرّقى الحضاري الذى عشت في ظلّه الدولة العباسية، ونَعِم فيه الشعراء، مع التمتع بالطبيعة الغَنّاء المرحة، والتى كانت تحيط بهم من كلّ المناحي، وتغمرهم من شتى النواحي، كما كانوا ينعمون بمباهج الحياة من حَواليهم من القصور الفاخرة والحدائق ذات البهجة النّاضرة، والتّماثيل الرّائعة، وغير ذلك من مظاهر الحضارة التي تثلج الصدر، وتبهج القلب، وتبعث على القَوْل، وإنشاد الشعر، وإثراء الحياة الأدبية بوجه عام.
- ثالثاً: تقدير الخلفاء للشعر والأدباء، واحتفاؤهم بالأدب والشعر، واهتمامهم بالمجالس الأدبية، وخاصّة مجالس إنشاد الشعر، فقد كان الخلفاء يحتفون بهذه المجالس الشعرية، ويستمعون إلى الشعراء وينقدونهم، وإجازة كثير منهم، وإغْداق الأموال عليهم، ممّا أدّى إلى

إثراء الشعر، وتشجيع الشّعراء على القول والإجادة، ولعلّ ذلك راجع إلى أن بعض الخلفاء أو أن كثرة كاثرة منهم كان يقرض الشعر ويتذوقه وينقده.

- رابعاً: كثرة الشعراء ذَوِى السّليقة العربية السّليمة.
- خامساً: الرّقى الثّقافي الذي اتّسعت آفاقه عن طريق التأليف والترجمة.
- سادساً: رواية الشعر العربي القديم، حيث كان للّغويين دور كبير في حفظ الشّعر العربي، ووضع المقاييس الدّقيقة للشّعراء[1].

وكان لهذه العوامل أثرها في اتّساع خيال الشّعراء، وإثراء معارفهم، ولغتهم وأفكارهم، ونرى أثر ذلك واضحاً جليّاً في فنونهم الأدبية.

المحدَثون ومذهبهم في الشّعر:

إن المحدثين من الشعراء هم الشعراء الذين نشأوا في العصر العباسي ، وتأثروا بمظاهر الحضارة المتباينة فيه، والمولّدُون منهم وهم الذين نشأوا من أب عربي وأمّ أعجمية وبعضهم كانت أصولهم كلّها أعجمية، وقد يطلق لفظ "المولدين" على من يطلق عليهم لفظ المحدثين من شهود العصر العباسي وحضارته من اتّساع أفق الخيال، وذلك باتّساع المشاهد، والمناظر المتباينة في هذه المشاهد، مما أدّى إلى اتّساع خيال الشعراء، وبعثهم على القول والإجادة.

مذهب المحدثين في الشعر والفارق بينهم وبين القدماء:

هناك اختلاف بين المحدثين في مذهبهم في الشعر وبين القدامى، وذلك فيما يلى:

- أولاً: تناول المحدثون معاني المتقدّمين، وزادوا عليها، وأماطوا اللّثام عن مواطن الجمال فيها.
- ثانياً: المعاني المبتكرة ، والتي لم تكن تخطر للمتقدّمين على بال.

---

(1) انظر: العصر العباسى الأول – للدكتور/ شوقى ضيف ص١٣٨ وما بعدها بتصرف.

• ثالثاً: ومن براعتهم وذكائهم استطاعوا إلباس هذه المعاني أعذب الكلمات، وأيْسَر العبارات.
• رابعاً: إضافة أغراض جديدة إلى الشعر العربي لم تكن موجودة، أو معروفة في الشّعر العربى من قبل.
• خامساً: اخترعوا وابتكروا واخترعوا الصور الرّائعة التى تسرّ النّفس، وتجلّ عن الوصف.
• سادساً: امتازوا ببراعة الاستهلال، وحسن التّخلّص والخروج[1].
ومن بديع ابتدائهم قول الشاعر "أبو تمام":
السّيف أصدق أنباء من الكتب ⁂ في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب

الخصومة الأدبية بين المحدثين والقدماء:

اشتدت الخصومة بين نقاد العرب الأقدمين ، وبين الشعراء المحدثين، فرأى بعضهم أن الفضل قد حازه الأقدمون من الشعراء ، وأن المحدثين ليسوا شيئاً إلى جانبهم، فلا يروون أشعارهم، ولا يستشهدون بما يقرضون، وكان على رأس هؤلاء "أبو عمرو بن العلاء" و"ابن الأعرابي"

بينما يرى البعض الآخر أن الفضل والنقص موزَّعان بين المتقدمين والمتأخرين، وأن المتأخر لا يضره تأخره إذا أجاد، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصَّر فليس التقدُّم في الزمن مقياساً للجودة. ورغم هذا الاتجاه المتحرِّر يرى الكثيرون أنّ المحدثين من الشعراء يجب عليهم أن ينهجوا في بناء القصيدة نهج القدماء.

ولقد نادي "أبو نواس" في القديم بخطأ هذا الاتجاه من الشعراء، ودعاهم إلى أن يعيشوا في حاضرهم، ويصفوا ما يرونه، لا أن يقلدوا

---

(1) راجع : دراسات فى الأدب العباسى – للدكتور عيد قناوى .

السابقين في وصف ما لا يشاهدون وهو في ذلك يؤمن بفعل الزمن وتغير المكان، ومما قاله في ذلك:

صفة الطلول بلاغة القدم ∴ فاجعل صفاتك لابنة الكرم [(١)]

وعلى الرغم منم معارضة أنصار القديم ، واستبسالهم في دعوتهم، فإن تيار التطور الهادر أغرق صيحاتهم في محيطه، وقذف بهم على شاطئيه، فكأنهم الأعواد اليابسة، وقد زاد في ثقلها طول مكثها في الماء الذي لا تألفه، ومضى إلى غايته ، والشعر يحدوه ويترسم خطاه، وما كان للشعر أن يجمد والحياة من حوله تتحرك، لأنه ظلّها الذي لا ينفصل عنها وما دام التطور قد امتد أثره إلى الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية، فالشعر لا محالة متطور تلقائياً[(٢)].

وقد بسط "ابن سنان الخفاجىّ" قضية الخلاف حول المتقدمين والمحدثين فقال:

ذهب قوم من الرواة أهل اللغة إلى تفضيل أشعار المتقدمين على المحدثين، واختلفوا في السبب: فذهبت طائفة إلى أن العلة مجرد التقدم في الزمن، وقيل: السبب أن المتقدمين سبقوا إلى المعاني.

وقيل: إن أشعار المتقدمين كانت من قائلها بالطبع، ومن غير تكلّف والأشعار المحدَثة فيها تكلُّف. وذهبت طائفة أخرى إلى أن قائل الشعر وتقدم زمانه أو تأخره لا تأثير له؛ لأن القديم كان محدثاً ، والمحدث سيصير قديماً.

وفي المحدثين من هو أشعر من جماعة المتقدّمين، وفي المتقدمين من هو أشعر من جماعة المحدثين، وذهب إلى ذلك "الجاحظ"، و"المبرد"، و"البحتري"، وهو الصحيح.

وأمّا من ذهب إلى تفضيل المتقدم بمجرد تقدم زمانه، فإنه لم يذهب في ذلك إلى علة غير مجرد الدعوة.

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب – أحمد بدوى ص٤٤٢ وما بعدها – ط: نهضة مصر.

(٢) تاريخ الأدب العربي فى العصر الذهبى – د/ عبد الرحمن عثمان ص٣٧ .

وأمّا مَن فضّل أشعار المتقدّمين من حيث سبقوا إلى المعاني والألفاظ، فإنه يقال له: هذا لو ثبت لدلّ على فضل المتقدّمين على المحدثين، ولم يدل على فضل شعر هؤلاء؛ لأنه ليس كل من كان أفضل وجب أن يكون شعره أحسن.

وأما من ذهب إلى تفضيل شعر المتقدّمين على شعر المحدثين من حيث كانوا لم يتكلّفوا أشعارهم، ونظموا بالطبع، والمحدثين بخلاف ذلك، فإنه يقال له: ما الدليل على أنّ أشعار المتقدّمين كانت تقع من غير تكلُّف، فإن قال: بهذا جاءت الروايات عنهم، قيل له: الأمر بخلاف ذلك، فالمروى عن "زهير" أنه عمل سبع سنين، وكان يسميها "الحوليات" ويقول: خير الشّعر الحولي المنقح، والرواة يُجمِعون على هذا.

وإذا فضَّلوا شعر "زهير" قالوا: كان يختار الألفاظ، ويجتهد في إحكام الصنعة، وهذا كلّه بمعزل عن الطّبع وسهولة النظم[1].

- **طبقات الشعراء المحدثين :**

لا نكاد نمضى في القرن الثالث للهجرة حتى يقوم على صناعة الشعر أمشاج من العرب والموالى، الذين كانوا يعيشون في المراكز العقلية الكبرى، وخاصة البصرة والكوفة فكان طبيعياً أن تتطوّر صورته، وأن تختلف عن صورة الشعر القديم، الذي كان يُستمد من علاقات البادية، وصِلاتها الحسيّة والمعنويّة؛ لسبب بسيط: وهو أن مَن ينظمونه يحيون في المدن، وتؤثر فيهم علاقات وصلات جديدة، بعضها سياسي، وبعضها حضاري واجتماعي، وبعضها عقلي وثقافي[2].

---

(1) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق: عبد المتعال الصعيدى ص٢٧٠ وما بعدها بتصرف، مطبعة صبيح ١٩٦٩م.

(2) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى – د/ شوقى ضيف ص٩١ .

فظهر في ميدان الشعر صفوة من الشعراء ، تميزوا بأدائهم الشعري الخاص بهم وأذاعوا الآراء الحرّة ، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعبقريات المأثورة، ورواة الشعر ونقدته متفقون على أن "بشاراً بن برد" زعيم هذه الطبقة – أعنى طبقة المحدثين أو "المولدين"[1].

أما "أبو تمام" رأس الطبقة الثانية من المولدين، وقد جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، ظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله، ولطف خياله بالاطلاع عليها، واستنبط من ذلك طريقته التي آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة.

وفي زعامة "بشار" للشعراء المحدثين والجيل التالي له يقول الدكتور/ "شوقي ضيف": "يُجمع الرواة والنقاد على أن "بشار بن برد" زعيم الشعراء المحدثين، وفي طليعة من أرسوا الأسلوب المولّد الجديد، وأسلوبه يمتاز بالنصاعة، والرصانة، والصفاء، والرونق، وتلاه جيل من الشعراء توزعوا بين من يؤثر الجزالة والفخامة، مثل "مسلم بن الوليد"

ومن يؤثر الليونة والسهولة، مثل: "أبى العتاهية"، وكان معاصره "أبو نواس" يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي، وفي بعض شعره الشخصي، وكثيراً ما يعمد في الضرب الأخير إلى السهولة المفرطة، على أن الشعراء سرعان من انصرفوا عن طريق "أبى العتاهية"، مؤثرين طريق "بشار" وما انتهى إليه هذا الطريق عند "مسلم" من المتانة وقوة البناء، وخلفه "أبو تمام"[2].

- **الطبع والصنعة :**

لكل شاعر نهجه الذي يلائم مزاجه وثقافته في تناول المعنى، والتعبير عنها، وهو نهج مستمد من العاطفة الفنية، ومن العقل الذي يتحرك على ضوء العاطفة في وعى ويقظة، ولن تجد شاعرين

---

(1) تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات ص٢٩٧ .

(2) العصر العباسى الأول – د/ شوقى ضيف ص١٤٦ : ١٤٧ .

يلتقيان على نهج متَّحد في الشعور بالمعنى والإفصاح عنه، وإنما يقع الشبه في تقاربهما من حيث الطريقة والمذهب الفني تجاه المعاني وصياغتها.

وهذه الحقيقة الثابتة تحول بيننا وبين تقصى المذاهب الفنية لجميع شعراء العصر الذهبي، كما هو واضح، والذي نستطيعه هنا هو أن نعتبر التقارب فيها إصرة بين المذهب وشبهه، على ألا ينسينا ذلك الفروق الدقيقة التي ينبغي أن نفطن إليها على ما بها من دقة وخفاء[1].

والطبع والصنعة هما أصلان من أصول المذاهب الفنية لشعراء العصر العباسي، ولقد رأى القدماء أن خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتنقيح هو الطبع، كما أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة .

أما المحدثون فيرون أن شعر الطّبع هو ما كان صادقاً مؤثراً، وإلا فهو مصنوع متكلف.

ويَجمع الدكتور/ "محمد عبد المنعم خفاجى" بين الرّأيين ، حين يرى أن الطّبع هو الْمَلَكة القادرة في نفس الشاعر والأديب ، التي تحوى إليه بفنه، وأدبه وحى الفطرة والطبيعة، واستجابة لعواطفه ومشاعره، دون تكلّف وتعب في الصّوغ، واستجداء لترف الأسلوب والصّناعة.

والصّنعة : هي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني، وترف الأداء، وزخرف الأسلوب، وحُبِّه لهذا الجمال والترف والزخرف، وهيامه الفني بها، وقَصْده إليها، وتعمّده لها في شعره، حتى ليطلب الفن للفن، ويستلهم الجمال للجمال[2].

---

(1) الأدب فى عصره الذهبى – د/ عبد الرحمن عثمان ص٨٢ .

(2) دراسات فى الأدب العباسى ص٦٢ : ٦٣ .

وفي العصر العباسي قصَد الشعراء المحدثون، وهم الذين نشأوا في ظلال الدولة العباسية، وفي ظلال الامتزاج الذي حدث بين العرب والأمم الأخرى – قصدوا إلى ألوان خاصّة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن، وجمال الصّنعة، وسحر الأداء من استعارة، وتشبيه، وجناس وطباق ومقابلة، وحسن تعليل، وسوى هذه الألوان، على أن هذه الصفة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة، وتهذيباً أدبياً واسعاً للشّعر، ومذهباً جديداً مؤثّراً إلا على أيدي المحدثين عامّة ، وعلى أيدي "مسلم بن الوليد" و"أبى تمام" على وجه الخصوص.

وحقاً كان "مسلم" زعيم التصنيع في عصره، فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه، فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر، وإنما تعبر عن ألوان. وأما "أبو تمام" فإن "ابن رشيق" يقول عنه وعن تلميذه "البحتري":

"فكانا يطلبان الصنعة، ويولعان بها، فأما "حبيب" فيذهب إلى خشونة اللفظ، وما يملأ الأسماع منع، مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً، يأتي للأشياء من بعد، ويطلبها بكلفة، ويأخذها بقوة، وأما "البحتري" فكان أملح الناس صنعة، وأحسن مذهباً في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة، مع إحكام الصنعة، وقُرب المأخذ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقّة[1].

ويقول في "ابن المعتز": وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من "عبد الله بن المعتز"، فإن صنعته حقيقة لصنيعة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وقد انتهى علم البديع والصنعة إلى "ابن المعتز"، وختم به وإن كان مذهب الصنعة قد استمر منهجاً لكثر من الشعراء"[2].

---

(1) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده – لابن رشيق ١٣٠/١ .

(2) دراسات فى الأدب العباسى – عيد قناوى ص٦٨ ، تاريخ الأدب فى العصر العباسى – د/ محمد عبد المنعم خفاجى.

• خصائص شعر المحدثين :

قال "أبو الفتح عثمان بن جنى": "المولدون يستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ"، والذي ذكره "ابن جنى" صحيح بيِّن؛ لأن المعاني إنما اتسعت لاتّساع الناس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فمصَّروا الأمصار، وحضروا الحواضر، وتأنقوا في المطاعم والملابس، وعرفوا بالعيان عافية ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره(١).

ولا شك أن الشعر يتطور دائماً تبعاً لتطور الحياة من حوله، وشعر المحدثين أو المولدين وأهل الحضر الذي ينساب من أفواههم رقيق الحاشية، عذب النغم، تجمِّله الزينة، وتلمح في نسجه ومضات الثقافة الأجنبية، ويجرى في مائه أنس الحضارة وعمق الجيل الجديد.

والشعراء المولدون – وإن كانت بعض أشعارهم فيها خلاعة ومجون – فإنهم أذاعوا الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة والعبقريات المأثورة من أمثال "بشار" و"أبى نواس" و"مسلم بن الوليد"(٢).

يمكن إبراز أهم الخصائص التي تُميِّز شعر المحدثين فيما يأتي :

أولاً: من ناحية المعاني والأخيلة:

كان طبيعياً في ذلك العصر الذي شاع فيه العلم والفلسفة والثقافة أن يخصب خيال الشعراء، وتعمق معانيهم، فظهر الترتيب بين عناصر القصيدة وبين المعاني الجزئية لكل عنصر على نحو لم يُعرف من قبل، ووضح في شعر هذا العصر حُسن التصوير وروعة الخيال، وجَمُلت التشبيهات والاستعارات.

فلقد تيسرت العلوم، وأصبحت كلأً مباحاً لمحبي الثقافة، وعشاق العلياء، وأصحاب الهمم العلية، والنفوس الطموحة في هذا العصر، فانفتحت أمامها العقول، ونمت الأفكار واتّسع الخيال، كما أن طبيعة

---

(١) العمدة – لابن رشيق ٢٣٦/٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات ص٢٩٧ .

البلاد الخصبة قد هيأت للحضارة أن تزدهر، وأن تأتى بأطيب الثمرات، فهل يستعصى بعد ذلك على العقول أن تأتى بالأخيلة البديعة، وتغوص لتلتقط الدور من المعاني
ولثقافة الأديب دور بارز في شعره وشاعريته، فازدهار الأدب مرتبط إلى حد كبير بازدهار الثقافة، ودور الثقافة يبدوا واضحاً في دقة الأفكار، وتوليد المعاني بالإضافة إلى دورها البارز في الألفاظ والأساليب والصور.
وإن من يتصفح ديوان الشعر العباسي كله يبهره ما يجده من عميق المعاني، ودقيق الأفكار، ويشعر فيه بأثر الثقافات المتعددة، والحضارات الممتزجة، فيلحظ أثر الفلسفة اليونانية، وروح الحكمة الهندية، ورحيق الثقافة الإسلامية، وعروق الحضارة الفارسية فلولا المنطق اليوناني ما كانت حكمة "أبى تمام" أو دقة "ابن الرومي"، ولولا الثقافة الدينية ما كان شعراء الزهد والتصوف، ولولا مباحث الفلاسفة ما كانت عقلية "أبى تمام"[1] ولولا البحث في الأمور العقدية ما كانت ردود العلماء القوية المفحمة للملحدين وللمتزندقين.
لقد اتّسعت المعاني أمام الشاعر اتّساعاً كبيراً، بتأثير رقى الحياة العقلية والاجتماعية وتعدد ألوان الحضارة، وكثرة مظاهر الطبيعة، ورقى المعرفة، وأنماط التعليم، فنضج خيال الشعراء، وقوى تحليقهم في أودية الشعر وأخيلته، وجالوا في كل مجال، انظر إلى قول "إبراهيم بن إسحاق الموصلي":

أفكر في قلبي بأي عقوبة ∴ أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره ∴ فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله ∴ فعاذ من الميذاب والقطر بالبحر

---
[1] ( ) دارسات فى الأدب العباسى – د/ عيد قناوى ص٢٩ بتصرف.

ومن عميق المعانى والأفكار التى تدل على ثقافة الشاعر، وعلمه بالحجج والبراهين العقلية، وكيفية الإقناع ما نراه في مدح "أبى تمام" لـ "أحمد بن المعتصم" في قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ∴ في حلم أحنف في ذكاء إياس

وكان "الكندى" حاضراً فقال : الأمير أكبر ممن شبهت بهم ، فقال:

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلاً شروراً في الندى والباس

تالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلاً من المشكاة والنبراس

وكذلك ما نراه في قول "ابن الرومى" من دقة في التعبير والمعنى:

وإذا امرؤ مدح امرءاً لنواله   وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى   عند الورد لما أطال رشاءه

ومن المعاني الفلسفية ما نلمح من حِكم كثيرة ذاعت وشاعت على ألسنة الكثير من الشعراء، فمن ذلك قول "بشار":

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن   برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة   فإن الخوافي قوة للقوادم

ويعلل "ابن رشيق" لاتساع المعاني في هذا العصر بقوله: "إن المعاني إنما اتّسعت لاتّساع الناس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فمصّروا الأمصار وحضّروا الحواضر، وتأنَّقوا في الملابس والمطاعم، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره.

ومن بديع "أبى تمام" قوله :

فأسلم سلمت من الآفات ما ⁘ سلام سلمى ومهما أورق السلم سلمت

من أروع التشبيهات قول "بشار":

ودعجاء المحاجر من مق كأن حديثها تمر الجنان

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

ومن جميل التشبيهات قول "أبى تمام":

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود

ومن تشبيهات "أبى نواس" خاصة قوله:

في كؤوس كأنهن نجوم دائرات بروحها أيدينا

طالعات مع السّقاة علينا فإذا ما غربن فنينا

ثانياً : من ناحية الألفاظ والأساليب:

لقد كان للتطور الذي شهده العصر العباسي الأول كبير الأثر في "ألفاظ الشعر وأساليبه"، حيث إن الألفاظ التي كانت متعلّقة بحياة العرب السّالفة انقرضت، أو كادت فلا نجد ذِكْراً للبادية والصّحراء والرّمال والقفار، والأثافي، والبيداء، والنّوق والبقر الوحشي والْحُمُر الوحشية، فقد تركوا كلّ هذا، وشاعت في أشعارهم ألفاظ الدّور والقصور والحدائق والخمر، والقُدُود ، والخدود، والأباريق، والقيان. فهذا التطور الذي حدث في المجتمع أنشأ جوّاً حضارياً جديداً قضى على ألفاظ، كما أنه استحدث ألفاظاً أخرى.

ومن دلائل التجديد "النقد البياني" الذي جعل أساس البلاغة في الألفاظ السّهلة والحلاوة ، والجزالة [١].
ولم يقف التطور لدى الألفاظ فحسب، بل سَرَى في استخدام الأساليب البلاغية مثل: "التشبيه، والتمثيل، والكتابة، والمجاز، وتحلية الكلام بالمحسنات اللفظية والمعنوية" كما شغفوا باستعمال ألفاظ القرآن الكريم، ومحاكاة أساليبه، واقتباس آياته، واقتباس ألفاظ الحديث الشريف، والاستشهاد بها ،مما عاد على الأسلوب بالرّوعة والجمال[٢].
كما شاع "الأسلوب المنطقي" ، وهو الأسلوب الذي يلتزم المرء بالحديث فيه، والمعنى بالكلام معه على طريقة أهل المنطق، وهو أخذ نتيجة من مقدّمات توحى بها، وتعلن عنها وتجر إليها على شكل "العلة والمعلول" و"السبب والمسبب"[٣].ومن ذلك قول "أبى تمام":

وطول مقام المرء في الحي مُخْلق   فاغترب تتجدّد

فإني رأيت الشمس زيدت محبّة   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقول "البحترى" :

دنوت تواضُعاً وعلوت ندراً   فما نال انخفاض وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى   ويدنو الضّوء منها والشّعاعُ

وقوله أيضاً :

---

(١) دراسات فى الأدب العربى – د/ عيد قناوى ص٣٢ بتصرف .
(٢) محاضرات فى الأدب العباسى .
(٣) دراسات فى الأدب العباسى ص٣٨ .

دَانٍ على أيدي العفاة وشائع عن كلّ نِدّ في النّدى وضريب

كالبدر أفرط في العلوّ وضوؤه للعصبة السّارين جدّ قريب

كما لجأ الأدباء إلى الفكاهة في أساليبهم ، حتى تلقى رواجاً وإقبالاً عليها من القراء والمتذوّقين، وقدوتهم في ذلك شيخ الأدباء "الجاحظ" في مؤلفاته التي تغصّ بهذه النكات والفكاهات، و"ابن الرومي" في أشعاره، ومنها قوله في مغنية:

غنت فمس القلب كل كرب ∴ واستوجبت منا أليم الضرب

كما لجأ بعض شعراء العصر إلى الأسلوب الرمزي الذي دعت الحاجة إلى استخدامه، ولقد عنى الشعراء المحدثون أو المولدون بالصورة عناية كبيرة، فقد دعوا إلى جدة الصورة الشعرية، وازدياد طاقتها الإيحائية، وقدرتها على التعبير عن روح العصر ولقد كان لـ "أبى نواس" في ذلك أثر لا يُنكَر؛ إذ تميّز شعره بروعة الصورة النابعة من الملاحظة الدقيقة، والخيال الشعري غير المحدود، مع وضوح وبساطة في التناول، وقد لفت كل هذا أنظار المستشرقين إلى شعره، بالإضافة إلى ثورته على التقاليد الشعرية وبساطة أسلوبه.

ويتصل بتطور الصورة الشعرية تطور مصادرها، وغلبة الطابع العقلي والنمط الاستدلالي عليها، وربما كان هذا أثراً من آثار الثقافة الإسلامية أولاً، والثقافات الوافدة ثانياً، فالثقافة الإسلامية قد أمدت الشعراء بزاد لا ينفد من صور الترغيب في نعيم الآخرة والترهيب من عذابها، كما أن الثقافات الوافدة – وبخاصة الثقافة اليونانية – قد أعانتهم على تشكيل هذه الصور تشكيلاً منطقياً ، ترتبط فيه المقدمات بالنتائج،

وتقترن فيه الدعوى بالدليل، إليك – على سبيل المثال – مما يقوله "أبو العتاهية" في صروف الدهر :

أحمد الله على كل حال ... إنما الدنيا كفئ ظلال

إنما الدنيا مناخ لركب ... يسرع الحث بسرع الزجال

رب مغتر بها قد رأينا ... نعشه فوق رقاب الرجال

من رأى الدنيا بعين بصير ... لم تكد تخطر منه ببال

إنما المسكين حقاً يقيناً ... من غدى يأمن صرف الليالي

فالحياة التي كفئ الظلال في زوالها ، والدنيا التي لا تعدو كونها مقاماً مؤقتاً لركب يحثون المطايا إلى غايتهم، والنعش تحمله رقاب الرجال إلى المثوى الأخير . كل هذه الصور تعكس بعض نفح البيان القرآني الكريم، وبخاصة في آيات المقارنة بين دار الفناء ودار البقاء كما أن الخلوص من هذه الصور إلى الحث على الزهد في الدنيا، والتذكير بغدر الليالي لا يخلو من سمة برهانية واضحة.

ملامح التجديد في الموسيقى الشعرية :

إن المتأمل في الشعر العربي في عهد "بني أمية" يعلم ما أثر به الغناء المستحدث حينذاك في موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة في الغزل، وأخذ الشعراء يصفون موسيقاهم، حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة، نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة، وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالباً عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم في الأوزان البسيطة الخفيفة، فإن ألموا بالأولى جزءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا من الخروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثاراً نفذ منه "الوليد بن يزيد" إلى استكشاف

وزن "المجتث"، وصنع بعض المقطوعات فيه، وانتقلت موجة هذا الغناء في أواخر العصر الأموي إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسي بلغت في مدن العراق كلّ مكان ينتظر لها من وحدة وقوة
وإذا كانت الجواري ومجالس الطرب قد أثَّرت في مضامين الشعر العباسي، فلقد كان تأثيرها في موسيقاه أكبر وأعمق، ولعل أهم ما يلاحظ في هذه الصدد أن الشعراء بدأوا يكثرون من الاتكاء على الأوزان القصيرة، والتفصيلات السهلة التي تطرأ عليها أنواع مختلفة من الزحافات والعلل، والتحريفات العديدة، حتى لينتهي بهم هذا التحريف إلى استحداث أوزان جديدة، منها المقتضب والمضارع اللذان سجلهما الخليل، وليس لهما أصل في الشعر القديم، وليس صدفة أن استحداث المجتث في أخريات العصر الأموي – كما ذكرنا – تم كذلك في أحضان مجالس الغناء والطرب، وقد أكثر منه العباسيون؛ إذ نجده كثيراً عن "بشار"، و"مطيع بن إياس"، و"أبى العتاهية"، وأضرابهم وأما "المقتضب" فهو – كما ذكرنا – عباسي، ورغم عدم رواجه واتّساع استخدامه نجد له نماذج في مثل هذه الأبيات التي يحدثنا "ابن خلكان" أنها كانت أوَّل شعر يقوله "أبو نواس" في صباه:

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب

إن بكى يحق له ... ليس ما به لعب

تضحكين لاهية ... والمحب ينتحب

تعجبين من سقمي ... صحتى هي العجب

كلما انقضى سبب ... منك عاد لي سبب

أمّا المضارع، وهو صنو المقتضب في نشأته العباسية فمن أمثلته : قول "سعيد بن وهب":

لقد قلت حين قربت العيس

قفوا فأريعوا قليلاً

فلم يريعوا وساروا

وثَمَّة وزن ثالث عباسي المنشأ والاختراع، وهو "المتدارك"، وفيه صاغ "أبو العتاهية" قوله:

هم القاضي بيت يطرب   قال القاضي لما طولب

ما في الدنيا إلا مذنب   هذا عذر القاضي واقلب

ويظهر غرام "أبى العتاهية" بالتجديد في أوزان الشعر من هذه الحقيقة، التي ترويها كتب الأدب، وهى أن له أشعاراً لا تدخل في العروض، وهى حقيقة يؤكدها "ابن قتيبة" في "الشعر والشعراء"، وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه، وربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب، بَيْد أن المسألة لم تكن سهولة الشعر وسرعته كما يحسب "ابن قتيبة"، بل كانت – على حد تعبير الدكتور/ شوقي ضيف – هذا الغناء العباسي وما يستلزمه من أوزان وأنغام جديدة(١).

ولم يقتصر أثر الغناء في الشعر العباسي على اختراع أوزان جديدة تناسب بخفتها وسهولتها أصوات النغم والغناء، ولكن هذه الأوزان المخترعة لم تلق رواجاً كثيراً بين المتأدبين والشعراء، إنما الذي يجب التنبيه إليه هو تلك الأوزان القصيرة المتجزأة من أوزان طويلة

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٧٠ وما بعدها .

قديمة العهد في الشعر العربي،وقد عاشت هذه الأوزان، وكثُر استخدامها لدرجة أنك لا تكاد تمضى ببضع صفحات في ديوان أحدهم، حتى تجد نماذج هذه الأوزان القصار المجزوءة
ومن هذا القبيل تلك الأبيات من "مجزوء البسيط" لـ "أبى نواس"، وهى مثال يشير إلى كثير من قصائده:

يا من لعين سربة	تفعل فعل الطربة
ومن لنفس في الهوى	تدور دور العربة
أنحلنى الحب فأصبحت	شبيه القصبة

ومهما يكن من أمر فإن ظاهرة تقصير الأوزان لم تكن جديدة في العصر العباسي ولكن الجديد هو إكثار الشعراء من استخدام الأوزان المجزوءة، ومبالغتهم في اختزالها إلى حد أن صار البيت أحياناً من تفعيلتين، كل تفعيلة تكون شطرة، على أننا لا نجد من هذا الوزن سوى نماذج ضئيلة للغاية، منها قصيدة في مدح "الهادي"، التى يقول فيها:

موسى المطر	∴	غيث بكر
ثم انهمر	∴	ألوى المرر

والتفعيلة من وزن "مستفعلن"، فالوزن إذن يمكن أن يسمى بـ "مجزوء مجزوء الرجز"[1].

(1) فى الشعر العباسى الرؤية والفن – د/ عز الدين إسماعيل ص٤١٨ وما بعدها .

التجديد في القوافي:
ظل الالتزام بالقافية الموحدة هو المبدأ العام السائد، إلا من محاولات محدودة لدى بعض الشعراء في التخفف من حدة تكرارها الصوتي – أي تكرار حرف الروي فيها – فكانت القصائد المزدوجة، التي يقفي فيها كل بيت تقفية مستقلة، تبرز في نهاية عجزه ونهاية صدره على السواء، ولكن دون التزام بتكرارها في سائر أبيات القصيدة، وكان من هذه المحاولات كذلك كتابة "المخمسات"، وفيها تقسَّم القصيدة إلى وحدات، كل وحدة من خمس شطرات، ولكل وحدة قافية مستقلة تتكرر في نهاية شطراتها الخمس، دون التزام بها في الوحدات الأخرى.
وبما كانت المحاولة الطريفة حقاً لكسر حدة القافية – على الرغم من الإبقاء عليها – هي تلك التي تطالعنا في أشعار "أبى العتاهية"، و"ابن المعتز"(١).
فمن رباعيات "أبى العتاهية" في الزهد :

الموت بين الخلق مشترك ∴ لا سوقة تبقى ولا ملك

ما ضر أصحاب القليل وما أغنى ذوى الأملاك ما ملكوا (٢)

أغراض الشعر العباسي (القديمة ، والجديدة) وأشهر شعرائها

---

(١) ينظر: فى الشعر العباسى الرؤية والفن ص٥٨ .

(٢) دراسات فى الأدب العباسى ص٥٩ .

دونت العلوم المختلفة : من شرعية، ولسانية، وعقلية – وترجم غيرها
من اللغات الأجنبية، وظهرت الردود القوية المفحِمة للشعوبيين والمتزندقة وأصحاب الآراء المنحرفة، ودعاة الانحلال والخلاعة والشرب والمجون، وبجانب هذا انتشرت دعوات الوعظ والإرشاد عن طريق التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، كما ظهرت أقلام أحسنت وصف الطبيعة بجمالها وحسنها، والحضارة بقصورها وما حوت من أثاث، ورياش ورسوم، وحدائق، ورياض، وأنواع اللعب إلى غير ذلك من آيات الحضارة، ومباهج الحياة.
ومما سبق يتبين لنا ما أضافته الحضارة العباسية من أغراض على أغراض الشعر الموروثة، فلم يكن الشعراء قبل العصر العباسي يعرفون وصف البرك، والقصور والحدائق، والرياض، وغير ذلك مما أنشأته الحضارة العباسية، كما أنهم لم يعرفوا شعر الفلسفة، ولا شعر الزهد، ولا الشعر الصوفي، ولا المقطوعات التعليمية، ولا الشعر الماجن، كالغزل بالمذكر – كما سنعرف بالتفصيل فيما يأتي – كما تطورت الأغراض الموروثة إلى ما يتفق وروح العصر وثقافته.
فهناك من الأغراض ما قلَّ حديث الشعراء فيه، مثل: الشعر السياسي، وبخاصة بعدما ضعف شأن الأحزاب السياسية، وكالغزل العذري الذي لم يبق له مجال متسع إلا قليلاً في هذه البيئة، وهناك أغراض موروثة نمت وتطورت وازدهرت، كالغزل العادي الذي أصبح صناعة متكلفة قلّما يصدق في وصف العواطف والانفعالات، وأضافوا عليه غزلاً جديداً كان أصدق تصوير لنفوسهم وبيئتهم.
وكالهجاء الذي زاد قبحاً ، وعظم حظه من الإقذاع والفحش ، وكالمدح الذي كثرت فيه المبالغة، واشتد فيه الإسراف، ونزل به الشعراء حتى اتخذوه وسيلة للكسب في غير تعفف، ولا كرامة ولا حياء.
وأشد الفنون الشعرية، وأكثرها نمواً في هذه العصر: المجون، ووصف الخمر، وقد دعا إلى نمو هذا الفن ، وتهالك الناس عليه ما

حدث من فساد الأخلاق، وانحلال الروابط الاجتماعية، وتسلط الإماء على الحياة المنزلية.
ومن الأغراض التي أصابها التطور أيضاً : فن الوصف ، حيث غيروا في موضوع هذا الوصف – كما سبق – بسبب الحضارة التي غرقت فيها الدولة في هذا العصر.
ومن هذه الأغراض التي تطورت أيضاً : فن الرثاء، فقد خرج الشعراء فيه عن المألوف من البكاء على الميت، والتفجع عليه، وإبداء الألم الشديد لفقده أو التأبين – إلى الرثاء الذي يُكثر فيه الشاعر من الحديث عن الحياة والموت، وفلسفة الفناء والبقاء وصروف الزمن(١).

أولاً : الأغراض التقليدية :

١ – المدح : أما المدح فقد تبوّأ المكان الأعظم في الشعر العربي كلّه وفي العصر العباسي بخاصة، فلقد كان هذا العصر عصر فتن وثورات داخلية وحروب خارجية. ومن هنا كانت الحاجة ملحَّة إلى قصيدة المديح؛ لتقوم مقام الصحافة في تسجيل الأحداث الكبرى التي ينهض بها الخلفاء، وقد كانت المدائح في الماضي – على جودتها – تتوخّى السهولة في اللفظ والمعنى، مِن مثل: بيت "زهير" المشهور :

إن تلق يوماً على علاته هرماً ∴ تلقى السماحة منه والندى خلقاً

وكان المديح ذا مكانة ممتازة في الشعر الجاهلي، وكان الملوك يُغدقون على الشعراء الهبات، ويجزلون لهم العطاء مقابل هذه المدائح، وقصص "النابغة" مع "النعمان"، و"زهير" مع "هرم بن سنان" و"الحارث بن عوف" مشهورة لا تحتاج إلى تكرار.
ولم يكن للمدح ذلك الشأن الخطير في عهد الرسول ق والخلفاء الراشدين، فلم يأبهوا بالمدح أو يثيبوا عليه، أما في العصر الأموي فقد اتَّسعت البلاد الإسلامية، وتحضَّرت شيئاً ما، وأصبح قصر

(١) محاضرات فى تاريخ الأدب العباسى – د/ على جاد الحق ص٢١ : ٢٢ بتصرف .

الخليفة بدمشق له شعراؤه الذين ظهروا في صورة واضحة وقوية، ومن أشهر الصفات التي كان يضفيها الشعراء على ممدوحهم: الكرم والشجاعة.
ولم يَعُد شاعر المدح في العصر العباسي الأول يقتصر على إلقاء الشعر بين يدي الممدوح، بل تعدّاه إلى التّراسل بالشعر، وأخذوا يتفننون في المدح، ويجدون في اختراع المعاني والتصرف فيها، وظهر أثر الثقافة في شعر المديح عندهم، كما ظهرت المبالغات في مثل قول "أبى نواس" في "الرشيد":

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ∴ لتخافك النطف التى لم تخلق

وقول "البحترى" في "المتوكل":

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ∴ في وسعه لسعى إليك المنبر

وقول "أبى دلامة" في "المنصور":

لو كان يعقد فوق الشمس من كرم ∴ قوم ، لقيل: اقعدوا يا آل عباس

وكقول "أبى تمام" في "المعتصم":

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحب

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها تنال إلا على جسرين من التعب

وكانت تبدأ قصيدة المدح بالأطلال، ثم وصف الراحلة والرحلة ، كما كانت في العصور السابقة عند قليل من الشعراء، حتى كثرت موجة المجون، فجعلتهم إلى وصف الخمر بدلاً من الأطلال، كما وجدنا "بشاراً" ، و"مسلم بن الوليد"، و"أبى نواس"(١):

---

(١) دراسات فى تاريخ الأدب العباسى ص٤٣ : ٤٤ بتصرف .

وحاول بعضهم أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضر المأنوسة وبعضهم تحرّك عن وصف الصحراء ومسالكها وسَمومها إلى وصف الرياض في الحضرة ومناظرها.
٢ – الهجاء : وهو ذكر المثالب ، ونفي الفضائل بأسلوب تهكمي، وقد كان في الجاهلية أقرب إلى النهج السوي؛ حيث كان يقصد به الحط من قبيلة أو عشيرة، وقَلَّما يقصد به تحقير فرد بعينه، وتحول في صدر الإسلام إلى الرمي بالكفر والإعراض عن الذكر في عصر "بني أمية" انقلب إلى سب فاحش، وإقذاع مُرّ على يد الفحول: "جرير"، و"الفرزدق"، و"الأخطل" – ثالوث فن النقائض.
ولما جاء العصر العباسي تطورت معالم الحياة، ولم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي، ولكن الهجاء لم يضعف ، فقد انتشرت في المجتمع المفاسد والفجور، وضعف الوازع الديني، وقد اتّجه الهجاء إلى السخرية والتهكّم، وسلّط الشعراء أقوالهم على البخلاء، وتناولوا الأمراض الاجتماعية التي تفشَّت في المجتمع؛ للتنفير منها:
- ومن ذلك قول "أبى نواس" يهجوا "الفضل":

خبز المفضل مكتوب عليه ألا ∴ لا بارك الله في ضيف إذا شبعا

إنى أحذركم من خبر صاحبنا ∴ فقد ترون بحلقى اليوم ما صنعا

- وقال "ابن الرومى" يهجو "عنيزة" المغنية :

شاهدت في بعض ما شاهدت ∴ مسمعة كأن يومها يومان في يوم

تظل تلقى على صم مجلسها ∴ قولاً ثقيلاً على الأسماع كاللوم

لها غناء يثيب الله سامعه ∴ ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم

وقول "حماد عجرد":

وأعمى يشبه القرد ∴ إذا عمى القرد

وقول "ابن الرومى":

فصرت أخادعه وطال قذاله ∴ كأنه متأهب أن يصفا

وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

وهذا الهجاء – على ما ترى فيه من مخالفات تأباها الروح الإسلامية – جديد أملته الحضارة، فقد أضاف الشاعر إلى قذارة الجسم قذارة الخلق.

٣ – الغزل : ويقال له "النسيب"، وهو نظم الشعر في وصف النساء، والتودد إليهن أو وصف حالة العشق وما إلى ذلك، وهو من أهم أغراض الشعر في كل عصر، فقد درج الغزل الجاهلي على وصف جمال المرأة، واستحال في الإسلام إلى وصف صدِّها وهجرها، والشكوى منها كما ترى عند العذريين.

وفي العصر العباسي ابتعد كثيراً عما كان عليه فيما مضى، فالعصر عصر مفاتن ومفاسد، وجواري ورقص، وموسيقى وغناء، فاندفع الناس إلى الفساد الخلقي، والعبث واللهو، وذاعت أحاديث العشق والصبوة، ففتحت أبواب الغزل الإباحي الذي يدفع إليه الجشع الجسدي، والذي لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان، وهذا الغزل لم

يعرفه العرب فيما مضى، نعم عرفوا الغزل الصريح، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين من الجهر بالفسوق.
٤ – الوصف: وصف العرب كل ما وقعت عليه عيونهم، من حيوان، وطير، وسباع وأوابد، ووحوش، وخشاش الأرض، ووصفوا أيضاً السماء، ونجومها وكواكبها، وبروقها، وأمطارها، ووصفوا الديار والأطلال، ووصفوا جمال الإنسان وأخلاقه، وطباعه، وفي العصر الإسلامي اتجهوا إلى وصف الأعمال الإسلامية في السِّلم والحرب، والفتوح والمغازى، كما اتّجه في العصر الأموي إلى وصف الشعوب الخارجية ، والمعارك الخارجية، ومظاهر الترف النسبي.
أما في العصر العباسي فإن العقول قد خَطَت خطوات واسعة بسبب الثقافات العميقة، والآفاق الواسعة، فوصفوا الرياض، والحدائق، والبساتين، ووصفوا أدوات الزينة، وأدوات اللعب، وأدوات الشرب.
يقول "ابن المعتز" في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة ∴ قد أثقلته حمول من عنبر

ويقول "أبو تمام" في وصف الخمر:

يخفي الزجاجة لونها فكأنها ∴ في الكف قائمة بغير إناء

٥ – الرثاء : في الشعر العربي في جميع عصوره مرات تُعَدّ من أجلّ وأفخم ما في الأدب العربي، ويروى الرواة أن بعض العرب سُئل: ما بال أفضل أشعاركم الرثاء؟! فأجاب: لأنا نقولها وقلوبنا موجعة، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة لا تكلُّف فيها.
وكان الرثاء في الجاهلية يقوم على ذِكر المناقب، واستعظام المصيبة في الميت، وضرب الأمثال بفناء الملوك والممالك، وهذا أمر طبيعي، ولما جاء الإسلام كانت الأسوة بالرسول ق وخلفائه الراشدين والأنبياء السابقين، واستمر على هذه الحال حتى العصر العباسي فنشط نشاطاً كبيراً ، إذ لم يمت خليفة أو وزير ولا قائد إلا أبَّنوه تأبيناً رائعاً.

وقد صوّروا في القوّاد بطولاتهم، ومحنة الأمة والجيوش الإسلامية في استشهادهم وخير ما يمثِّل ذلك مراثى "أبى تمام" في "محمد بن حميد الطوسى"، ومنها:

توفيت الآمال بعد محمد ∴ وأصبح في شغل عن السفر

وما كان إلا مال من قل حاله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

ومن طريف ما يروى من رثاء هذا العصر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه ∴ فطيب تراب القبر دل على القبر

واتَّخذ الرثاء في العصر العباسي اتّجاهات عدَّة :

١ – البكاء والحزن الشديد على الفقيد ، والتفجّع عليه ، كقول"مسلم بن الوليد" في رثاء زوجته:

بكاء وكأس كيف يتفقان ∴ سبيلاهما في القلب مختلفان

٢ – التأبين : أي مدح الشخص بعد موته، والثناء عليه ، كتأبين "محمد بن حميد الطوسى".

٣ – التعزية : وهذا اللون من الرثاء يكون عادة جزءاً من مرثية تشتمل على عدة نواح.

٤ – المراثي الحكمية : وهى التي يكثر فيها الشاعر من التحدث عن الحياة والموت وفلسفة الفناء والبقاء، وصرف الزمن.

أما عن الأغراض المستحدثة : فالغزل بالمذكر، والمجون، والزهد، والشعر الفلسفي والشعر التعليمي.

الموضوعات المستحدثة:

١ – الغزل بالمذكر: يحمل وزر هذا الإثم جماعة من مُجّان الشعراء، وفُسَّاقهم ومخموريهم ظهروا في مطلع العصر العباسي، على رأسهم

"بشار بن برد"، و"أبو نواس" و"مطيع بن إياس"، و"حماد عجرد"، و"يحيى بن زياد"، وكانوا يشربون الخمر، ويتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجواري، والغزل الدّنس بالغلمان متحرّرين من كل خُلق وعُرف ودين، ويرجع السبب في ازدهار هذا الغرض إلى:

١ – كثرة الشعراء من الفرس، الذين كانوا يظهرون الإسلام، ويبطنون الإلحاد والزندقة.

٢ – اضطراب النفوس، وتسلُّط الشك على العقول من كثرة المقالات والمناظرات ولشيوع المذاهب الفلسفية، مما جعل كثيرين يستهزئون بقيم المجتمع الإسلامية.

٣ – كثرة الرقيق، ودور النخاسة التي كانت أسواقاً للعبث، وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور، حتى لَيُعَدّ الغزل بالمذكر – عند "أبى نواس" وغيره – انحطاطاً خُلقياً شنيعاً.

٤ – كثرة اتخاذهم للجواري والإماء، وتسلطهن على الحياة المنزلية مما أدى إلى انحلال الروابط الاجتماعية، ومن هذا الغرض قول "مطيع بن غياس":

اخلع عذارك في الهوى ∴ واشرب معتقة الدنان

لا يلهينك غير ما تهوى فإن العمر فان

وهذا النوع لم يكن معروفاً لدى العرب قبل ذلك، فهم قد عرفوا الغزل الصريح ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين في الدعوة إلى الفسق والصراحة المزرية، وما أنشده الشعراء في هذا الغرض الماجن يمسك القلم عن تسطيره؛ حتى لا يدنس بهذا العهر والفجور، فتسطيره عار في حق الأدب، فضلاً عن الدين، وربما كان أخف بيت عهراً : قول "أبى نواس" في راهب:

٢ – الزهد والتصوّف: لقد كان هذا الغرض الشعري "الزّهد والتّصوف" بمثابة ردّ فعل للغرض الذي نشأ في الدولة العبّاسية، وهو "الإباحة والمجون"، حيث إن نواميس الحياة تقرّر أن نُزُوع طائفة إلى الغلوّ والإفراط يقتضي نشوء طائفة أخرى تكون مُضادّة لها في الاتجاه، وذلك مثل ما يقرّره علماء "الميكانيكا" أنَّ لكلّ فعل ردّ فعل مُساوٍ له في المقدار مُضَادّ له في الاتّجاه، فمثل هذا القانون ينطبق تماماً على ما أومأنا إليه آنفاً من أن الطّائفة التي كان فيه غُلوّ وإفراط، نشأت طائفة أخرى كانت مضادّة لها في الاتّجاه، ألا وهو الغرض الذي يدعى "الزّهد والتصوّف".

وإذا كانت حانات الخمور، ومقاصف المجون قد ألفت بين أهل الفسق، فإن المساجد قد اكتظت بالوعَّاظ والنُسَّاك، وأهل الحديث والورع، ومن حولهم العامة تسمع حديث الزهد في هذه الحياة القصير أجلها، وإن طال، وإنه ينبغي أن تكون دار زاد لدار معاد، وأن الناس مسافرون، وعما قليل راحلون، فإما عذاب مستديم، وإما نعيم مقيم(١).

وقد انتشر شعر الزهد ، وكان أكثر اتّصالاً بحياة الجماهير من شعر المجون؛ لأنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة، فإذا كان كتاب الأغاني يفيض بالمجون، فإن كتب الطبقات التي ترجمت للفقهاء والمحدِّثين تفيض بأخبار العبَّاد والزهّاد، وقد تبعهم كثير من الشعراء يردّدون نفس النغم، حتى

---

(١) العصر العباسى الأول – د/ شوقى ضيف .

شعراء المجون من ناب منهم إلى رشده ترك حياة المجون، وانطلق لسانه بمعاني الزهد.

- فهذا "أبو نواس" يقول:

وما الناس إلا هالك وذو نسب في الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وقول "مالك بن دينار" المحدِّث الناسك :

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر

وأين المدل بسلطانه وأين المزكي إذا ما افتخر

تروح وتغدوا بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور

٣ – الشعر التعليمي : يذهب المشتغلين بالأدب إلى أن فن الشعر التعليمي كان مما استحدث الشعراء العباسيون، ولم تكن له أصول قديمة، وأن الذي دفع إليه هو رقى الحياة العقليّة في هذا العصر، وليس للعرب سبق في مجاله.

وهذا ليس بصحيح، فإن العرب سبقوا إليه وعرفوه في العصر الجاهلي، ورأوا أنه ينبو عن ذوق الشعر، فلم يرد إلا نادراً في شعرهم؛ لأنهم لم يكونوا يستحسنون أن يسلك شعراؤهم هذه المسالك التعليمية، وخير دليل على أن هذا الفن لم يلق قبولاً لدى الأذواق العربية: ما يُروى من أن "الراعي النميرى" أنشد قصيدة في "عبد الملك بن مروان" فلما بلغ قوله:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

فقال "عبد الملك": ليس هذا شعراً، هذا شرح إسلامي وقراءة آية، و"للأخنس بن شهاب" في العصر الجاهلي شعر تعليمي تاريخي، وكان يقيد فيه وقائع "حرب البسوس"، بين قومه "تغلب" و"بنى بكر".

ومن الشعر التعليمي في العصر العباسي ما نظمه "إبان اللاحق" و"أبو العتاهية" الذي نظم مزدوجة في الحكمة ومن ذلك قول "إبان اللاحقى" في منظومته الفقهية:

هذا كتاب الصوم وهو جامع   لكل ما جاءت به الشرائع

فرمضان شهر معروف   وصومه مفترض موصوف

٤ – الشعر الفلسفى: وهو الشعر الذى يحمل آراء عقلية وفلسفية ومن شعرائه "أبو تمام" الذى يقول:

صاغهم ذو الجلال من جوهر المجد   وصاغ الأنام من عرضه [١]

وقوله :

قد غرستم المودة والشحناء   في قلب كل قار وباد

أبغضوا عزبكم وردوا نداكم   فقروكم من بغضة ووداد

ومن الشعر الفلسفي : ما قاله "ابن الرومي" يمدح "إسماعيل بن بلبل" :

---

[١] الصّبغ البديعى فى اللغة العربية – د/ أحمد إبراهيم موسى ص٩٦ .

قالوا أبو الصقر بن شيبان قلت لهم:	كلا لعمرى ولكن منه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف	كما علت برسول الله عدنان
تسمو الرجال بآباء ، وآونة	تسمو الرجال بأبناء وتزدان [1]

رواية الشعر ورواته :
كانت رواية الشعر منذ العصر الجاهلي وسيلة مهمة لشيوعه ونشره، وكان لكلّ شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية، يصحبه ويروى عنه أشعاره، وينشرها بين الناس، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده، وزاد عليها من عنده، وكان هؤلاء الرواة يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية،ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً، وعن الرواة كانت تنتشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل، بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه.
ولم يبدأ جمع الشعر العربي إلا في عصر الأمويين، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين [2].
ولا شك أن الرواة كان لهم دور كبير في الحفاظ على الشعر، فقد حملوا الشعر الجاهلي إلى عصر التدوين، وحافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد، وخاصة الشعراء والرواة، وبذلك أسلموه للأجيال التالية، وإن كان قد شابه شئ من الانتحال والوضع.
وفي نهاية العصر الإسلامي، ومطلع العصر العباسي نشأت طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملاً أساسياً لهم ..

---
(١) المرشح للمرزبانى ص٢٨١ .
(٢) تاريخ الأدب العربى – كارل بروكلمان ٦٤/١ : ٦٥ .

وأهم هؤلاء الرواة "أبو عمرو بن العلاء"، و"حماد الراوية"، و"خلف الأحمر" و"محمد بن السائب الكلبى"، و"المفضل الضبى".
وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو، وكان بين البدو أنفسهم من هاجر إلى الكوفة والبصرة، حيث هؤلاء الرواة العلماء ليهديهم لما يريدون.
ومن أسباب الاهتمام بجمع الشعر وروايته: الاستشهاد بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ القرآن الكريم، ووضع قواعد اللغة ، على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر ذاته، ومن أجل نفسه..
وقد كان في الكوفة مدرسة للرواة، وأخرى في البصرة ، كما يذكر الدكتور/ شوقى ضيف، فلا نكاد نمضى في العصر العباسي حتى يكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين: مدرسة في الكوفة، ومدرسة في البصرة، وعُرف الأولون بأنهم لا يتشددون في رواياتهم تشدُّد الآخرين، ومن ثم تضخمت رواياتهم، ودخلها موضوع ومنتحَل كثير، ولعل من الظريف أن تعرف أن الكوفة عرفت في الحديث النبوي بالوضع والانتحال أيضاً.
يقول أبو الطيب اللغوي: "والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه في البصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بيّن في روايتهم وندد لهم البصريون كثيراً وبادلهم الكوفيون نفس التنديد، ولكن إذا صفينا التشكيكات والتنديدات
اتّضح لنا أن رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة، وليس معنى ذلك أن رواية الكوفة في الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة، فإن الطرفين جميعاً متهمون، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى.
ومن رواة الكوفة الذين عاصروا "حماداً" واشتهروا بالوضع "برزخ العروضى" وكان من أكذب الناس في رواية الشعر، ومثله "جناد"، وكان يختلط في الأشعار، ويصحف.
وكان في الكوفة رواة ثقات، على رأسهم "المفضل الضبى" صاحب

"المفضليات" وأجمع الرواة : الكوفيون والبصريون على توثيقه، وكان عالماً علماً وثيقاً بالأشعار والأخبار.
أما في البصرة وفي الحقبة التي تلت "أبا عمر بن العلاء" فإننا نجد لها "خلفاً الأحمر" الذي تسدد إليه سهام الاتهام، ولم يكن يقِلّ عن "حماد" في معرفته بأشعار العرب وأخبارهم، والأصمعي يقوم في البصرة مقام "المفضل الضبى" في الكوفة.
ومن رواة القرن الثالث وعلى رأسهم "أبو عمرو الشيبانى"،و"ابن الأعرابي" الكوفيان، وآخرون مثل: "محمد بن حبيب" و"ابن السكّيت"، و"الثعلب". وانتهت الرواية في البصرة إلى "ابن سعيد الحسن بن الحسن السكرى" المتوفي سنة ٢٧٥هـ، وإليه الفضل في جمع كثير من الدواوين الجاهلية، وهو يجمع بين الروايتين : البصرية ، والكوفية

مدارس الشعراء المحدثين:

- مدرسة "بشار بن برد" وخصائصها:

هو "أبو معاذ المرعث العقيلى"، ولد "بشار" ضريراً بالبصرة، لمولى إيرانى، كان يفتخر بأنه من أولاد ملوك "خراسان"، وقيل: "طخارستان"، كان أبوه قدم إلى البصرة من الأسرى الذين أسرهم "المهلب بن أبى صفرة" لما ولى "خراسان"، وأعتقت "بشار" مولاته، وكانت عربية من أشراف البصرة، فبقى في هذه المدينة، ولكنه كان يزور بعض الأمراء ويمدحهم ومن ذلك زيارته "لسليمان بن هشام بن عبد الملك" وهو في "حران"، وقيل: إن "بشارا" صحب "واصل بن عطاء" مؤسس مذهب الاعتزال، كما قيل : إنه كان يفضّل مذهب المجوس، الذي دان به آباؤه، فقال بعض الأدباء: إنه فاخر "جريراً" وهجاه بأشعار كثيرة؛ أملاً في أن يجيبه "جرير" فيشتهر ذكره، وهجا "بشار" كثيراً من الشعراء وغيرهم؛ فكثر أعداؤه، ولم يجترئ عليه أحد، ولكنه بعد أن مدح "المهدي" فاستحسن مدائحه، ونهاه عن ذكر النساء حملته جرأته على هجاء الخليفة "المهدي" ووزيره، فعمد الخليفة إلى البصرة وأمر بإحضار "بشار"، وضربه سبعين سوطاً، وظل "بشار" يُضرب حتى مات سنة ١٦٧هـ..

وكان "بشار" كثير التصرف في فنون الشعر، وهو يصور الأشياء بقوة خاصة به ما تتركه حاسة السمع والشم من آثار النفس.
وكان غزله قوى التأثير حتى نهاه "المهدي" من أجل ذلك عن التشبيب بالنساء وتتجلى قوته في شعر الهجاء، يقول عنه "ابن المقتد": كان شاعراً مجيداً، مفلقاً، ظريفاً محسناً، خدم الملوك، وحضر مجالس الخلفاء، وكان يمدح "المهدي"، ويأنس به، ويدنيه ويجزل له في العطايا، وكان صاحب صوت حسن، وكان إذا حضر "المهدي" في مجلس مع جواريه بعث إليه؛ لأجل المسامرة، والمحادثة، وكان "بشار" يُعدّ من الخطباء البلغاء الفصحاء، وله قصائد وأشعار كثيرة، وقد أثرت في حياة "بشار" وفي شخصيته الأدبية عوامل متشابكة، فقد كان مولى، وكان يحس بعمق أنه قن ابن قن ، وأنه من أسرة فقيرة متخلفة في المجتمع، فانطوى على مرارة ولَّدت فيه ميلاً قوياً إلى العدوان، وقد ورث عن جنسه الفارسي مزاجاً حاداً، واندفاعاً شديداً نحو المتع الحسية، وضاعف ذلك عنده أنه كان مكفوفاً، فغدت وسيلته إلى الجمال والإحساس به حسية وسمعية ولمسية.. واندمج في هذه المكونات الشخصية والجنسية مكون البيئة، وما كانت تكتظ به من دور الرقيق والجواري والإماء. واشتركت الثقافات الأجنبية والعربية في تكوين شخصية "بشار".
والمهم أن "بشاراً" كان واقفاً على ثقافة عصره ومعارفه الدخيلة، وكان لها تأثير واسع فيه، وربما كان أهم ثقافة أثرت في شعره الثقافة العربية، التي هيأته للتفوق في الشعر وساعدته على ذلك نشأته اللغوية، واختلافه إلى المربد، وأيضاً خروجه إلى البادية.

خصائص شعره :
أجمع معاصروه ومن جاء بعدهم على أنه هو الذي نهج للعباسيين طريقتهم الجديدة، وهى طريقة كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الأصول التقليدية للشعر القديم حتى لتبدو فيه نزعة محافظة، وخاصة في مدائحه، فإن الإطار فيها لا يختلف عن الإطار القديم إلا قليلاً.. ولا يعنى ذلك أنه كان غائباً في مديحه عن عصره، فهو يزاوج بين

الماضي والحاضر، يصف الأطلال ولكنه بذوق حضري جديد، فيه رقة، وفيه دقة، وفيه استنباط المعاني وتوليدها.
إنه ربيب بيئة المتكلمين، وقد أخذ عنهم قدرتهم في بسط الأدلة، وتفصيل الأفكار وتفريعها، وتشعيب المعاني وتشقيقها، كما أخذ عن الفرس أمثالهم، وحكمهم، وتحول إلى معاني الشعر الجاهلي يستخلص منه ما لا يحصى من خواطر وبُعد، فلقد كانت صنعة "بشار" في شعره تقوم على الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليدية في الشعر العربي، والعناصر التجديدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة، ثبت "بشار" هذه الطريقة بحيث أصبحت منهجاً عاماً للشعراء من بعده، بحيث عُدّ بحق زعيم المجدِّدين
ويقول الدكتور/ "أحمد إبراهيم موسى" عن مدرسة "بشار" : "اتسمت هذه المدرسة بالإكثار من ألوان البديع بالنسبة إلى القدماء، وبالسذاجة والسهولة، والقرب من صدق الفطرة، وسلامة السليقة بالنسبة إلى متكلّفي البديع من المحدثين، كما امتازت عن العهد وإلى هذا فقد بدا الطابع الثقافي على ألوان البديع التي استخدمها رجال هذه المدرسة بدواً تعتبر حديثاً بالنسبة للأقدمين، وإن كان قليلاً خفيفاً مشهوراً بالنسبة إلى من جاء بعده من المحدثين"(١).

-مدرسة "أبى نواس" ومذاهبها في الشعر:
هو "الحسن بن هانئ"، ولد بالأهواز سنة ١٣٩هـ، وكان أبوه مولى لآل الحكم بن الجراح من بني "سعد العشيرة" اليمنيين، قدم إلى هذه البلدة مع جند "مروان بن الحكم" ومات "هانئ" وابنه صغير، فانتقلت أمّه إلى البصرة وهو ابن ست سنين، فأسلمه إلى الكتاب، وقد حذق "أبو نواس" الفارسية عن أمّه، حتى إنه استخدم مثلاً فارسياً في شعره وقد نشأ بالبصرة فلم يطب عيشه بها، فقد كان يشعر فيها بأنه عبد رقيق، لا حر طليق فرحل إلى "الأهواز"، ثم إلى "الكوفة"، ثم

---
(١) الصبغ البديعى فى اللغة العربية ص٦٣ : ٦٤ – د/ أحمد إبراهيم موسى – دار الكتاب العربى سنة ١٩٦٩م.

إلى "بغداد"، وذكره "ابن إسحاق الموصلي" للرشيد، فأذن له بالدخول عليه، ومدحه "أبو نواس" ، ولكنه برغم ذلك لم يلق من الخليفة كل ما تمناه، بل وجد ذلك عند "البرامكة"، الذين خصُّوه بحظوة كبيرة، وفي سنة ١٨٧هـ رحل إلى "مصر"، فمدح والى الخراج بها "الخطيب".

ويرى الدكتور / "طه حسين" أن "أبا نواس" لم يخلص في مدح الرشيد والبرامكة إخلاصه في مدح "الخطيب".

وبعد وفاة "الرشيد" رجع إلى بغداد، ويبدوا أنه لقي حظوة في قصر الخلافة مدة حكم "الأمين"، وإن حبسه "الأمين" زمناً قصيراً لخلاعته.

واختلف الرواة في سبب وفاته وتاريخ ذلك، فقيل: إنه هجا "بنى نوبخت" فألَّبوا عليه مواليه أن يضربوه، فمات، وقيل: إنه مات في السجن، وكان قد حُبس لشعر قاله فيه فسق سنة ١٩٠هـ. وقيل: كانت وفاته بين سنة ١٩٥هـ، وسنة ١٩٩هـ [١].

وقد أجاد "أبو نواس" فن الخمريات، ودعا إلى ترك المقدمة الطلبية، وامتاز بفحشه ومجونه، وصراحة قوله، وصدقه في التصوير، ويعد ثاني "بشار" في منزعه لفظاً ومعنى.

وقال الجاحظ: "بشار" و"أبو نواس" معناهما واحد، والعدة اثنان: "بشار" حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً، ولا تعب في عمل شعر، و"أبو نواس" حل من الطبع، بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن.

وكان مشهوراً بالتفتح، وهو – على رقته ومجونه – جزل الألفاظ، فخم الأسلوب كثير الغريب، ولقد ابتدع في الشعر أنباء أنكرها العقلاء، وأخذها عنه الشعراء ، مثل: استهتاره في الفجور، واسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى

---

(١) تاريخ الأدب العربى – بروكلمان ٢٤/٢ وما بعدها .

أوصاف المذكر، ولا شك أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب ووصمة في تاريخ شعر العرب[1].

خصائص شعره :

إن الشاعر "أبو نُواس" في مكوّناته الشّخصية يقترب من الشاعر "بشّار بن بُرد"، حيث إنّه ألمّ إلماماً كبيراً بثقافات عصره، كما أنه ورث عن "الفرس" حدّة المزاج، وأخذت البيئة الماجنة تُذْكى أُوَار هذه الحدّة بكل ما أخذه عن الشاعر "والبة"، وأضرابه، وكان ينوّع المعاني في الغزل، وذلك حين يتغزّل في شعره، وكيف يستمد من أوعية القديم في "الحنين" والصد والإعراض، والدّلال، وما تتلألأ فيه خواطره، وتتألّق فيه أحاسيسه، وكان ينحوا في غزله مَنْحىً سهلاً حتى لتصبح بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب، وكان يتوفر في مديحه وشعره الرسمي، ويختار له إطاراً جزلاً قويّاً متيناً، يقدّم له بوصف الصّحراء على طريقة القُدامى، وكان يجنح في مديحه إلى "المبالغة والإسراف" على نفسه في الارتفاع بالممدوحين عن البشر، وبذلك كان من أوائل من أعدّوا لاتّساع المبالغة في المديح العباسي ومضى الشّعراء من بعده يبالغون في المديح، حتى إنهم رفعوا ممدوحيهم إلى مرتبة الآلهة.

وواضح مما قدّمنا أنّ صناعة الشّعر لدى الشاعر "أبى نُواس" كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الإطار القديم في المديح والرّثاء، وما يشبههما بينما كانت تنفكّ من هذا الإطار أحياناً في "الغزل ، والخمريات"، وقد تظلّ له قوّة البناء فيهما، وتطلّ له روعة التصوير ورقة العاطفة والإحساس، والشعور والمرهف، والذّوق الأدبي الرّفيع، وقد يهبط إلى لغة العامّة، وذلك حين يَعْمد إلى العبث والهَزْل، ويهبط أحياناً إلى أسلوب ليس فيه شئ من القوّة، وكان يَعْمد فيه إلى اللحن أحياناً[2].

---

(1) تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات ص٣٩ ، ٣١٠ .

(2) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٦٠ وما بعدها بتصرف .

ويروى لنا صاحب كتاب "طبقات الشعراء" فيقول: "كان "أبو نواس" أدب الناس وأعرفهم بكلّ شعر، وكان مطبوعاً لا يستقصى، ولا يجلّل شعره ولا يقوم عليه، ويقول على السّكر كثيراً، فشعره متفاوت، لذلك يُوجد فيه ما هو في الرِّبا جودة وحُسْناً وقوّة وما هو في الحضيض ضَعْفاً وركاكة [1].
بَيْد أن "أبا نُواس" قلّما يذهب مذاهب القدماء في أساليب الشعر، وقد تولّدت أشعار العبد المعروفة "بالطرديات" من وصف الوحش، وحيوان الصحراء، والذي يشيع كثيراً ويظهر في أشعار القدماء، ولكن يبدو أن "أبا نُواس" هو الذي سبق إلى وضع أسلوب ثابت لهذا المذهب الشعري، ولعل بعض شعراء بنى أميّة قد وصف ملاذّ الصّيد والطّرد، وإن لم تعرفه معرفة أقرب إلى التّعيين والدّقة، ثم تبعه "أبو نواس" في ذلك، فإن مذهبه فيه متقن ولا يشبه أن يكون مستحدثاً[2].

-مدرسة "مسلم بن الوليد" وخصائصها الفنية :
هو الشاعر "مسلم بن الوليد"، والذي يكنى "أبو الوليد"، ويلقّب "بصريع الغوانى" ولد "أبو الوليد" بين سنتى ثلاثين ومائة للهجرة، وسنة أربعين ومائة للهجرة أيضاً، وعاش في "بغداد"، فاتّخذ من الشعر حرفة له، ينظمه في المناسبات، والمديح حيث إن الشاعر "مسلم بن الوليد" كان يمدح "هارون الرّشيد"، بل كان الشاعر "أبو الوليد" كثير المديح للخليفة "هارون الرشيد"، و"البرامكة"، كما مدح من بعدهم "الفضل بن سهل"، وزير المأمون، وهو ابن "هارون الرشيد"، وجعله "المأمون" صاحب "البريد"، "بجرجان"، ولَحِق بربِّه بها، وكان ذلك في سنة ثمان ومائتين للهجرة (٢٠٨هـ).
وقد أحيا الشاعر "مسلم بن الوليد" مذهب شعراء بنى أميّة في هجائه للشاعر "قُنْبر" بيد أن "محمد بن داود" يأخذ عليهم في كتاب

---

(1) طبقات الشعراء: لابن المعتز ص١٩٤ .
(2) تاريخ الأدب العربى – كارل بروكلمان ص٢٧ نقل الدكتور/ عبد الحليم النجار.

"الورقة" أنّه أفسد مذهب القدماء، وذلك بالغلوّ في التّشبيهات، ويقول "الآمدى" في الموازنة:
"إن "أبا تمام" سلك طريقه في "البديع"، فاضمحلّ بهما شعر العرب – كما قال "أبو هلال العسكري" في كتابه "الصّناعتين" – وهو مصدر أساسي من مصادر علوم "البلاغة العربية": "إنه جَارٍ على وتيرة واحدة لا يبتعد عنها"، وفي أخبار "مسلم بن الوليد" وأشعاره ما يدل على أنّه كان شيخاً صالحاً، وأغلب الظن أنه كان من موالى "الفُرس"، ويبدوا أن مواهبه الشعرية قد استيقظت في نفسه مبكّراً.
ويُعدّ الشاعر "مسلم بن الوليد" أوّل من عاش لمذهب "البديع"، و"التصنيع"، ينمِّيه وقد تناوله منه الشعار "حبيب بن أوس الطّائىّ"، والمكنى بـ "أبى تمام"، فبلغ به الغاية واجتاز فيه النهاية [١].
ويقول "الأصفهاني" في أغانيه: "وهو فيما زعم أنه أول من قال الشعر المعروف بـ "البديع"، وتبعه فيه جماعة كان من أشهرهم "أبو تمام الطائىّ" بيْد أن "مسلم بن الوليد" هو صاحب هذا المذهب الجديد من "التّصنيع"، وهو الذي اقترح له اسمه "البديع".
و"مسلم بن الوليد" يعتمد في شعره اعتماداً كبيراً على "الإطار التقليدي"، وما يرتبط به من جزالة الأسلوب، ومتانته، وجماله، ونصاعته، وبلاغته، وقوّته. حتى في غزله وخمرياته فإنه لا يهبط أبداً على نحو ما يهبط "أبو نُواس" إلى الأساليب اليومية، يعنى "أسلوب العامة"، ويغلب على شعره أن يكون من الأوزان الطّويلة حتى يتلاءم مع ما يريد من "جَرْس" قوىّ، وضخامة البناء في اللفظ، والتعبير، وهو من هذه الناحية يعدّ في طليعة من دفعوا الشّعراء العبّاسيين إلى التمسّك بالأسلوب الجزل القوىّ.

---

(١) تاريخ الأدب العربى – لكارك بروكلمان ٣٢/٢ .

- الموازنة للآمدى .
- الصناعتين لأبى هلال العسكرى .

وهو صاحب رويّة غير مترجل، ولا يقول الشعر عفو الخاطر، فالشّعر لَدَيْه صناعة مجهِدة، ومرهِقة لا بدّ فيها من التريّث والتأني والتمهّل، والصّقل والتّجويد، ولعلّ ذلك ما جعل "ديوان الشاعر" صغيراً، وضئيل الحجم بالقياس إلى دواوين الشعراء المعاصرين له من أمثال: "أبو نواس"، و"بشار بن بُرد"، وهذا البناء الضّخم لديه غير كافٍ بفخامته وحدها في رأيه، ولكن لا بدّ من إضافة الزّخرف الجديد، والذي كان يأتي على قِلَّة في الشّعر القديم، وأكثر منه الشاعر "بشّار بن بُرد" وحلفاؤه، بَيْد أنّهم لم يتخذوه مذهباً. أما الشعار "مسلم بن الوليد" فقد طبّقه على شعره [1].

ويقول الدكتور/ "أحمد إبراهيم موسى" في مدرسة "مسلم بن الوليد" واتّجاهاتها الفنية: "كانت مُبالغة "مسلم" وإسرافه في أصْبَاغ البديع، وحشده لكثير منها في القصيدة الواحدة، بل في البيت الواحد، مع إحكام المعنى، ودقّة الصّنع سبباً في استقلاله بمدرسة واحده، واضحة المعالم، ومستوية الجوانب يَرِدُهَا الوُرّاد فيفيدون منها فائدة قريبة عاجلة من غير تعب، وبدون مشقة[2].

ومن بديع ما يروى له قوله :

إن كنت تسقينا عين الرّاج فاسقنى	كَأساً ألذّ بها من فيك تَشْفِينى
عيناك رَاجى وريحانى حديثك لى	ولون خدّيك لون الورد يكفينى **(٣)**

([1]) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص١٨٢ وما بعده – بتصرف .

([2]) الصّبغ البديعى فى اللغة العربية ص٧٨ .

([3]) طبقات الشعراء: لابن المعتز ص٢٣٨ .

الخصائص العقلية والفنية عند مدرسة "أبى تمام":

هو "أبو تمام" "حبيب بن أوس الطائى" ، أحد الأعلام الشامخة في عالم الأدب وبعض الأطواد الراسخة في شعر العرب، وقد لمع مع التاريخ ذكره، وانتشر في الآفاق خبره، وتموج به فنه الأدبي حتى أجلسه على سرير الملك بين الأدباء، وسواه على عرش المكانة الأولى من طنب الشعراء.

والمعروف أن سلسلة نسبه تصله بالآفاق العربية اليمنية الطراز، وأن صُلْبِيَّته الطائية حقيقة لا مجاز، وأنه يعربى الجزم، يمنى النجار.

وممن نثروا عقود تلك السلسلة : "الخطيب البغدادي"، و"ابن خلّكان"، و"عبد القادر البغدادي"، و"يوسف البديعي"[1].

وإن كانوا قد اختلفوا اختلافاً بيّناً في عدد الآباء، وتحرير الأسماء، ولهذا رأينا صاحب كتاب "الأغاني" يضرب صفحاً عن ذلك النسب، ويكتفي بقوله:"من نفس طئ صلبية.

وزعم بعض الناس أن عروبته سمت مصنوع، وأمت مطبوع، وحلى صاغة "أبو تمام" لنفسه لما كان يحاط به النسب العربى يومذاك من سحر وبهر، وتجواز بالشخص إلى عنان السماء، ومن هؤلاء "الحسن بن بشر الآمدى"[2]، الذى أثار عثير هذا الشك إلى أن تلقفه المستشرق الإنجليزى "مارجليوث" فقط أن هذا النسب مزعوم، وأن "أبا تمام" كان نصرانياً فأسلم، وغير اسم أبيه من "ثادوس" إلى "نيودوس"، إلى "أوس"[3].

ولقد أبى الدكتور / "طه حسين" على العهد به دائماً إلا كبر هذا المزعم، مؤيداً في ذلك ما ذهب إليه المستشرقون.

---

(1) تاريخ بغداد ٢٤٨/٨، ووفيات الأعيان: لابن خلّكان ١٥٠/٤، خزانة الأدب ١٧٢/١، وهبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص٩ .

(2) أوائل الموازنة والأغانى ١٥٠/١ .

(3) دائرة المعارف الإسلامية ٣٢/١ .

والذين قاموا بالترجمة "لأبى تمام" يردون زمن ولادته بين سنتى (١٧٢، ١٨٠) (١٨٨، ١٩٠ ، ١٩٢). كما نرى صاحب "معاهد التنصيص" يرد زمن ولادته بين (١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠)، ويزيد "ابن خلّكان" فوق هذه الثلاثة (١٩٢) وفي نزهة الألبَّاء نقلاً عن ابنه "تمام" أنه وُلد سنة ١٨٨هـ،وفي "خزانة الأدب وسرج العيون والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة"لـ "ابن تغرى بردى" الأتابكى الأشعري: أنه وُلد سنة ١٩٢هـ، وهى التى حدده الشاعر نفسه عندما سُئل عن موعد مولده، ونرى المستشرق "جليون" يقرر أنه وُلد سنة ١٨٠هـ ، أو سنة ١٨٨هـ (٧٩٦ أو ٨٠٤م).

وفي دراسة متأنية عميقة، مدعومة بالأسانيد العقلية والدلائل التاريخية رجَّحْنا أنه وُلد سنة ١٩٠هـ[١].

والمؤرخون عدا صاحب "الأغاني" متفقون على أنه وُلد بقرية "جاسم"، وهى إحدى قرى "الْجَبْدُور"، وهى من أعمال "دمشق" بسورية العربية، ويقول "ياقوت الحموي" إنها تقع على ثمانية فراسخ من "دمشق" على يمين الطريق الأعظم إلى "طبرية"[٢].

ويذكر "أبو الفرج الأصفهاني" أنها قرية من ضواحى "منبج"[٣]، وهى الآن من قرى "حُوران" بسورية، فلقد نشأ الشاعر في هذه القرية، فتفتقت شاعريته، وكان أبوه يعمل "خمَّاراً" في "دمشق"، ولا يجمع من تجارته أكثر مما يكفيه، ولما كبُر ابنه رحل إلى هناك حيث عمل خادماً عند حائك كما يذكره "ابن خلّكان"، ولكن نفسه الأبية أبت الاستمرار في هذه العمل، وقرر أن يخلف ثوب النصرانية، ويتخذ الإسلام سربالاً، فأعلن إسلامه وخرج على الفقر كما خرج على الكفر، وشمّر عن ساعد الجد لينعم في ظلال الإسلام بحياة رغدة، وقد مات أبوه في هذه المرحلة، فاتّجه إلى "حمص"، ثم

---

(١) الوفيات ١٥٠/١ ، تاريخ بغداد ٢٥٢/٨ ، دائرة المعارف ٣٢٠/١ .

(٢) معجم البلدان ٣٧/٣ .

(٣) الأغانى ٩٦/١٥ .

اضطر إلى الهجرة منها، فكانت هجرته إلى مصر تلك البلد المضياف التى تنزل روادها دائماً الجنات الألفاف وعندما نزل بساحتها شعر بالأمن، فدخل إلى جامع "عمرو بن العاص يستقى معارف الكتاب، ويسقى عذب الشراب، وفي ظلال هذه الجامعة العلمية آنئذٍ ارتشف الرّضاب العلمى، وكرع من المعرفة ما شاء له، ومن هناك تدفق صيبه الشعري، ثم ذهب إلى "بغداد" حيث استقرت به عصا التسيار هناك، وقد امتاز "أبو تمام" منذ نشأته بدماثة الْخُلُق، وكان طويل القامة، فصيح اللسان، يتمتع باللون الأحمر الجذاب، ومع فصاحة لسانه كان يشكو حبسة يسيرة في النطق بالكلمات
كما كان ألمعياً حاد الذكاء، كريم النفس، مرهف الحسّ، قوى الحافظة، سريع الاستيعاب، وقد اتُّهم بأنه كان ذا قروح في دينه، وجروح في يقينه، مولعاً بالفسَّاق، ومنادمة الأصحاب على الشراب[1].
وفي رأينا أن هذا التشنيع على "أبى تمام" كان من حسَّاده وشانئيه.

كل العداوة قد يُرجى محبتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد

فقد رموه بالكفر، وعبادة اللات والعزى، ونقص ركعات الصلاة [2]على أن المجمع عليه أنه لم يعلق فتاة، ولم تلن له أمام امرأة قناة، ولهذا كان غزله في شعره غزلاً صناعياً، وكان ضعيفاً متخاذلاً، ومن المعروف أن "أبا تمام" كان عالى النفس، شديد النّبل، سابغ العطف على أهل التعفّف، خاصة في دارة الأدباء والشعراء، ولقد كان الفقر هو المزرعة التى نما فيه عوده، واخضرّ وجوده، وألبسته حُلّة حالكة السواد.
بَيْد أن الحياة الأدبية التي حباه بها القدر كانت كفيلة بأن تقتص جناح مَتْرَبَتِه، وتنقله من الفقر إلى الغنى، فلقد دَرَّ عليه شعره كثيراً من المال،

---

(1) الأغانى ١٠٠/١٥ ، ١٠٣ ، والصولى ص١٨٤ ، وزهى الآداب ١٣٢/٣ ، وسرح العيون ص٢٠٧.

(2) الصولى ص١٧٣ .

ونفحه أدبه بغزير من النوال، بَيْد أنه كان مُسرفاً مِتلافاً، خاصة في ميدان مساعدة المعوذين، وكان مثله الأعلى في ذلك قوله:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولهذا كان يوزع بالشمال ما كان يجمع باليمين، غير آبه بالمستقبل، وما تخبئه الأيام، وقضى "أبو تمام" حياته كالطائر المغرد، يتنقل من فَنَنٍ إلى فَنَنٍ، ومن غصن إلى غصن، ويطير من أيك إلى أيك، وقد دفعه الفقر أولاً إلى الارتحال لطلب المال، فذهب إلى "حمص"، ثم دلف إلى "مصر"، ومكث بها خمس سنوات، ثم رحل إلى "بغداد"؛ طمعاً في الإمداد وزيادة الزاد، ولما أخفق في لقاء "المأمون" خفق في سماء "المعتصم"، فنزل أكرم ساحة بين الشعراء والأدباء، ولدى الوزراء والعظماء، والقادة والرّواد ، فيقول:

وغربت حتى لم أجد ذكر مشرق ... وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وكانت الحياة في أيامه تموج بكثير من المذاهب السياسية، وكانت الدولة في عهدة علوية، واستطاع "أبو تمام" أن يجتاز كل هذا، وظل شاعر الخلافة المحبب، فقد كان علوياً وكان يظهرها أحياناً.

أما منهجه في شعره: فقد كان من المولعين بالصنع البديعى الصبغ، كما كان كلفاً بالغريب، فاتّجه إلى المعانى، ناسياً سلامة المبانى، ومال إلى الإسراف في التزيين حتى فتح على نفسه أبواب النقد اللاذع، وحتى قال "دعب" عن شعره: "إنه خطابة"، وقال ابن الأعرابي: "إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل"[١].

ويقول القاضي الجرجاني: "إن ذلك دفعه كثيراً إلى أن يخلط الغرر بالعرر"[٢].

---

(١) موازنة – لأبى تمام .

(٢) الوساطة ص٢٢ ، ٢٨ .

وقد كان شاعراً قوياً ، خاصة في مجالي "الرثاء ، والثناء"، ولكن كثيراً من أبياته يظهر فيه التكلف.
وتتلمذ عليه "ابن الرومي"، و"إبراهيم بن الفرج"، و"الصنوبرى"، والذى يلقب "بحبيب الأصغر"، وأولع "ابن خفاجة الأندلسي" بمنهجه، وتعتمد الصنعة فاستعمل الغريب والمحسنات، فانبهم شعره، واستغلقت معانيه كما ذكر "ابن بسام" صاحب "الذخيرة".
وكان الشعراء يحتكمون إليه، وينشدون أشعارهم بين يديه، فيحكم حكم القاضي البصير، ويفصل فصل الناقد الخبير، ويُلبس التَّاج من يستحقه دون اعتراض أو احتجاج.
والتاريخ يعرف له المكانة الأولى في النقد الأدبي، ويحفظ له قدره في وزن الشعر العربي، والنقاد جميعهم سلّموا الأمر إليه، واستحسنوا ما استحسن وهجنوا ما هجّن، أما من حيث شعر "أبى تمام" ففيه الغثّ والثّمين، وفيه الجيد العالي والحشف البالي، والواضح أنه شاعر غَنِيٌّ في المعاني فقير في المباني
والنقاد مختلفون فيه، فأصحاب المدرسة القديمة يصورونه خارجاً على الحدود متحللاً من القيود، وأصحاب المدرسة الحديثة بهرتهم دقة معانيه، وعمق أفكاره، فسلموه لواء الزعامة، ورأوا فيه قائداً لجيش الشعراء، ورائداً لرَكْب الأدباء، وغفروا له هفواته وقالوا: "إن لكل جواد كبوات،ولكل عالم زلات".
أما خصائص شعره: فقد ذكر "ابن المعتز" أن "أبا تمام" كان كثير الاطلاع والدرس وأن "محمداً بن قدامة" قال له: "يا "أبا تمام"، إنك لتنظر في الكتب كثيراً، وتدمن الدرس فما أصبرك عليه! فقال: والله ما لى إلف غيرها، ولا لذة سواها، وإني لخليق إن افتقدتها أن أحن.
وهذه الثقافة الغزيرة التي تشيّع بها "أبو تمام" كانت لها آثارها في شعره، وفي مكانته الأدبية، فهو رأس الطبقة الثانية من المولدين، جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، ظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله، ولطف خياله بالاطلاع عليها

واستنبط طريقته من ذلك، وآثر فيها تجويد المعاني على تسهيل العبارة، وهو أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكتابات الخفية، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد، ولما رأى أن سلامة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر، فتوخي الجِناس والمطابقة والاستعارة، فسلم له بعض، وأغفل عن بعض، وله معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي[1].

ويقول "ابن المعتز" في شعر "أبى تمام": "لو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد، التي هى عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك ، وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً، لأن الرجل كثير الشعر جداً، ويقال: إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ما له جيد والردئ الذي له إنما هو شئ يقلق لفظه فقط، فأما أن يكون في شعره شئ يخلو من المعاني اللطيفة، والمحاسن والبدع الكثيرة فلا"[2].

وفي تاريخ الأدب العربي "لكارل بروكلمان" وصف دقيق للخصائص العقلية والفنية في شعر "أبى تمام"، نجتزئ منها ما يأتى:

شعر "أبى تمام" متأثر تأثراً كبيراً بشعر "ديك الجن"، ويقول "دعبل"

"لم يكن "أبو تام" شاعراً، إنما كان خطيباً، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر". وكان "دعبل" يميل عليه، ولم يدخله في كتابه "الشعراء"، وعاب "ابن المعتز" "أبا تمام" بأنه أفسد ذوق معاصريه بإفراط المعانى والمجازات، ويقول"ابن الرومى": "إن أبا تمام الطائى كان يطلب المعنى، ولا يبالى باللفظ،حتى لو تبين له المعنى بلفظة نصية لأتى بها، ولكن "ابن رشيق" يقول في "العمدة": إنه ابتدأ بوضع قوافي القصيدة، **وطلب الأبيات بعدها:**

---

[1] طبقات الشعراء – لابن المعتز ص٢٨٣ ، وتاريخ الأدب العربى – لأحمد حسن الزيات ص٣٣١ .

[2] طبقات الشعراء – لابن المعتز ص٢٨٥ وما بعدها .

ويروى أن "يعقوب الكندى" لما رأى كد "أبى تمام" ذهنه في تحلية شعره بالمعاني والبديع قال فيه: "هذا رجل يموت قبل حينه؛ لأنه حمل على كيانه بالفكر".
وأنكر "الجرجانى" في "أسرار البلاغة" ، و"المرزبانى" في "الموشح"على "أبى تمام" كثرة استعمال الغريب المصدود عنه، من الكلمات وأسماء الأمكنة، وقلما وجدنا في شعر أبى تمام" شيئاً في الحنين والصبابة، كقصيدته في وداع صديقه "على بن الجهم"
ورغم ذلك فهو يتنبأ لشعره بالبقاء والخلود، وأن قصائده ستُتْلى كما تُتْلى أخبار الغزوات والفتوح، وقد يكون "ابن الأثير" متأثراً في ذلك؛ إذ يزعم في المثل السائر أن في شعر "أبى تمام" طنين السلاح، كما أن "أبا الفرج الأصفهانى" سماه أمير الشعراء، وأشاد "أحمد زكى أبو شادى" في كتابه : فوق العباب بقوة شاعريته، وأبدى أسفه لعدم بذل العناية الواجبة في الكشف عن نواحى عبقريته.
وقد سار كثير من شعر "أبى تمام" مسرى الأمثال؛ لكثرة ما فيه من الحكم، وحقائق الكلم[1].
وعن عناية "أبى تمام" بالصنع البديعى يقول الدكتور/ "أحمد إبراهيم موسى":
بلغ الصبغ البديعى على يديه من التأنى والزينة، والزخرف والتنميق، والتكلف والتعقيد، والمزج بألوان الثقافات الواسعة، والخوض في بحار الفلسفة المتعمقة، مبلغاً لم يبلغه على يد شاعر كان قبله أو بعده، فهو فيلسوف إذا عرض للفلسفة، نحوى إذا خاض في النحو، متكلم إذا جنح لعلم الكلام، فقيه إذا نحا نحو الفقهاء، تاريخي إذا عرج على التاريخ.
أغرم "أبو تمام" بأصباغ البديع، فانتحى نحو "مسلم"، وهام بمذهبه، حتى حلف لا يصلى قبل أن يحفظ "ديوان مسلم"، فتأثر بهذه الطريقة، واستخدم في شعره تلك الأصباغ التي استخدمها أستاذه، ولا سيما الجناس والطباق والتقسيم، ولكنه أربى على أستاذه في هذه الصنعة بما

---
(١) تاريخ الأدب العربى – كارل بروكلمان ص٢ ، ٧٢ وما بعدها .

جعله يمثل مدرسة وحده.. وقد امتازت طريقة "أبى تمام" بالمبالغة المسرفة في الإكثار من هذه الأصباغ، مع التكلف الواضح الذي ينتهي إلى أعمق غايات القبح، والاستكراه في كثير من صنعته، كما يتضاءل أمامه ما رأيناه عند "مسلم" حتى استحالت بذلك عن مألوف هيئتها، ومعروف صورتها عند أستاذه.

كما امتازت بغمس أصباغ البديع في ألوان الثقافات الواسعة والفلسفة المتعمقة حتى كانت إلى الغموض والالتواء والصعوبة والاستبهام، أقرب منها إلى الوضوح والاستقامة، والسهولة والجلاء[1].

الموسيقى الشعرية عند "البحتري" :

"أبو عبادة الوليد بن عبادة عبيد الطائى" ، وُلد في "منبج" أو قرية قريبة منها سنة ٢٠٦هـ، واتصل في شبابه بـ "أبى تمام" عند حضوره إلى "حمص"، فلما اقتنع "أبو تمام" بملكته في الشعر، أوصى له العطاء، ثم قدم "بغداد" فمدح المتوكل، وكبار رجال الدولة وأقام هناك زمناً طويلاً، فلما انقضت الخلافة إلى "المستعين" ومن بعده إلى "المعتز" لم يحظ "البحتري" منهما بطائل، وترك بغداد، ورجع إلى بلده .

ومما يدل على شهرة "البحتري" وذيوع شعره بين المتأخرين ، أن أهل "حلب" في المائة الخامسة للهجرة عرفوا قبر حبيبته "علوة"، ويفتخر "البحتري" نفسه بأصالة شِعره، وما اجتمع له من العقل والتجربة في نفسه الذي خلا من تكلف حدود المنطق، وفضل "الجرجاني" في "أسرار البلاغة" سلاسة ألفاظه، ووضوح بيانه عن غموض "أبى تمام".

وقد أحسن "البحتري" في وصف الربيع إحساناً ظاهراً، نوّه به "الثعالبي"، وأشاد بفضله، وفي أغراض الشعر القديم، كوصف الفرس استطاع أن يضيف نواحي جديدة حتى رفعه "العسكري" في ذلك على سائر الشعراء المحدثين.

---

(1) الصبغ البديعى ص٨٢ وما بعدها .

وتوفي في "حلب" ، وقيل: في "منبج" سنة ٢٨٤هـ.
وللشاعر "البحتري" الموسيقى الخاصّة به، فقد عرف كيف يلائم بين ألفاظه، وكيف يرشّح لقوافيه، ويهيئ لها مكانها، فقد كان شاعراً ممتازا في "فَنّ الصّوت"، واستمرّ يستمده من القيثارة العتيقة في كثير من صورها وجوانبها، بَيْد أنّه عرف كيف يستخرج من هذه القيثارة أصواتاً جديدة معجبة لأمثال الموسيقيين الممتازين.
وكان يعرف في نفسه هذه الخاصيّة حتى قالوا: "إنه إذا أنشد يتشادق في حركته مرّة جانباً، وأخرى القهقرى، ويحرّك رأسه مرّة، ومنكبه مرّة أخرى، ويقف عند كلّ بيت ويقول: "أحسنت والله"، ثم يقبل على مستمعيه ويقول لهم: "ما لكم لا تقولون لي أحسنت"، هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله".
ومهما يكن من شئ فإن "البحتري" استطاع أن يحوّل موسيقاه إلى ألحان، وأرقام موسيقية خاصّة، **واقرأ له هذه القطعة:**

لي حبيبٌ قد لَجّ في الهجر جداً ... وأعاد منه الصّدود وأبْدَى

ذو فنون يُريك في كلّ يومٍ ... خلقاً من جفائه مستجدّاً

يتأبّى منعة وينعم .

أغْتدى راضياً وقد بتّ غصباً ... وأمْسِى مولى وأصبح عبداً

وبنفسى أفدى على كلّ حال شادِناً ... لو يمسى بالحسن أعدى

مرّ بى خالياً فأطمع في الوصل ... وعرضت بالسلام فردا

وثنى خدّه إلىّ على خوف ... فقبّلت جلّناراً وورداَ

ونرى صاحب "الصناعتين" يعجب بهذه القطعة أعجاباً شديداً، وحقاً إن "البحترى" استوفي فيها كلّ ما يمكن من وسائل التفوّق في "فن الصوت"، حيث يبدأ فيوفّق بين الشّطرين في المطلع، ويجعلهما مصرعين هذا التّصريع الذى كان يعجب به أصحاب البيان، ويلائم بين الحروف في الشّطرين، فقد تكرّرت "الجيم" في الشّطر الأول، كما تكرّرت "الدّال" في الشطر الثاني، فأحدث ذلك توافُقاً صَوْتياً بين الكلمات، وفي البيت الثالث يوفِّق بين الألفاظ توفيقاً دقيقاً، إذْ جاء بكلمة "يتأبّى" كأنها مشدودة إلى كلمة "ينعم" بوساطة هذا الرّباط المحكم "مَنْعاً"، وهنا تحسّ ما يصنعه التّوافق الصوتي بين الحروف والكلمات وكذلك ما تراه من الطّباق الصوتي بين "يدنو"، و"يبعد وكذلك بين الكلمتين :

"وَصْلاً"، و"صَدّاً"، وانظر إلى قوافي الأبيات، كيف أحكم قرارها، فقد تتابعت منسَّقة تنسيقاً، وها هى "أبداً"، "جداً"، "عَبْداً"، و"أعدى"، و"فردَا"، و"عَهْدَا"، فإنّك تراها متحدة في عدد حروفها، وحركاتها، وسكناتها، وسمى أصحاب البديع ذلك بـ "التطريز"[١].

أجل: إن "البحتري" قد أحسن جانب "الموسيقى الداخلية" في الشعر، وما يستتبعه من المشاكلة بين الألفاظ والمعاني، والتوافق الصّوتى بين الحروف، والحركات والكلمات، وكأنّه يوفّر وقته جميعه "للصوت"، وهذا جلّ ما يعتمد عليه في شعره من جَوّ، وهو يطلق "الموسيقى" ويدعها تؤثِّر في أعصاب المستمعين كما يريد ويشتهى[٢].

التّصنيع والصّنعة لدى مدرسة "ابن المعتزّ":

"أبو العباس عبد الله بن المعتز"، ولد عام ٢٤٧هـ، وهو ابن الخليفة "المعتز بالله" الذي ولى الخلافة سنة ٢٥٢هـ، وكان "ابن المعتز" يتمتع بعيش ناعم مرفّه مع الشعراء والأدباء في خلافة "المقتدر"، فلما أفضت الخلافة إلى "المكتفى" انغمس في غمار السياسة، ومكايدها ولما تولّى "المقتدر" ابن عمه سنة ٢٩٥هـ، وترك تدبير الحكم وأمور

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشّعر العربى ص٨٣ وما بعدها .

(٢) ذاته ص١٩٩ .

السياسة لأمّه، ومن حولها من النساء والخصيان التفّ حول "المعتز" الحانقون على الخليفة، وأوعز إليه جماعة من رؤساء الأجناد أن يتهيأ للخلافة.

ثم خلعوا "المقتدر"، وبايعوا "ابن المعتز"، ولقّبوه "المرتضى"، ولكنه لم يبق في كرسي الخلافة إلا يوماً وليلة، فقد تحزب أصحاب "المقتدر"، وتعاونوا على أعوان "ابن المعتز"، فأعادوا "المقتدر" إلى الخلافة، واضطر "المعتز" للاختفاء، والالتجاء إلى "ابن الجصاص" التاجر الجوهرى، ولكن "المقتدر" سرعان ما اهتدى إلى مكمنه، فأخذه وسلّمه إلى "مؤنس الخازن" فقتله، وسلّمه إلى أهله ملفوفاً في كساء في الأول من ربيع سنة ٢٩٦هـ..

وكان "ابن المعتز" يمعن في تقليد مذاهب القدماء في الشعر، وكان أيضاً متأثراً بـ "أبى نواس" إلى حد كبير، ويبرز في صور شعره وتشبيهاته ما كان ينعم به من ترف العيش ورفاهية الحياة

وقد كان "ابن المعتز" حضرياً مترفاً عالماً، رأى من صور الحضارة ومشاهدها ما لم يره "البحتري"؛ لذلك أجاد في التشبيه، وانصرف إليه، وتقدم جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً، وشعراً، وظرفاً، وتصرفاً في سائر الآداب، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية، وغزل الظرفاء، وهلهلة المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجتهدين، ولا تقصر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفة من أشعار الملوك.. وإن من يتتبع صنع "ابن المعتز" يجدها قد فاضت بأصباغ الزخرف الحسي الذي لم يغص في بحار الفلسفة والثقافة، ولم يعقد بمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض آخر، على نحو ما هو عند "أبى تمام"، بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج، وهى مع ذلك تفيض رقة، وتسيل عذوبة، وتمثل الحضارة المترفة في أروع صورها، وأجلها، اقرأ قوله يُجَانِس:

يا دار أين ظباؤك اللعس　　　　قد كان لى في أنسها أنس

وقوله يمدح "المكتفي بالله":
بالمكتفي كفي الأنام سمومهم　　　　وغدا عليهم طالع سعود [١]

وكان "ابن المعتز" شاعراً مُجيداً، غير أنه كان أميراً مترفاً، ولم يتح له ترفه أن يتعمق الثقافة والفلسفة، وهو كذلك لم يتعمق وسائل التصنيع الحديثة، فإنه لم يعرف العمق في شئ، وليس معنى ذلك أن "ابن المعتز" كان من ذوق الصائغين، فقد كان من ذوق المصنعين، فالتصنيع والزخرف أساسيان في حياته، وهما كذلك أساسيان في فنه، ويحدثنا صاحب "الأغاني" أنه بدت فيه منذ نشأته نزعة إلى الغناء والموسيقى، ضاعفت حسه بالجمال، كما ضاعفها ترفه ونعيمه، وليس من شك في أن من يعيش مثل هذه المعيشة لا يمكن أن يكون ذوقه بسيطاً، فالترف لا يتيح بساطة في الحياة، بل هو يتيح ضرباً معقداً من التصنيع في شئونها.

والحق أن التصنيع كان مادة أصلية في حياته، وسرى منها إلى فنه ، فهو يعيش في شعره كما يعيش في حياته معيشة تعتمد على التأني والتنميق.

وكان "ابن المعتز" شاعراً مصنّعاً من أصحاب مذهب التصنيع، وكان يعجب بهذا المذهب إعجاباً شديداً دعاه إلى أن يكتب في أدواته وزخرفه كتابه "البديع"، وهو يشهد له بأنه كان فناناً عالماً يحسن وضع المصطلحات الفنية

---

(١) الصبغ البديعى فى اللغة العربية ص١٠٤ وما بعدها .

العصر العباسى الثانى :
(٣٣٤ ــ ٦٥٦ هـ)

العوامل المؤثرة فى الأدب فى العصر العباسى الثانى :

أ – الحياة السياسية :

يطلق على المدة الزمنية من ٣٣٤هـ إلى ٦٥٦هـ -أو إلى ما بعد هذا التاريخ حتى بداية العصر الحديث – عصر الدويلات، وذلك منذ دخول "أحمد معز الدولة بن بويه" بغداد فى عهد "الْمُستكفى" وتأسيس دولته فيها.

فقد ظلت الدويلات تتعاقب على أجزاء الدولة الإسلامية منذ ذلك الحين حتى مطلع العصر الحديث.

فقد قامت الدولة "البويهية" فى "بغداد"، والسلجوقية فى "فارس"، والحمدانية فى "حلب"، والفاطمية فى "مصر" إلى غير ذلك من الدويلات.

هذا التقسيم قائم على أساس بقاء الخليفة العباسى الواحد، والعاصمة العباسية الواحدة على الرغم من سيطرة الأتراك على هذا الخليفة ، وتحكمهم فى تعيينه وعزله فقد كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة، يولّون الخلفاء ويعزلونهم، بل ويسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر، أو يدعون فإنما هو تدبيرهم.

وقد صوّر ذلك أحد الشعراء ، فقال:

خليفة فى قفص ∴ بين وصيف وبغا

يقولون ما قالا له ∴ كما يقول الببغا

وظلت الأمور تسير على هذا المنوال من سيء إلى أسوأ، ونفوذ الترك يزداد يوماً بعد يوم، ولم يكد يبدأ القرن الرابع الهجرى حتى انقسمت الدولة الإسلامية، وانفرط عقدها إلى دويلات صغيرة، وإمارات مبعثرة[١].

وهذا الانقسام وإن كان قد أدى إلى ضعف الدولة سياسياً وحربياً، إلا أنه عاد على الحياة الأدبية بالرقى والازدهار، للأسباب الآتية :

١ – التنافس الشديد بين ملوك وأمراء هذه الدويلات، ورغبة كل منهم فى إقامة دولته على أسس راسخة من الحضارة والتمدين والعلم والأدب.

٢ – لم تعد "بغداد" وحدها مركز النشاط العلمى والأدبى، بل تعددت المراكز العلمية والأدبية، ونافست "بغداد" فى حمل رسالة الثقافة العربية والإسلامية.

٣ – أتيحت للشعراء فرصة السفر والتجوال بين أقطار العالم الإسلامية، وقد مكّنهم ذلك من التعرّف على جمال الطبيعة، وتنوّع مظاهرها، وقد برز فى هذا المجال شعراء كثيرون، من أمثال "الصنوبرى"، و"الرفاء" فى دولة الشام الحمدانية، و"تميم بن المعز"، و"الشريف العقيلى" من دولة مصر الفاطمية.

٤ – عنيت العناصر العربية بتشجيع النهضة الأدبية بصفة عامة، والشعرية منها بصفة خاصة؛ استجابة لبواعث الذوق والفطرة، والملكة العربية الأصيلة، فتبوأ الشعر مكانة عالية، ومنزلة سامية.

٥ – تأثرت اللغة العربية وآدابها بما كان للفرس من حضارة ومدنية، وفصاحة وبيان وكان حفظ الشعر من هذا التأثير الكبير، فأدخل على الشعر الخيال اللطيف المحلِّق والتعبير الدقيق، والإحساس الناقد العميق.

٦ – دفع الانقسام العباسى ملوك وأمراء الدويلات الناشئة فى ظله إلى الحرص الشديد على الشعر والاحتفاء به، والحفاوة البالغة

---

(١) دراسات فى الأدب فى العصر العباسى – د/ عيد قناوى - ص١١ وما بعدها – بتصرف .

بفرسانه؛ لأنهم يمثلون الجهاز الإعلامى الخطير للدولة، يثبتون ملكها، ويشيدون بأيامها، ويذيعون مفاخرها، وقد فهم كثير من ملوك وأمراء هذه الدول أن الشعر خير منبر لدعوة الناس إلا ما تعتنقه الدولة من مذهب، أو ما تدعوا إليه.

بهذه الأسباب وغيرها نهض العلم والأدب فى ظل الانقسام السياسى، والدويلات التى تمخضت عنه[1].

الدولة البويهية :

ينتهى البويهيون إلى رجل كان يسمى "أبا شجاع بويه" من بلاد "الديلم" الواقعة فى الجنوب الغربى من شاطى بحر الخرز، ولم يكن لهذه البلاد تاريخ يذكر قبل توسع البويهيين الديالمة، وكان "أبو شجاع بويه" فى أول أمره فقيراً يعيش هو وأولاده : أحمد وعلى، والحسن على صيد السمك ، احتطاب الحطب، ثم ألحق الأولاد الثلاثة جنوداً فى خدمة قوات الديالمة، واستطاع الإخوة الثلاثة بذكائهم وعزيمتهم أن يدخلوا التاريخ ويصلوا إلى قمة المجد، بعدما كانوا يعيشون فيه من فقر مدقع!!

وذلك أن الإخوة الثلاثة ظلوا يتوسّعون فى فتوحاتهم، حتى بسطوا أيديهم على "فارس" و"العراق"، وتمكن "أحمد بن بويه" من دخول "بغداد" فى الحادى عشر من جمادى الأول سنة ٣٣٤هـ فى عهد الخليفة العباسى "المستكفى"، حيث لقب "أحمد" بـ "عز الدولة" ولقب "الحسن" بـ "بركن الدولة"، ولقب "على" بـ "عماد الدولة.

وتمكن الإخوة الثلاثة من حكم "العراق" و"فارس" باسم الخليفة العباسى، وقضوا على النفوذ التركى، وأقام "عماد الدولة" فى "شيراز"، وركن الدولة فى "السرى"، ومعز الدولة فى "بغداد"، ثم جاء "عضد الدولة بن ركن الدولة"، فضم إليه ملك البويهيين جميعاً،

([1]) ملامح الحياة الأدبية فى عصر الدويلات د/ جلال حجازى ص١٣.

وضم إليه "الموصل" و"بلاد الجزيرة"، وسمى بالملك، وهو أول من سمى بهذا الاسم فى الإسلام، وكان يقيم أحياناً فى "شيراز"، وأحياناً فى "السرى"، فلما فتح "العراق" كانت عاصمة ملكه "بغداد"[1].
يقول عنه الدكتور/ شوقى ضيف: "وعضد الدولة هو أعظم ملوك بنى بويه، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أسرته ، وهو أول من خطب له، فيما يقال على منابر "بغداد" بعد الخلفاء، وأول من لقب بـ "شاهنشاه"، أى (ملك الملوك) فى الإسلام وأصبح البويهيون بعد يلقبونه بهذا اللقب، وكان ذا قسوة شديدة، ومما يصور ذلك رميه باب يقيه الوزير تحت أرجل الفيلة، فقتلته بأرجلها شر قتلة، وقد قضى على لصوص الطريق قضاء مبرماً، وأعاد الأمن إلى نصابه فى صحراء "كرمان" وصحراء "جزيرة العرب" ورفع عن قوافل الحجاج الجباية، واحتفر لهم الآبار فى سُبلهم إلى "مكة"، وأدار على مدينة الرسول ق سوراً حصيناً، وأمر بعمارة منازل "بغداد" وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد وعنى بالبساتين، فامتلأت خرابات "بغداد" بالزهر والخضرة[2].

الأدب فى ظلال البويهيين :

تُعدّ الدولة البويهية من أقوى الدول التى انفصلت عن الدولة العباسية وأقواها أدباً وأكثر علماء ورجالاً، ففى ظلال هذه الدولة حلّق الأدب فى سماء عالية، وأصبحت له المكانة العليا، والمنزلة العظمى فى عهدهم، مما يندر أن نجد مثيلاً لهذا العصر على مر الزمان، فقد أخرج لنا علماؤه وأدباؤه وفلاسفته الدرر التى شعت أضواؤها، فبددت ما كان هناك من ظلام .
أقبل البويهيون على الأدب العربى يدرسونه، ويتذوقونه، ويدفعونه للناس على لسان الشعراء الذين أغدقوا عليهم الكثير من الصِّلات، حتى أصبحت "العراق" و"بغداد" و"السرى"، و"البصرة" من أشهر

([1]) تاريخ الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر – د/ أحمد أحمد منصور نفادى ص٥٥ .

([2]) عصر الدول والإمارات الجزيرة العربية – العراق – إيران ص٢٣٤ .

البلدان فى العلم والأدب، والحديث والتاريخ، وقد زار "المقدسى" إقليم "العراق" فى عهد بنى بويه، وقال فى إثر رحلته : "وإن إقليم العراق إقليم الظرفاء، ومنبع العلماء، أخرج "أبا حنيفة" فقيه العلماء، و"سفيان" سيد القراء، ومنه كان "أبو عبيدة" و"الفراء" ...إلخ.
وإذا تتبعنا ما قاله رجال هذه الدولة من الشعراء، خرجنا بالكثير كما أشار إلى ذلك "الثعالبى" فى الجزء الثانى من اليتيمة.
وكان "عضد الدولة" مشاركاً فى عدة فنون من الأدب، كما عنى بهذه الناحية أشد العناية، فقرب إليه العلماء والكتَّاب، وأحسن وفادتهم، فقصده فحول الشعراء فى عصره "كالمتنبى"، و"السلامى" وغيرهما، وكان مجلسه لا يخلو من العلماء والأدباء، يباسطهم ويباحثهم، كما كان "تاج الدولة بن عضد الدولة" من أكثر "آل بويه" أدباً، وعلماً وشعراً[1].
و"ابن العميد" الأديب المعروف كان وزيراً لـ "ركن الدولة"، و"ابن عباد" كان كاتباً عند "ابن العميد"، ولأجل تلمذته لـ "ابن العميد" وصحبته له سُمّى بالصاحب، وظل "الصاحب" يكتب لـ "ابن العميد" فى "السرى" ثم اختاره "ابن العميد" ليكون مربياً لـ "مؤيد الدولة بن ركن الدولة"، وولى عهده، وكان إقامته فى "أصفهان"، ثم اصبح وزيراً لـ "مؤيد الدولة".. وكان "ابن العميد"إلى جانب علمه الغزير فيلسوفاً
وقد قصده "المتنبى" وقال فيه :

من مبلغ الأعرابى أنى بعدهم ∴ شاهدت أرسطاليس والإسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتبه ∴ متملكاً متبدياً متحضرا

([1]) دراسات فى الأدب العباسى ص٨٨ وما بعدها – بتصرف – د/ عيد قناوى.

ولقيت كل الفاضلين كأنما ∴ رد الإله نفوسهم والأعصرا

والصاحب "ابن عباد" كان متبحراً فى العلوم الشرعية، واللسانية، والأدبية... ومن أشهر شعراء هذه الدولة "ابن نباتة السعدى"، والقاضى"على بن عبد العزيز الجرجانى" ومن أشهر أدبائها "أبو حيان التوحيدى.

الدولة السلجوقية :
السلاجقة : شعبة من الأتراك الغز ، الذين أخذوا يغيرون بقيادة راعيهم "سلجوق" على حدود "إيران" الشمالية والشرقية.
وقد اعتنق "سلجوق" الإسلام السنى، وكذلك قبيلته، وقد دعاهم السلطان "محمود القزوينى" إلى الإقامة فى الأقاليم المحيطة ببخارى، ولكنه توجّس منهم خيفة، ولذلك أمر بالقبض على "إسرائيل بن سلجوق" وحبسه حتى الموت، وبعد أن توفى "محمود" فكر السلاجقة فى الثأر ، فانقضُّوا على "بخارى"، وهزموا جيوش "مسعود بن محمود"، وأعلن "طغرلبك" ملكاً على "خراسان" سنة ٤٣٠هـ، ودانت له "مرو"، و"نيسابور"، وبعد أن توفى "مسعود" سنة ٤٣٢هـ تمكنوا من الاستيلاء على بقية "خراسان"، و"طبرستان"،و"سجستان" وأخذ "طغرلبك" يولى أبناء أسرته وأقاربه على البلاد، واتّخذ الرى حاضرة له، واستنجد به الخليفة "القائم بأمر الله" أن يضبط له "بغداد"، فدخلها سنة ٤٤٧هـ.
وخلع عليه الخليفة خلفاً سنية، وأجلسه على العرش إلى جواره، وألبسه حُلَّة فاخرة، و"طغرلبك" هو أول ملوك الدولة السلجوقية، وكان شجاعاً مقداماً ، كريماً حليماً حريصاً على أداء واجباته الدينية، ومات سنة ٤٥٥هـ، فخلفه ابن أخيه "ألب أرسلان" ولقب بـ "الملك العادل"، ويقال: إنه أول من لقب بالسلطان من بنى سلجوق، وذكر على منابر بغداد، وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً، واستولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق، وقاد

حملات ضد دولة الروم الشرقية، وأسر إمبراطورها "رومانوس" سنة ٤٦٢ هـ، ودمّر فى هذه الموقعة الجيش الرومى تدميراً.
ووزيره "نظام الملك" كان حصيفاً، وسياسياً حكيماً، محباً للعلم، وقد بعث فى دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفه باسم "المدارس النظامية"، واستقدم لها العلماء وفى مقدمتهم "أبو إسحاق الشيرازى"، و"الغزالى"، وغيرهما من كبار العلماء، وخلف "ألب أرسلان" حين توفى سنة ٤٦٥ هـ "ملكشاه" ابنه، وقد ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين، فامتدت مملكته، واشتملت على جميع بلاد ما وراء النهر، و"إيران" و"العراق"، و"بلاد الروم"، و"الجزيرة"، و"الشام"، وكان من أحسن الملوك سيرة، وكذلك وزيره "نظام الملك".
وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات، وتوفى ببغداد سنة ٤٨٥ هـ وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام.
وخلفه ابنه "مركياروم"، وكان أخوه السلطان "سنجر" نائبه على "خراسان". وأخيراً ضعف البيت السلجوقى بعد انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت "ملك شاه" فقد تولى صغار أبنائهم عرش الدولة؛ مما أدى إلى ضياعها، وذلك حين تدافقت جيوش التتار إلى البلاد بقيادة "هولاكو" الذى اجتاح "الموصل"، وهاجم "بغداد"، وأصبحت "العراق" فى حوزة التتار.

أ-ظهور الآداب القومية ومدى تميزها فى الأقاليم المختلفة :

فى ظلال هذه الدول ، وبتشجيعها نشأت الآداب القومية، التى تمثل حياة الأمة التى نبع من ضميرها هذا الأدب، ويصور كل منها : الحياة فى الإقليم الذى نشأ منه ويعيش فيه، ويتأثر به بتاريخ الأمة وبيئتها، وما يرى فى مواطنها من مشاهد ومناظر، وأخلاق وعادات، وعلوم وثقافات، وقد نشأت الآداب القومية بعد انقسام الدولة العباسية إلى دويلات؛ لأن الأدباء فى كل إقليم صرفوا هممهم إلى مدح أمرائهم، ووصف بيئتهم والتحدث عما حولهم، مما كان سبباً فى ظهور هذه الآداب الخاصة بكل إقليم، والتى سُمّيت باسم "الآداب القومية".

وهذه الآداب القومية التى نشأت فى أقاليم الخلافة لم تتباعد كثيراً؛ لاتحاد ممالك الخلافة فى الدين، واللغة، والثقافة، والأخلاق، ولكثرة الهجرات والرحلات بينها ولاتّخاذ مصادر الثقافة فيها، وقد ذكر "الثعالبى" فى "يتيمة الدهر"أن "الصاحب" حين إقامته ببلاد "فارس" كان معجباً بأدب أهل الشام، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ويستملى الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من بدائعهم، وطرائفهم، وجمع له من ذلك دفتراً ضخم الحجم لا يفارقه، ولا يمل مطالعته، وكان لذلك آثار واضحة فى محاضراته، وفى أدبه :شعره، ونثره.

ويروى "ياقوت" فى "معجم الأدباء" أن "الصاحب بن عباد" سأل رجلاً طرأ عليه من الشام عن الرسائل التى يتدارسها الناس فى بلاده ، فأجابه: إنها رسائل "ابن عيدكان" ورسائل "الصابئ"، والأول من كتاب "ديوان القاهرة"، والثانى من كتاب "الديوان" ببغداد ويروى "ياقوت" أيضاً أن "ابن خيران"- وهو من كتَّاب "مصر" فى زمن الفاطميين أرسل بمجموع رسائله إلى "بغداد"، ليعرضها على "الشريف المرتضى" كى يودعه فى دار العلم هناك لمن يريد مطالعته من الأدباء.

وقد ارتقى الأدب القومى فى "مصر" بعد الانقسام، وكسر استخدامه فى وصف البيئة المصرية، ومناظر البلاد الطبيعية، ونيلها ومزاراتها، وخيراتها، وآثارها ، وفى مدح الخلفاء الفاطميين، والإشادة بهم، وبدعوتهم.

وفى الشام فى عهد "الحمدانيين" ظهر الأدب القومى، وأخذ يصف بيئة الشام ومناظرها، وجبالها، وثلوجها، وجداولها، وفاكهتها، وينطق بمدح أمراء "بنى حمدان" والإشادة بكرمهم، وشجاعتهم، وأدبهم خاصة "سيف الدولة"، ويصف الحروب التى كانت تنشب بين "سيف الدولة" و"الروم"، محرضاً على خوض غمارها، واستخلاص المدن والأسرى من أيدى الأعداء، كما كثر فى الفخر والحكمة والفلسفة، ونشأ كذلك أدب قومى فى "فارس"، و"العراق" فى ظلال البويهيين والسلجوقيين،

أكثر من وصف البيئة والتحدث عن التاريخ، وأغرق فى مدح الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء، كما أكثر من الفخر والحكمة والفلسفة.

ب – الحياة الاجتماعية وأثرها فى الأدب:

الأدب دائماً صورة المجتمع، نرى فيه كل ملامح هذا المجتمع، من غنى أو فقر ونعيم أو شقاء، كما نرى عادات هذا المجتمع وتقاليده، وأنماط معيشته من خلال ما خلفه لنا من أدب.

ولقد كانت حياة المجتمع الإسلامى فى عصر الدويلات معقدة الملامح، متشابكة الاتجاهات، متفاوتة الطبقات، مختلفة الأجناس واللهجات.

فقد كان المجتمع فى "بغداد"، و"العراق" يتألف من ثلاث طبقات: طبقة أرستقراطية على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم، ويتلوها حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين، ويدخل فى هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصنّاع والقضاة والعلماء ورجال الحسبة، وطبقة دنيا هى طبقة العامة من الزرَّاع، والخدم، والرقيق، وأصحاب الحرف ويسلك أهل الذمة فى الطبقتين الأخيرتين عادة، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث فى عهد عضد الدولة.

وكانت الطبقة الأولى تعيش فى رخاء ، بل ترف ؛ لكثرة ما كان يصبُّ فى حجورها من أموال عن طريق الضرائب المتعددة.

وكانت نساء الخلفاء وجواريهم يبالغن فى زينتهن، كما بالغ الخلفاء فى بناء القصور وعمارتها، وتحولت قصورهم إلى ترف ما بعده ترف.

وإذا كان الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة، فقد كان يتنفسها معهم الوزراء والسلاطين والأمراء، وبدون ريب كان يعيش

هذه العيشة المترفة التى لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد، ورؤساء الدواوين والإقطاعيين، وكبار التجار والموظفين[١].
ومن مظاهر الرفاهية كثرة المغنيات فى مجالس السلاطين، والخلفاء، والثراة، وعِلْية القوم.
ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعيم الطبقة الأرستقراطية، والمظلومون – أى الطبقة الوسطى – كانت تنعم به بعض الشئ ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعموا به فى الأعياد العامة.
ومن المحقق أن العامة كانت تعانى كثيراً من الضنك، والضيق لكثرة الضرائب التى كانت تُجْبَى منها، وقلة ما كان عليها من الكسب، وكان الرقيق كثيراً كثرة مفرطة، وكان من أجناس مختلفة، فمنه الإفريقى، ومنه التركى الآسيوى، ومنه الأوربى، وكانت له سوق رائجة فى "بغداد" من قديم... وكانت الجارية المغنية تباع بأغلى الأثمان... واشتهر كثيرات من الجوارى باللطف، والظرف، والبديهة الحاضرة، ونظم الشعر، وحب الأزهار، ونقش الأبيات الرقيقة على الأردية والأكمام، والعصائب والمناديل، وكان لذلك تأثير فى رقى الأذواق ببغداد.
وأدى انتشار مجالس الخمر إلى كثرة وصفها على ألسنة الشعراء، وبخاصة الماجنين وعلى رأسهم "أبو حجاج"، و"ابن سكرة".
وكانت لهذه الحياة الاجتماعية صداها فى أدب هذا العصر : شعره ونثره، ويضيق المقام عن ذكر كل ما صوّره الأدب لملامح الحياة الاجتماعية،

---

(١) عصر الدول والإمارات – الجزيرة العربية – العراق – إيران ص٢٥١ : ٢٥٦ بتصرف.

ولذا سنكتفى ببعض الأمثلة:
فهذا "عمارة اليمنى" يصور مظاهر الترف فى بناء القصور والدّور فى مصر الفاطمية فيقول فى دار "طلائع بن رزيك" الوزير الفاطمى:

فمثل داراً شيدتها همة ∴ يغدو العسير ببابها متيسرا

جملتها وتجملت مصر بها ∴ لما علت بك عزة وتكبرا

لم يبد فيه الروض إلا ∴ والنخل والرمان إلا مثمرا مزهرا

ويصور "عبد الوهاب المالكى" الشاعر الفقيه ضيق ذات يده، وقلة ما عنده- على الرغم من هذا الترف الذى كان ينعم به الخلفاء ومن والاهم، فيقول:

سلام على بغداد فى كل ∴ وحق لها منى سلام مضاعف موطن

فوالله ما فارقتها على قلى لها ∴ وإنى بشطى جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علىّ بأسرها ∴ ولم تكن الأرزاق فيها تناعف

ويصور "الشريف الرضى" حبه للجوارى السوداوات، ويدافع عن لون السواد فيقول:

أحبك يا لون الشباب فأننى ∴ لأيتكما فى العين والقلب توأما

سوديون القلب لو كان رفعة ∴ بجبهته أوشتى فى وجهه فما

سكنت سواد القلب ذا كنت مثله ∴ فلم أدر من عز من القلب منكما

وما كان سهم العين لولا سواده ∴ ليبلغ حبات القلوب إذا رمى

وقال "السرى الرفاء" فى وصف القصور والمنازل:

مجلس فى فناء دجلة يرتاز ∴ إليه الخليع والمستور

طائر فى الهواء فالبرق يسرى ∴ دون أعلاه والحمام يطير

فإذا الغيم سار سيل منه ∴ حلل دون حدره وستور

وإذا غارت الكواكب صبحا ∴ فهو الكوكب الذى لا يغور[1]

وقال يصف ضيق الرزق، وأن حرفته لم تدرّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه:

قد كانت الإبرة فيما مضى ∴ صائنة وجهى وأشعارى

فأصبح الرزق بها ضيقاً ∴ كأنه من ثقبها جارى [2]

([1]) المنتخب من أدب العرب ١٣٩/١ .

([2]) عصر الدول والإمارات – الجزيرة العربية – العراق – إيران : د/ شوقى ضيف ص٣٦٣ .

وقال "ابن رزيق" فى وصف حاله، وشكوى أيامه، وترحاله وراء الرزق، مخاطباً زوجه وباكياً على نفسه:

لا تعزليه فإن العزل يولعه ⁂ قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

فاستعملى الرفق فى تأنيه بدلاً ⁂ من عنفه فهو مضنى القلب موجعه

تأبى المطالب إلا أن تكلفه ⁂ للرزق سعياً ولكن ليس يجمعه

جـ - الحياة العقلية وأثرها فى الأدب :

لقد استمرّت الحركة العلمية ناشطة فى أوائل العصر، وقبل الغزو التّترى بقياة "هولاكو" الذى اجتاح "بغداد"، وحاول طمث الحياة العلمية بإلقاء الكتب فى النهر وعبورهم عليها بخيولهم، حتى تغيَّر لون الماء من كثرة الكتب الملقاة فى الماء، وهكذا شأن الاستعمار فى كل زمان ومكان.

فقد كان هناك نظام "الكتاتيب"، يتعلّم فيه الصِّبية القرآن الكريم، والشّعروالحساب وكان الصّبية يتحوّلون إلى المساجد حيث تغصّ المساجد يومذاك بحلقات العلماء، والأدباء فقد كانت المساجد جامعة تشبه جامعاتنا الحالية فى نشر العلم، ومنذ القرن الرّابع الهجرى ظهرت بجانب المساجد دُور للعلم، وتلحق بها مكتبات ضخمة، مثل "دار العلم" التى أسّسها الوزير "سَابُورين" سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة للهجرة (٣٨٣هـ) بمدينة "الكرخ" وتقع غربىّ "العراق"، ووقفها على العلماء، واشترى لها كتباً كثيرة.

وحين حُلقت لها الدولة "السّلجوقيّة" دولة "بنى بُويه"، وأصبح الوزير "نظام الملك" ومدير الحكم فى زمن "ألب أرسلان" السّلجوقىّ، فقد عُنى ببناء المدارس فى "العراق" و"إيران"، وكان

لازدهار العلوم، والفنون أثر كبير فى نشاط "الورّاقة" – يعنى باعة الكتب وكانوا يقومون مقام أصحاب المطابع فى العصر الحاضر (١).

وقد بلغت الحركة العلمية ، والفلسفية، أوْجَها فى القرن الأول من هذا العصر وهو قرن العلماء من أمثال "ابن سينا"، و"البيرونى" فى "إيران"،و"ابن الهيثم" فى "العراق" وقد ظلّت التّرجمة ناشطة فيه، وانصبّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة، وتظلّ "بغداد"، ومدن "العراق" ناشطة فى المباحث اللغوية، والنحوية والبلاغية، والنّقدية، ومن الكتب اللّغوية المهمة كتاب "التنبيهات على أغلاط الرواة" لمؤلفه "على بن حمزة البصرىّ" المتوفى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة للهجرة (٣٧٥هـ).

وقد كثرت شروح الشعر والنّثر فى هذا العصر منذ أوائله، مثل : شرح "ابن جنّى" لديوان "المتنبى"، ويعدّ "التبريزى" من أكثر شرّاح الشّعر آثاراً، ومن شروح "مقامات الحريرى" شرح "القاسم بن القاسم الواسطى"، وشرح "البكرى" النحوى شارح المتنبى"(٢).

وعلى أية حال فقد ازدادت موضوعات العلوم فى عصر الدويلات، أعنى "العصر العباسى الثانى"، حيث ظهرت علوم السّياسة والعمران، وتدبير الممالك والمنازل، وفنون الحرب، وعلم "الفلك، والطب، والحكمة" وغير ذلك (٣).

ولقد كان من آثار هذه النهضة: كثرة عدد العلماء فى كلّ علم وفنّ، كثرة مفرطة ولافتة للنّظر أهّلت هذه الكثرة فيما بعد لتأليف كتب فى التراجم، وكانت كلّ مجموعة على حِدة، فقد كانت هناك كتب "الفقهاء"، وكتب "المفسّرين"، وكتب للقرّاء، وكتب للنّحاة وكتب للأطباء، إلى غير ذلك من المؤلفات فى كلّ فنّ من الفنون، وفى شتى

---

(١) راجع عصر الدول والإمارات – للدكتور/ شوقى ضيف ص٢٧٦ ، وما بعدها بتصرف.

(٢) عصر الدول والإمارات – للدكتور/ شوقى ضيف ص٣٧٦، وما بعدها بتصرف.

(٣) محاضرات فى تاريخ الأدب العربى – للدكتور المرحوم / أحمد منصور نفادى ص٣٧١ .

ألوان المعارف، كما وصفت كتب عامّة مثل "معجم الأدباء" لـ "ياقوت الحموى"، و"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان" لـ "ابن خلّكان".

وتمضى الحركة العلمية فى نشاطها فى "العراق" إلى أن يكتسحه "قطعان المغول" وكان ذلك فى منتصف القرن السّابع الهجرى، حيث إنهم قوّضوا صَرْحها فى "بغداد" وفى غيرها[1].

وقد كان للحركة العلمية فى هذا العصر أبلغ الأثر فى ترقية الفكر والخيال والوجدان، ورقة معانى اللغة، وما استنبطه مجتهدوا المذاهب، وابتدعه علماء الكلام والفلاسفة والأطباء من أمثال "الباقلانى"، و"الغزالى"، و"الفخر الرازى"، و"الفارابى" و"ابن سينا"، و"أبى بكر الرّازى"، وما ابتدعه الشعراء من أمثال "المتنبى"، و"أبى العلاء المعرّى" فى الشّعر وما افترعه واخترعه"ابن العميد"، و"الصابئ"، و"بديع الزّمان الهمزانىّ" و"الخوارزمى"، و"الحريرى" فى الكتابة[2].

وبعد ما أخذ سلطان العرب والعربية يتراجع فى الشّرق هبّ أحفاد الأكاسرة يستردّون مُجُود أجدادهم، ويطاردون اللغة وما لها من نفوذ فى بلادهم، وطلبوا إلى الشعراء من أمثال "الفرزدق"، و"الدّقيقى" أن يحدّدوا مفاخر الأسلاف، وذلك بتأليف المنظومات القصصيّة، والأناشيد القوميّة

ومن الغريب العجيب أن ذلك الأمر تمّ لهم سريعاً، فإن "المتنبى" وهو من القرن الرّابع الهجرى يقول وقد زار شعب "بوان" من بلاد "فارس".

([1]) عصر الدول والإمارات "مرجع سابق" ص٢٨١ وما بعدها .

([2]) محاضرات فى تاريخ الأدب العربى – للدكتور المرحوم أحمد منصور نفادى ص٣٧ .

مغنى الشّعب طيباً فى المغنى ∴ بمنزلة الرّبيع من الزّما

ولكن الفتى العربىّ فيها ∴ غريب الوجه واليد واللّسان

ملاعب جِنّة لو سار فيها ∴ سليمان لَسار بترجمان

ثم اقتدى بالفُرس فى ذلك "الأتراك" و"الأكراد"، بَيْد أن اللغة العربية بقيت فى حِمَى القرآن الكريم، تدافع سيل التركية الجارف، وقد عزّ النّصير من أهلها، حتى غلب "التّتار" على "بغداد" مدينة العلم والمعرفة، ومصدر الإشعاع الثقافى يومذاك، فغلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر الغلاب بعد ما خلفت فى تلك البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقدر الأيام على محوها[1].

الحياة الرُّوحية وأثرها فى ازدهار حركة التصوف الإسلامي

تيار الزهد لم يكن من ابتداع العصر العباسى، إذ يمكن تتبع أوله إلى عهد الرسول ق وهذا يوضح لنا أن الزّهد نمط سلوكىّ إنسانىّ،، يؤدى إليه التكوين النفسى لبعض الأفراد من جهة، وتساعد عليه الظروف الاجتماعية من جهة أخرى فالناس بحكم تكوينهم النفسى منهم الانبساطى المتفتح للحياة، والْمُقْدِم عليها فى فهم ومنهم الانقباضى العازف عن الحياة، الزاهد فيها المنطوى على نفسه، ومنذ ظهور الإسلام يعد الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم، زهد فى طيبات الحياة ومتاعها، وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه وتعبده لربه، وبين السعى لرزقه،

---

(1) تاريخ الأدب العربى – للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٢٣٦ وما بعدها .

فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً، وهو يضع ثقته في الله، ويتوكل عليه حق التوكل،ولا يرى فى سعيه لكسب قُوتِه ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة.

وأخذت تتسع موجة الزهد مع العصرين: الأول والثانى العباسى، وظلت حادة فى هذا العصر، ولا شك أنها كانت أحد وأكثر اتساعاً وجمهوراً، بل جماهير من موجة اللهو والمجون

فقد كانت هذه تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة فى الأمة، أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة، وجمهور و جماهير الأمة، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله، وتذكره ليلاً ونهاراً وكان يغذى هذه الروح وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم.

لقد كثر الوعاظ والنساك الذين ينهون الناس عن ارتكاب المنكرات والمعاصى ويدفعون الناس دفعاً إلى الزهد فى الحياة ومتعها وخيراتها، وكان لهم فضل كبير فى سريان هذه الروح، كما كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل، فسيرهم تفوح دائماً بشذى الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا وملذاتها.

وقد جاء أدب الزهد فى الدنيا كثيراً فى أدب المتصوفة، كما غصَّت به مؤلفاتهم وكان حديث الزهد من مقدمات التصوف الإسلامى، وبخاصة الزهد فى الدنيا، وقد جاءت صور الزهد متعددة، وكثيرة متنوعة، نسوق طرفاً منها يمثل هذا اللون من الأدب لدى الصوفية، مما نجده لدى "ابن القيم الجوزية"، حيث يقول: "مثلت الدنيا بمنام، والعيش فيها بالحلم، والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة، والعمل فيها بالبذر، والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان، باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون منه، ومثلت بحية ناعسة الملمس حسنة اللون،

وضربتها الموت، ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم، طيب الرائحة من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد على حاجته كان فيه حتفه، ومثلت بالطعام فى المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها فحبسه قاتل أو مؤذى[١].

ومن ألوان النثر الأدبى الصوفى، وهو أدب الزهد فى الدنيا: أنه قيل لـ "رابعة القيسية العدوية": "لو كلمت رجال عشيرتك فاشتروا لك خادماً يكفيك مهمة بيتك؟ قالت "رابعة": "والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها"[٢].

ومن شعراء الزهد : "الحلّاج"، و"الشبلى"، و"ابن الفارض"، وغيرهم كثير، ونكتفى بأنموذج للحلاج.

الحـلاج

نشأته وحياته :

مولده:

ولد "أبو المغيث الحسين بن منصور محمى البيضاوى" فى قرية "الطور" فى الشمال من مدينة "شيراز" على نحو ثلاثين كيلومتراً ، فى حوالى سنة ٢٤٤هـ-٨٥٧م.

و"البيضاء": مدينة مشهورة بفارس، وهى أكبر مدينة فى كورة "اصطخر"، وسمِّيت هذه المدينة "البيضاء" – كما يقول ياقوت فى معجمه – لأنها قلعة تبين من بعيد ويرى بياضها، وكانت معسكراً للجند الإسلامى، يقصدونها فى فتح "اصطخر"، وأما اسمها بالفارسية "انسايك" البيضاء ضد السوداء فى عدة مواضع منها. مدينة مسهورة بفارس. قال "حمزة": "وكان اسمها أيام الفرس: "دراسفيد"، فعربت بالمعنى".

([١]) عدة الصابرين : لابن القيم الجوزية ص٣١٦ .

([٢]) البيان والتبيين : للجاحظ ١٢٧/٣ .

وقال "الاصطخرى": "البيضاء أكبر مدينة فى كورة "اصطخر"، وإنما سميت البيضاء؛ لأنها قلعة تتبين من بُعد، ويُرى بياضها، وكانت معسكراً للمسلمين يقصدونها فى فتح "اصطخر"، وأما اسمها بالفارسية "انسايك". من أبنائها الأعلام "سيبويه النحوى.

نسبه :

هو "الحسين بن منصور الحلاج"، ويكنى "أبا مغيث"، وقيل: "أبا عبد الله"، ويلقب بـ "الحلاج"، أو حلاج الأسرار، وقد ذكر صاحب "العبر" أن كنيته هى "أبو عبد الله"[١]. أما كنيته المشهورة "أبو المغيث" أو "أبو مغيث" فهى مذكورة فى معظم المصادر التاريخية الأخرى.

ويروى "ابن خلكان" فى "وفيات الأعيان"[٢]، عن "ضمرة بن حنظلة السماك" أنه قال:

"دخل الحلاج "واسط"، وكان له شغل، فأول حانوت استقبله كان لقطان، فكلفه الحلاج السعى فى إصلاح شغله، وكان للرجل بيت مملوء قطناً، فقال له الحسين: اذهب فى إصلاح شغلى، فإني أعينك على عملك، فذهب الرجل، فلما رجع رأى كل قطنه محلوجاً، وكان أربعة وعشرين ألف رطل، فسمى من ذلك اليوم "الحلاج"، ولازمته هذه الكنية طول حياته".

وقد أورد "ابن كثير" هذه الرواية أيضاً، وأضاف رواية أخرى تقول:إن أهل الأهواز أطلقوا عليه هذه التسمية؛ لأنه كان يكاشفهم بما فى قلوبهم، فسموه "حلاج الأسرار"[٣].

ويقول المستشرق "ماسينيون": إن البقعة التى ولد فيها كانت من أعظم

([١]) العبر فى خبر من غبر – للذهبى – تحقيق: فؤاد سيد – طبعة الكويت ١٣٨/٢ وما بعدها.

([٢]) وفيات الأعيان – لابن خلّكان .

([٣]) البداية والنهاية – لابن كثير ١١٣/١١ .

مناطق النسيج فى الإمبراطورية الإسلامية، وأن والده كان من عمال النسيج، ولهذا سمى حلاجاً وهو استنساخ فكرى من "ماسينيون" لم يقم عليه دليل،ولا شاهد من التاريخ[١].

والذى أميل إليه هو التوقف فى الرأى الذى روه "ابن خلكان"؛ إذ أن ذلك ليس فى مقدور البشر، بينما أطمئن إلى رأى "ابن كثير" من أن إطلاق كنية "الحلاج" عليه إنما جاء من مكاشفته للناس بما فى قلوبهم، خاصة أن كراماته تعددت ألوانها، واختلفت صورها فكان يُخرج للناس فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف، وكان يخرج من جيبه دراهم مكتوب عليها:"قل هو الله أحد"، وكان يسميها "دراهم القدرة"، مما ساعد على ذيوع صيته، وغلبة هذه التسمية عليه، وهى "الحلاج".

وتُقَدِّم لنا دائرة المعارف الإسلامية روايتين متناقضتين عن نسبه:

- فالرواية الأولى: تصعد به إلى أبى أيوب الأنصارى، الصحابى الجليل، وبذلك تجعله عربياً خالصاً.

- وتقول الرواية الثانية: إنه حفيد مجوسى من أبناء فارس، يُدعَى "محمياً".

نشأته :

نشأ الحلاج بواسط، وصحب "الجنيد"، و"النورى"، و"عمرو بن عثمان المكى"، وفى مختصر "ابن الوردى" أنه قال[٢]: "قدِم "الحلاج" من "خراسان" إلى "العراق"، ثم إلى "مكة" وأقام سنة الحجر لا يستظل بسقف، يصوم الدهر، ويفطر على ماء وثلاث عضات من قرص، ثم قدم "بغدد" متزهداً متصوفاً، يخرج للناس فاكهة الشتاء فى الصيف وبالعكس، ويمد يده فى الهواء ويعيدها

---

(١) الحلاج – لطه سرور – طبعة أولى – القاهرة – سنة ١٩٦١م ص١٧٦ .

(٢) ترجمة الأولياء فى الموصل الحدباء – لأحمد بن الخياط الموصلى – حققه ونشره : سعيد الديوه – حى مدير متحف الموصل – مطبعة الجمهورية – الموصل – سنة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م وما بعدها .

مملوءة دراهم أحدية يسميها "دراهم القدرة"، ويخبر الناس بما أكلوه وما صنعوه فى بيوتهم، وبما فى ضمائرهم فاعتقد القوم فيه الحلول – وحاشاه عن ذلك.
ويقول المستشرق "ماسينون"[١]: "اختار الحلاج "سهلاً التسترى" على عجل ليقرأ عليه ويتعلم التصوف على يديه، وتركه وهو فى العشرين، وارتحل إلى "البصرة"، حيث كان الموالى الحارثية فى "البيضاء" قد تحالفوا مع "بنى المهلب الأرزديين"، وذلك ليلتقى فيه الخرقة الصوفية من يد "عمرو المكى"، وفى الوقت نفسه الذى ارتدى فيه الخرقة تزوج بـ "أم الحسين بنت أبى يعقوب الأقطع البصرى"، ولم يتزوج بغيرها، واستمر زواجهما موفقاً حتى النهاية، فأنجبا ثلاثة أولاد وبنتاً واحدةً على الأقل، وكان يكفل لهؤلاء معاشهم بفضل صهره وهو "كرنبائى"، وهذا الزواج الذى أثار غيرة "عمرو المكى" – جعل "الحلاج" يقيم فى البصرة فى "حى تميم"، من قبيلة "بنى مجاشع"، التى كان "الكرنبائيون" من مواليهم، كما كانوا سياسياً حلفاء للفتنة الزيدية التى أثارها "الزنج"، وكان العهد عهد حروب الأرقاء الذين تأثروا بعض التأثر بالبدعة الشيعية المغلية.
ويظهر أن دخوله فى هذه القبيلة كان هو الأصل فيما اشتهر عنه دائماً بأنه نزَّاع إلى الثورة، ومن هنا كان القبض عليه للمرة الأولى.
والحق أن "الحلاج" قد احتفظ من هذه المعاشرة لتلك القبيلة بتغيرات ذوات مظهر شيعى فى دفاعه عن مذهبه، ودعوته، بيد أنه استمر يعيش فى "البصرة" بين أسرته عيش الزاهد المتحمس ذى النزعة السنية دائماً، فكان يصوم رمضان كله دائماً، وكان فى يوم عيد الفطر يلبس السواد، ويقول: "هذا لباس من يرد عليه عمله"، وهو موقف نفسى غريب ونوع من الدلال فى الخشوع لله،ولما أن استمرت الخصومة بين شيخه، وصهره "الأقطع" وقد صبر عليها مدة طويلة؛ اتباعاً لنصيحة "الجنيد" الصوفى المشهور، وكان "الحلاج" قد ذهب

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام لماسينيون – ترجمة : د/ عبد الرحمن بدوى ص٦٣ وما بعدها.

لاستشارته فى "بغداد"، فأعنته الإمرة، فارتحل إلى "مكة"، ويلوح أن هذا الرجل كان فى الوقت الذى أخمدت فيه فتنة الزنج، وقضى عليها نهائياً، مما أكد عند "الحلاج" هذا اليقين – وهو أن وحدة الأمة الإسلامية لا يمكن أن تتم عن طريق الحرب الدنيوية، لكن عن طريق الصلوات، والتضحيات فى حياة الزهد والمجاهدة – فوصل إلى مكة لأداء فريضة الحج لأول مرة .. هناك نذر نفسه للبقاء عاماً للعمرة فى حرم البيت العتيق، وهو فى حالة صوم، وصمت دائمين، اقتداء بـ "مريم" التى فعلت هذا – حسبما يقوله القرآن – استعداداً لميلاد كلمة الله فيها .. وهذا سهم مريش، يحاول تسديده ماكر خبيث هو المستشرق "ماسينيون"إلى نحو المتصوفة المسلمين عامة، وللحلاج على وجه الخصوص.

فعلى عادة المستشرقين ومن نسج على منوالهم من تلامذة الاستشراق فى "مصر" وفى غيرها جعل الأتباع يرددون كالببغاء ما يقوله أسيادهم – وهم أهل الفكر الصائب من وجهة – ومن هؤلاء الأسياد "ماسينيون"، الذى عمل حثيثاً على أن يدس السم فى العسل وحاول ما استطاع أن يجعل زهد "الحلاج" وصومه، واعتكافه بالبيت العتيق، إنما كان على نمط "مريم البتول" – عليها وعلى ابنها السلام – وواضح أن يريد نسبة التصوف الإسلامى إلى الرهبنة المسيحية عن طريق غير مباشر، مستشراً وراء القرآن قائلاً حسبما يقوله القرآن ولم لا يكون فعل "الحلاج" هذا اقتداء بالأسوة الحسنة، والنبى العظيم سيدنا محمد **ق** فى زهده وتقشفه، واعتكافه فى العشر الأواخر من رمضان بعيداً عن ضوضاء الناس، وعجيج الكون، وتلك سُنّة محمدية، وشريعة إسلامية ما تزال قائمة بين المسلمين إلى اليوم وحتى تقوم الساعة.

إنه يريد أن يقول : إن التصوف الإسلامى مرجعه إلى المسيحية،وإنه لكذب وافتراء واختلاق من عند نفسه، فالتصوف إسلامى لحمة ودماً،أما الرهبنة المسيحية فالإسلام لا يعترف بها، ومن ثم يقول **ق**: "لا رهبانية فى الإسلام"، فالرهبانية قسوة وتطرف، والتصوف

الإسلامى دين ودنيا ولم يقل إن "الحلاج" استمد ذلك من دعوة القرآن للزهد فى الدنيا، والإعراض عن بهرجها الكذاب، وزخرفها الباطل، وزينتها الزائلة، وسرابها الخادع.

وما أكثر هؤلاء الذين يريدون للتصوف الإسلامى أن يكون امتداداً للرهبنة المسيحية ولكن دعاواهم تتحطم على صخرة التصوف الإسلامى الشامخة الثابتة كالطود العظيم.

ولما عاد "الحلاج" من "مكة" إلى "الأهواز" بدأ الوعظ فى الناس، مما أثار حفيظة الصوفية عليه، فنبذ خرقة الصوفية كيما يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا خاصة الكتاب، ورجال الأعمال وهم جمهور مثقف، غير كليل الحد ومبال للشوك.

وبعض هؤلاء – سنيون من أصل آرامى، أو إيرانى، أو نصارى دخلوا الإسلام وتخرجوا فى المدارس النسطورية بدير "قنا"، وتقلدوا مناصب الوزارة فى بغداد، وقد أصبحوا من أنصار "الحلاج"، وبعضهم كان من المعتزلة والشيعة، وهؤلاء الأخيرون كانوا من كبار موظفى الخراج – "كابن الفرات"، و"ابن نوبخت وقد أثاروا شغب العامة ضد "الحلاج"، واتهموه بالشعوذة والاحتيال بالمعجزات الزائفة، كتوزيع الأغذية والدراهم على الفقراء.

ثم استأنف "الحلاج" أسفاره، فقام ثانية برحلة كبرى أبعد من الأولى إلى بلاد الهند حيث "المانوية"، و"البوذية" بالتركستان، فوصلها بطريق البحر، وصعد فى "نهر السند" وذلهب من ملتان إلى "كشمير"، ومضى فى طريقه صاعداً ناحية الشمال الشرقى، حتى طرفا "ماسين" مع القوافل الأهوازية، التى كانت تحمل إلى تلك الأصقاع الديباج المنسوج فى طراز "تستر" وتعود منها إلى بغداد بالورق الصينى الجميل، المعروف بورق "ساسور" الذى سيطر عليه تلاميذ "الحلاج" فى مؤلفاته.

من هناك عاد إلى مكة حاجاً للمرة الثالثة والأخيرة، ولما قفل عائداً من مكة إلى "بغداد"، أقام فى بيته كعبة مصغَّرة، وفى الليل كان يصلى عند القبور، خاصة "قبر ابن حنبل"، وفى النهار يظل يلقى على قارعة الطريق فى العاصمة بالأقوال الغريبة وفى سنة ٢٩٦هـ٩٠٨م انفجرت مؤامرة إصلاحية دبرها أهل السُّنة، واتهم فيها "الحلاج" بالتواطؤ وأمر بالقبض عليه فنجا "الحلاج" و"الكرنبائى"، وذهبا ليختفيان فى بلدة "سوس" بالأهواز وهى مدينة حنبلية، وبعد ثلاث سنوات من تفتيشات الشرطة عنه بقيادة أحد الخونة وبتعضيد أحد السُّنيين الكارهين له، وهو "حامد" عامل "واسط" قُبض على "الحلاج"، وجئ به إلى بغداد" حيث ابتدأت قضيته النهائية التى استمرت تسع سنوات، وهى المحنة الحاسمة فى تاريخ رسالته [١]، ويقول صاحب "روضات الجنات": "إنه كان يتردد على بلاد خراسان" وما وراء النهر و"سجستان" و"فارس"، ويظهر لهم الدعوة وكان يدعى عندهم بـ "أبى عبد الله" الزاهد، ثم لما رجع إلى "الأهواز" نطقوا عنه بـ "حلاج الأسرار"؛ لكثرة ما كان يخبر عن ضمائرهم، إلى أن أصبح لفظ "الحلاج" لقباً على التدريج"[٢].

وقد روى محقق ديوان "الحلاج" بعض ما يتعلق بنشأته وأسفاره، ورحلاته فقال:

"نزلت الحلاج "واسط" فى حقبة كانت تغلى بالحروب الداخلية، ثم قصد هو إلى "تستر"، وهى "شوستر" الإيرانية على نهر "كارون"؛ ليحب "سهل بن عبد الله التسترى" أحد كبار الصوفية فى القرن الثالث الهجرى (ت: ٢٨٣هـ-٨٩٦م)، وتنقل "الحلاج" بين شيوخ التصوف المزامنين له حتى وصل إلى "بغداد"، ليأخذ عن "الجنيد" البغدادى شيخ الطائفة الصوفية لأيامه (ت: ٢٩٨هـ-٩١٠ – ١١م) لكن

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام لماسينيون – ترجمة : د/ عبد الرحمن بدوى – ص٧١ ، ٧٢ بتصرف.

(٢) روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات – مخطوط بدار الكتب المصرية.

هذا لم يقبله قبولاً حسناً؛ لثقة "الحلاج" المفرطة بنفسه، ومبالغته فى ممارسة الرياضات النفسية والجسدية.
ثم قصد "الحلاج" مكة حاجاً، ثم عاد منها إلى "الأهواز" بالقرب من موطنه القديم واعظاً، فلم ينجح النجاح المطلوب، وجعل يتنقل بين "خراسان" و"فارس" و"العراق" ليُلقى عصا الترحال فى "بغداد".
لكنه رحل عنها ثانية بعد أترك أسرته فيها حاجاً للمرة الثانية، ولم يعد إليها مباشرة بل قصد إلى الهند والصين فى رحلة طويلة، جدد فيها أفكاره الصوفية، وراض نفسه على التصوف الهندى، ثم عاد إلى "بغداد" ليستقر فيها ابتداء من نحو سنة ٢٩١هـ-٩٠٣م، وله من العمر ست وأربعون سنة"[١].
ولنترك أقرب الناس جميعاً إلى "الحلاج" يقصّ علينا تاريخه وحياته، وتنقلاته إلا وهو "أحمد بن الحسين بن منصور" ابن الحلاج، حيث يقول:
"مولد والدى "الحسين بن منصور" بالبيضاء، فى موضع يقال له "الطور"، ونشأ بـ "تستر"، وتتلمذ لـ "سهل بن عبد الله التسترى" سنتين، ثم صعد إلى "بغداد"، وكان فى بعض الأوقات يلبس المسوح، وفى بعضها يمشى بخرقتين مصبغتين، ويلبس فى أحيان أخرى الدراعة والعمامة، ويمشى بالقباء أيضاً على زى "الجنيد"، وأول ما سافر من "تستر" إلى "البصرة"، كان له ثمانى عشرة سنة، ثم خرج بخرقتين إلى "عمرو بن عثمان المكى" وإلى "الجنيد بن محمد"، وأقام مع "عمرو المكى" ثمانية عشر شهراً، ثم تزوج بوالدتى "أم حسين بنت أبى يعقوب الأقطع"، ولم يتزوج غيرها، وكان حسن المعاشرة لها، وتغير "عمرو بن عثمان المكى" من تزوجه بأمى، وجرى بينه وبين أبى يعقوب وحشة عظيمة لذلك السبب، ثم اختلف والدى إلى "الجنيد" الشيخ والأستاذ "للحلاج" المريد والتلميذ، ثم خرج إلى مكة وجاور سنة متعبداً، ورجع إلى "بغداد" مع جماعة من الفقراء الصوفية.

---

(١) مقدمة ديوان الحلاج – د/ كامل مصطفى الشيبى سنة ١٩٧٣م.

هنا أصبح "للحلاج" جماعة يلتفون حوله، ويأخذون عنه الطريقة الصوفية، فقصد "الجنيد بن محمد"، وسأله عن مسألة فلم يجبه، ونسبه إلى أنه مدّع فيما يسأله، فاستوحش وأخذ والدتى ورجع إلى "تستر"، وأقام نحواً من سنة، ووقع له عند الناس قبول عظيم حتى حسده جميع من فى وقته.

ولم يزل "عمرو بن عثمان المكى" يكتب الكتب فى بابه إلى "خوزستان"، ويتكلم فيه بالعظائم حتى جرد ورمى بثياب الصوفية ولبس قباء، وأخذ فى صحبة أبناء الدنيا، ثم خرج وغاب عنا خمس سنين، وبلغ إلى "خراسان" وما وراء النهر، ودخل إلى "سوجستان"، و"كرمان"، ثم رجع إلى "فارس" فأخذ يتكلم على الناس، ويتخذ المجلس ويدعو الخلق إلى الله، وكان يعرف بفارس "بأبى عبد الله الزاهد"، وصنف لهم تصانيف ثم صعد من "فارس" إلى "الأهواذ"، وكان يتكلم عن أسرار الناس وما فى قلوبهم، ويخبر عنها .. ثم خرج إلى "البصرة"، وأقام مدة يسيرة، وخلفنى بالأهواز عند أصحابه، وخرج ثانية إلى "مكة" ولبس المرقعة والفوطة، وخرج معه فى تلك السفرة خلق كثيرثم كثرت الأقاويل بعد روعه من هذه السفرة، فقام وحج ثالثاً وجاور سنين، ثم رجع وتغير عما كان عليه فى الأول، واقتنى العقار "ببغداد"، وبنى داراً، ودعا الناس إلى معنى لم أقف إلا على شطر منه حتى خرج عليه "محمد بن داود"، وجماعة من أهل العلم وقبحوا صورته، ووقع بينه وبين "الشبلى" وغيره من مشايخ الصوفية، فكان يقول قوم: إنه ساحر، وقوم إنه مجنون، وقوم يقولون: إنها كرامات، فاختلفت الألسنة فى أمره حتى أخذه السلطان وحبسه.

فى نهاية هذا العرض الذى تناول مسيرة الحلاج صوفياً وزاهداً، ورحَّالة دؤوباً وواعظاً ملتزماً، وسياسياً ثائراً، أميل إلى الاعتقاد بأن ما ورد فى بعض كتب التراث من طعن فى شخصية "الحلاج" قد يرجع إلى تعاطف مع أعدائه على كثرتهم من خصوم سياسيين، أو حُسَّاد صوفيين، أو فقهاء متحاملين، ولكن "الحلاج" كان صوفياً

زاهداً، عالماً ذا معارف وكرامات، شهد له بها أهل عصره، والذين زامنوه من فطاحل الصوفية "كالغزالى"، و"أبى عباس المرسى" وغيرهم.
وقال "ابن شريح" – أحد فقهاء السَّلف: "أما أنا فأراه – أى الحلاج – حافظاً للقرآن، عالماً به، ماهراً فى الفقه، عالماً بالحديث، والأخبار، والسُّنة، صائم الدَّهر، قائماً الليل، يعظ، ويبكى، ويتكلم بكلام فلا أفهمه، فلا أحكم بكفره".
وما أعدل "ابن سريج"، وما أحكمه فالحكم بالكفر لا يكون إلا بتيقن ذلك من المحكوم عليه به، وكيف يكون ذلك التيقُّن مع عدم فهم الكلام، الذى به الحكم، والحكم على الشئ فرع عن تصوُّره[1].
ذلكم هو الصوفى الذى شهد بولايته بعض الناس، ويكفِّره آخرون، لمخالفته فى الظاهر للشريعة فى بعض أقواله وأعماله، التى صدرت منه وهو فى حال الأخذ والشَّطح، وقد علَّق على ذلك هو نفسه، فقال للشيخ "على بن مردويه": "خذ من كلامى ما يبلغ إليه علمك، وما أنكره علمك فأعرض عنه،ولا تتعلَّق به فتضل عن الطريق.
وقال "لإبراهيم بن قاتك" – أحد محبِّيه:- "يا بنىَّ ، إن بعض الناس يشهدون علىّ بالكفر، وبعضهم يشهدون لى بالولاية، والذين يشهدون علىّ بالكفر أحب إلىّ، وإلى الله من الذين يُقِرُّون بالولاية"، ثم يبين ذلك فقال:"لأن الذين يشهدون لى بالولاية من حُسْن ظنِّهم بى، والذين يشهدون علىَّ بالكفر – يشهدون تعصُّباً لدينهم، ومن تعصَّبَ لدينه أَحَبُّ إلى الله ممن أحسن الظنَّ بأحد"[2].
ولا ريب أن "الحلاج" ا لم يكن صوفياً عادياً، يسيرعلى المنهاج الصوفى المقرَّر فى سائر أحواله، بل كان له أحوال خاصَّة تحوّل إليها بعامل تفكُّره الجوَّال بعمق فى صفات الله – تعالى – وآياته،

([1]) أخبار الحلاج – تقديم وتعليق: عبد الحفيظ محمد مدنى هاشم ص٥ – شركة الطباعة الفنية سنة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م ص٥.

([2]) أخبار الحلاج – تحقيق: عبد الحفيظ محمد مدنى ١٣٩٠هـ-١٩٧٠ ص٦.

وكان يرى السَّعادة فى أنّه يرى الله – تعالى – فى كلِّ شئ يراه أو يسمعه، لا يرى غيره – تعالى – فى الوجود نغماً يجرى لسانه إلا ما كان ثابتاً بقلبه، وهو الله ومدبره، فما كان يذكر سواه – جل علاه – وكان يقول:

نسمة من جنابه ∴ أوقفتنى ببابه

يا عوضى من عوضى ∴ وصحتى من مرضى

تجلى لى فأحيانى ∴ بكأس ماله ثانى

ذكرتك لا أنى نسيتك سيدى ∴ وأيسر ما فى الذكر ذكر لسان

ذكره ذكرى، وذكرى ذكره ∴ هل يكون الذاكران إلا معا[١]

ويقول :

أنا حسين الحلاج ∴ أيش تكرهون من حالى

أنا حلجت قطنى ∴ بذكر ذى الجلال

ومكانة "الحلاج" فى حبه لبانى السماوات، وداحى الأرضين مصورة سيرته وسلوكه، وفى بيانه ومنه قوله :

لقد أعجبنى الوَجْد ∴ بمن أهواه والفقد

فلا بُعْد ولا قُرب ∴ ولا وصل ولا صدّ

---

(١) أخبار الحلاج – تحقيق: عبد الحفيظ محمد مدنى ١٣٩٠هـ-١٩٧٠ ص٦ ، ٧.

ولا فوق ولا تحت ∴ ولا قَبْل ولا بَعْد

ولا عرف ولا نكر ∴ ولا يأس ولا وعد

وفاته :

يروى محقق ديوان "الحلاج" أن الدولة العباسية كانت تعانى من خطر السقوط على يد "القرامطة"، الجناح العسكرى للحركة الفاطمية الإسماعيلية،وقد ألقى القبض على "الحلاج" سنة ٣٠١هـ-٩١٣م، بعد مراقبة من الشرطة دامت سنتين بتهمة القرمطة، وشهر فى "بغداد" معلَّقاً بحبل مدة ثلاثة أيام، نصحاً له وتعزيراً، ولما أثبت التحقيق أنه كان لحسابه خيف من قتله، وثورة أنصاره ، فسجن فى دار السلطان فى بناية شُيِّدت خصِّيصاً له وسُمح للناس بزيارته فى سجنه، ففاز بإعجاب الكثيرين، وفى أثناء القحط والمجاعة، وخطر الدولة الفاطمية، وارتفاع الأسعار، وكسر السجون، وإحراق الجسور، وسقوط الوزراء وعزل الخليفة مرتين وجد الوزير "حامد بن العباس" أن قتل "الحلاج" قد يشغل الناس ويخفِّف من التوتر الاجتماعى والسياسى، ويُلقى الرُّعب فى قلوب المعارضين داخلاً وخارجاً، فقُدِّم "الحلاج" للمحاكمة بعد تحرش بأعوان الوزير، وشُكِّلت المحكمة من قاضى القضاة المالكى "أبى عمرو الحماوى" رئيساً، و"أبى جعفر البهلول" و"أبى الحسين الأشنانى" القاضيين الحنفيين "بالرصافة" و"الكرخ" من "بغداد" عضوين، ولم يحضر الجلسة أحد من الشافعية، ولا من الحنابلة الذين كانوا خصوم الدولة وأنصار "الحلاج" ، وصدر الحكم بإعدام "الحلاج"على الصورة التى نُفِّذت فى أسرى "القرامطة" وجواسيسهم، فضُرِب ألف جَلدة، ثم قُطعت أطرافه الأربعة، وضُربت عنقه، وأُحْرِقت جثته، ثم ذرى

رماده فى "دجلة"، ثم حُمِل رأسه إلى خراسان؛ لأنه كان له بها أصحاب، ثم حرقت كُتُبه وأُخِذ من الورَّاقين عهد بعدم تداولها، وطُورِد أنصاره ثلاث سنين، وقُتل عدد منهم [١].

والذى أراه من خلال هذا أن إعدام "الحلاج" كان سياسياً، والهدف من قتله تورط الدولة العباسية، والخطر الذى أحاق بها من شتى النواحى، وأحاط بها من جميع المناحى خاصة الغلاء وما فيه من بلاء.

وأما التفاف المريدين حول "الحلاج" وكثرة أنصاره ومريديه، ومن اعتنقوا مذهبه رأت الدولة أنه مصدر خطر عليها، ومنبع قلق لحكامها الذين شُغلوا بملذّاتهم، والجرى وراء شهواتهم عن مصالح الشعب، فكان ذلك سبباً فى كثرة أنصار "الحلاج" فى كل صقع وفى كل بلد نزلها، مما دفع الحُكّام لبناء مسجن خاص به.

وهناك أمر آخر يُرينا أن قتل "الحلاج" كانت دوافعه سياسية وليس غيرة على الدين أو خشية الفتنة من جرّاء ما تلفَّظ به الصوفى الزاهد "الحسين بن منصور الحلاج"، وهو فى حالة سُكر وغيبوبة من فرط الوجد، واضطرام نار الجَوَى فى أضلاعه، وتَعلّقه بالحب الإلهى، والشَّوق إلى الوصل والمشاهدة والمكاشفة، وهذا السبب هو موافقة فقهاء المالكية والأحناف دون الشافعية والحنابلة، فعدم موافقتهم على إهدار دمه وحضور جلسة الحكم إنما هو استنكار لما حلَّ به وأصابه من سجن وتعذيب.

ودليل ثالث على أن قتل "الحلاج" كان خوفاً من الخطر الذى شَكَّله على الدولة وحُكَّامها، وهو اتِّباع المنهاج الدينى، وهو ما يخشاه كلُّ سلطان يحيد عن الجادة، ويجرى وراء تحقيق أطماعه الدنيوية، والانغماس فى لذائذ الحياة ومتعها، منصرفاً عن الآخرة غير ملتزم بالمنهج السوى المستقيم – منهاج المولى تبارك وتعالى – وإلا فما الذى

---

(١) ديوان الحلاج – جمع وتحقيق: د/ كامل مصطفى الشيبى ص١٣ .

دفع هؤلاء إلى حمل رأسه – وهو غاية فى البشاعة، والتمثيل، والغلظة، وقسوة القلب فضلاً عن عدم مراعاتهم لكرامة الآدمى على وجه العموم.

إلى "خراسان" بحجة أن "الحلاج" له بها أصحاب وأنصار، إذ الغرض من ذلك هو إرهاب أتباعه ومطاردتهم حتى تتمكن الدولة من قتل أفكاره ومنهجه بعد قتله هو وحتى يعيش الحكام فى أمن وطمأنينة من "الحلاج" ومنهجه الصوفى الداعى إلى الزهادة فى الدنيا والعمل للآخرة.

والدليل على أنهم أرادوا قتل فكره، ومنهجه فى الحياة أيضاً بعد زواله هو إحراق كتبه، وأخذ تعهد على الورّاقين بعدم تداولها، وكل ذلك كان من دوافع السيطرة والحفاظ على أمن الدولة ضد الدين وأصحابه، وإلا "فالحلاج" عندما قُدِّم للمحاكمة قال لهم: "ظهرى حمى، ودمى حمى، ولى كتب لدى الورَّاقين ألفتها، فى الكتاب والسُّنة، ودينى الإسلام، واعتقادى بأن محمداً ق خاتم الأنبياء".

ومع ذلك وقَّع الفقهاء فتواهم بجواز إراقة دمه، وتلك وصمة عار فى جبين هؤلاء الفقهاء الذين أصدروا فتاواهم بجواز قتله، وإهراق دمه خاصّة بعد إعلانه أمامهم جميعاً بأن الإسلام دينه، ومحمداً – عليه الصلاة والسلام – نبيّه ورسوله.

وتروى دائرة المعارف الإسلامية أن مدة السجن التى قضاها "الحلاج" بلغت ثمانى سنوات ابتداءً من سنة ٣٠١هـ، وكان ذلك فى سجن "بغداد"، وأن محاكمته بأمر الوزير "حامد" استمرت سبعة أشهر[١]، وكانت وفاته فيما تقول "دائرة المعارف" فى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى القعدة عام ٣٠٩هـ، الموافق السادس والعشرين من مارس عام ٩١٢م، وكان ذلك فى ساحة السجن الجديد فى "بغداد" على الضفة اليمنى لنهر "دجلة" أمام "باب الطاق".

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثامن ١٧/١ .

ويقول صاحب "ميزان الاعتدال فى نقد الرجال": إن قتله كان سنة إحدى عشرة وثلاثمائة سنة ٣١١هـ[١]، والأرجح أن قتله كان سنة تسع وثلاثمائة، حيث إن الروايات التى ذكرت مقتله فى هذه السنة متواترة، أو تكاد وليست هناك رواية تذكر فى مقتله فى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة لا هذه الرواية التى ذكرها "الذهبى" فى كتابه "ميزان الاعتدال فى نقد الرجال"، ولذلك تُعدّ ضعيفة، لا يُعتدّ بها فى تاريخ وفاة "الحلاج" المجمع على وفاته فى سنة ٣٠٩هـ تسع وثلاثمائة من الهجرة النبوية.

ثقافته وفكره، ومؤلفاته :

أولاً: ثقافته :

لقد كان "الحلاج" رحب الأفق، ذا ثقافة عالية، رفعته إلى مصافّ كبار الأساتذة والمعلمين، ولعل ذلك راجع إلى تطوافه بالبلاد، ومخالطته لصفوة من العلماء، وتلمذته – قبل أن يتصدّر الوعظ والتعليم والإرشاد – على أعلام الصوفية النجباء، ومن أبرزهم "أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى"، وكان "سهل ابن عبد الله التسترى" فيما يروى صاحب الرسالة القشيرية [٢]: صاحب كرامات، ولقى "ذا النون المصرى" بمكة سنة خروجه إلى الحج، ولم يكن له فى وقته نظير فى المعاملات والورع، وقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وكان يُسأل عن دقائق الزهد، والورع، وفقه العبارة وهو ابن عشر فيحسن الإجابة.

---

(١) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال – تأليف: أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى – تحقيق: على محمد البجاوى – القسم الأول – دار إحياء الكتب العربية – عيسى الحلبى – الطبعة الأولى – ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م – ص٥٤٨ – رقم الترجمة ٢٠٥٩ .

(٢) الرسالة القشيرية – تحقيق: الإمام المرحوم عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف – دار الكتب الحديثة – القاهرة – سنة ١٩٧٢م ص١٠٤.

وقد قرأ "الحلاج" على "سهل بن عبد الله التسترى"، وتعلّم على يديه التصوّف ولكنه لم يلبث أن تركه وهو فى العشرين من عمره، وارتحل إلى البصرة حيث تزوج بنت "أبى يعقوب الأقطع" البصرى، وأنجب منها ثلاثة أبناء وبنتاً، وقد أثار هذا الزواج غيرة أستاذ آخر من أساتذة "الحلاج"، هو "عمرو بن عثمان المكى"، الذى مات ببغداد سنة ٢٩١هـ (١).

كنه التصوف:

التصوف: حركة دينية انتشرت فى العالم الإسلامى عقب اتّساع الفتوحات وازدياد الرخاء الاقتصادى؛ كردّ فعل مضادة للانغماس فى التّرف الحضارى، مما حمل بعضهم على الزهد الذى تطوّر بهم حتى صار لهم طريقة مميزة معروفة باسم "الصوفية"، إذ كانوا يتوخّون تربية النفس، والسموّ بها؛ بُغْيَة الوصول إلى معرفة الله بالكشف والمشاهدة لا عن طريق التقليد أو الاستدلال، لكنهم جنحوا فى المسار بعد ذلك، حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة(٢).

والتصوف فى حقيقته إيثار وتضحية، تضحية باللذائذ والشهوات، وإيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للآجل، مجاهدة للنفس، ومغالبة لأهوائها.

هو نزوع فطرى إلى الكمال الإنسانى، والتّسامى والمعرفة، عن طريق الكشف الرّوحى، أو العلم اليقينى الناشئَيْن عن الإلهام الإلهى، والنظر العقلى ، والرياضة النفسية، وبعض الدلائل الحسيّة (٣).

والتصوّف روح لمجموع حقائق الإسلام ، من عبادة، وإيمان، ويقين، وعرفان(٤).

---

(١) الرسالة القشيرية – تحقيق: الإمام المرحوم عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف ص١٥٠.

(٢) التصوف الإسلامى – أحمد توفيق عياد – الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.

(٣) المدخل إلى التصوف الإسلامى – تأليف: محمود أبو الفيض المنوفى ص٩ .

(٤) ذاته ص١٠ .

وهو إيثار الحق على رغبات النفس ، يقول الإمام "الجنيد": "التصوّف: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به". ويقول "معروف الكرخى": "التصوف: هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق". ويقول "أبو الحسن الشاذلى": "هو تدريب النفس على العبودية، ورَدّها لأحكام الربوبية".

وسُئل أحد الصوفية عن معنى التصوف، فقال: "التصوف معناه: أن العبد إذا تحقق بالعبودية، واتصف بشهود حقائق الربوبية صفا من كدر البشرية، فنزل منازل الحقيقة وأخذ بمكارم الشريعة، فإن فعل فهو صوفى".

والصوفى – كما يقول "السرى" :- "أحد ثلاثة: واحد لا يطفئ نور ورعه نور معرفته، وواحد لا يتكلم بباطن فى علم ينقده عليه ظاهر من الشرع، وواحد لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله"[١].

ويقول شاعر الإسلام "محمد إقبال": "إن الإسلام يأخذ عن الصوفية طابعاً من الجمال، والكمال والإنسانية العالية، والأخوة العالية لا نجده فى إسلام الفقهاء والمتكلمين"[٢].

ويقول "الطوسى" عن الصوفية: "إنهم معدن جميع المعلومات، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة، وهم مع الله – تعالى – فى الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة[٣].

ويقول الإمام "الغزالى" عن طريق الصوفية : "إنها قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله – تعالى – وتخليته بذكر الله"[٤].

([١]) الرسالة القشيرية – للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى – تحقيق: الدكتور / عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ص١٢٨ وما بعدها.

([٢]) اللمع للطوسى – مقدمة الكتاب ص٩ – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، وطه مسرور.

([٣]) ذاته ص٤٠ .

([٤]) النقذ من الضلال للغزالى.

ويقول "الجنيد": "الصوفى كالأرض يطرح عليها قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح". ويقول أيضاً: "إنها كالأرض يطأها البارّ والفاجر، وكالسّحاب يُظل كل شئ". ويقول أيضاً: "إذا رأيت الصوفى يعنى بظاهره، فاعلم أن باطنه خراب".
ويقول "الشبلى": "الصوفى منقطع عن الخلق ، متصل بالحق"[١].
وقال أيضاً: "الصوفية أطفال فى حجر الحق – سئل ذو النون المصرى عن أهل التصوف فقال: هم قوم آثروا الله – عز وجل – على كلّ شئ، فآثرهم الله – عز وجل – على كلّ شئ". وسُئل ذو النون المصرى عن الصوفى فقال: "من سمع السماع وآثر الأسباب، وهى فعل المأمورات، وترك المنهيات"[٢].

● نشأة التصوف الإسلامى وأبرز الشخصيات:

ذهب "ابن الجوزى البغدادى" (ت ٥٧٩هـ) إلى أن الصوفية نسبة إلى رجل يقال له "صوفة"، واسمه "الغوث بن مر"، ظهر فى العصر الجاهلى.
وذهب "البيرونى" قديماً و"فون هامر" حديثاً إلى أن الصوفية إنما هى اشتقاق من "سوفيا" اليونانية، والتى تعنى "الحكمة"، وهذا رأى يدعم موقف القائلين بأن التصوف الإسلامى إنما هو وليد الفلسفة الأفلاطونية.
- وقيل: الصوفية من "الصوف"، لاشتهارهم بلبسه.
- وقيل: من "الصفّة" صفّة مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم.
- وقيل: من "الصفاء".
- وقيل: من "الصف الأول".
- يقول "أبو سعيد الخراز": "الصوفى: من صفّا ربه قلبه نوراً، ومن دخل فى عين اللذة بذكر الله".

---

(١) الرسالة القشيرية – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ط٢ ص٥٥٢، ٥٥٤.

(٢) الرسالة القشيرية – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ط٢ ص٥٥٥ .

- ويقول "أبو محمد الحريرى" (ت ٣١١هـ): "التصوف: هو الدخول فى كلِّ خُلُق سَنِيّ، والخروج من كُلِّ خُلُق دَنِيّ".
- ويقول "أبو بكر الكتانى" (ت ٣٢٢هـ): "التصوف: خلق، فمن زاد عليه فى الخلق زاد عليك فى الصفاء". ويقول كذلك : "التصوف: صفاء ومشاهدة".
- ويقول "الشبلى": "التصوف: بدؤه معرفة الله، ونهايته توحيده". ويقول أيضاً: "التصوف: الجلوس مع الله بلا هم، أى ملازمة طاعة الله"[1].
- ويقول "القشيرى" صاحب "الرسالة القشيرية": "الورع: ترك الشبهات".

ومن شخصياتهم المشهورة :

- "رابعة العدوية" المتوفاة سنة ١٣٥هـ، و ١٨٠هـ، أو ١٨٥هـ، وقد جمعت بين الزهد والحب، أو ما يسمُّونه "بالعشق الإلهى"، كما أنها ساهمت فى إثراء الأدب الصوفى.
- ومنهم "إبراهيم بن أدهم" (ت ٦١٦هـ) حيث إنه ترك الملك والسلطان، وأقبل على الزهد والتصوف.
- وكذلك "سفيان الثورى" (٩٧ – ١٦١هـ) من العلماء الزهاد ، يقول: "الزهد فى الدنيا: هو قصر الأمل، وليس يأكل الخشن، ولا يلبس العباء".
- ومنهم "ذو النون المصرى" (ت ٢٤٥هـ) من مدرسة الزهد، ينحدر من أصل قبطى أو نوبى، هو أوّل من مهّد لظهور مذهب المعرفة فى التصوف، حيث يقول: "عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى".
- "أبو القاسم الجنيد" (ت٢٩٧هـ) أصله من "نهاوند"، ولد ونشأ بالعراق، وهو تلميذ "الحارس المحاسبى" ، يقول: "التصوف: هو أن

([1]) الرسالة القشيرية – تحقيق: الدكتور/ عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف ط٢ ص٥٥٤.

يميتك الحق عنك، ويحييك به". وقد سُئل عن قوم من أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات،من باب البر والتقرب إلى الله – عز وجل – فقال: "إن هذا قول قوم تكلّموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندى عظيمة، والذى يسرق ويزنى أحسن من الذى يقول هذا".

● "أبو يزيد البسطامى" (ت ٢٣٤هـ، أو ٢٦١هـ)، كان جده مجوسياً، وأبوه من أتباع زرادشت، روى بأنه ذهب إلى رجل مقصود مشهور بالزهد ، فشاهده يرمى ببصاقه تجاه القِبلة، فانصرف عنه، ولم يسلِّم عليه قائلاً: "هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ق فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه".

● "أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج": (ت ٢٤٤ – ٣٠٩هـ)، ولد بفارس حفيداً لرجل زرادشتى، ونشأ فى "واسط" بالعراق، وهو أشهر الحلوليين والاتحاديين رُمِى بالكفر، وقُتِل مصلوباً لتهم أربع وجهت إليه:

١ – لاتصاله بالقرامطة

٢ – لقوله : "أنا الحق" .

٣ – لاعتقاد أتباعه بألوهيته.

٤ – قوله فى الحج، حيث يرى بأن الحج إلى البيت الحرام ليس من الفرائض الواجب أداؤها.

فى شخصيته كثير من الغموض، فضلاً عن كونه متشدداً وعنيداً ومغالياً، له كتاب "الطواسين" الذى أخرجه وحققه "ماسينيون".

● "أبو حامد الغزالى": الملقَّب بحجة الإسلام (٤٥٠- ٥٠٥هـ)، ولد "بطوس" من إقليم "خراسان"، رحل إلى "جرجان" و"نيسابور"، ولازم "نظام الملك"، درس فى المدرسة النظامية ببغداد، واعتكف فى منارة مسجد "دمشق"، ورحل إلى القدس، ومنها إلى الحجاز، ثم عاد إلى موطنه، وقد ألَّف عدداً من الكتب، منها: "تهافت الفلاسفة" و"المنقذ من الضلال"، وأهمها "إحياء علوم الدين"، ويعد "الغزالى" رئيس مدرسة الكشف فى المعرفة، ومن جليل أعماله هدمه للفلسفة اليونانية، وكشفه لفضائح الباطنية.

• "أبو الفتوح شهاب الدين السهرودى" (٥٤٩ – ٥٨٧هـ): وُلد "بسهرود" بـ "إيران" تنقل كثيراً، صاحب مدرسة الإشراق الفلسفية، التى أساسها الجمع بين أراء مستمدة من ديانات "الفُرس" القديمة ومذاهبها فى ثنائية الوجود، وبين الفلسفة اليونانية فى صورتها الأفاطونية الحديثة، ومذهبها فى الفيض أو الظهور المستمر. وقد حوكم وقُتل بفتوى من علماء "حلب"بـ "سوريا"، من كتبه: "حكمة الإشراق"، و"هياكل النور"، و"التلويحات العرشية"، و"المقامات".

• "نجى الدين بن عربى" الملقب "الشيخ الكبير" (ت ٥٦٠ – ٦٣٨هـ): رئيس مدرسة وحدة الوجود، يعتبر نفسه خاتم الأولياء، وُلد بالأندلس، ورحل إلى "مصر" وحج، وزار "بغداد"، واستقر فى دمشق، حيث مات ودُفن، وله فيها الآن قبر يُزار، طرح نظرية الإنسان الكامل التى تقوم على أن الإنسان وحده من بين المخلوقات يمكن أن تتجلى فيه جميع الصفات الإلهية، إذا تيسر له الاستغراق فى وحدانية الله.

وله كتب كثيرة يصل بعضهم بها إلى ٤٠٠ كتاب، ورسالة ما يزال بعضها محفوظاً بمكتبة يوسف أغا بقونية، ومكتبات تركية أخرى، وأشهر كتبه "روح القدس" و"ترجمان الأشواق"، وأبرزها "الفتوحات المكية"و "نصوص الحكم".

• "أبو الحسن الشاذلى" (٥٩٣ – ٦٥٦هـ): وهو صاحب "الطريقة الشاذلية، من أقواله إننا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإتقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان.

• الأقطاب الأربعة: "عبد القادر الجيلانى"، و"أحمد الرفاعى"،و"أحمد البدوى" وإبراهيم الدسوقى.

• ومنهم الفيلسوف الفرنسى "رينيه جينو" الذى أسلم وتصوف فى أوروبا، وسمى نفسه "عبد الواحد يحيى"، وقد دافع عن الروحانية الإسلامية، مبيناً سموّ التصوف الإسلامى – على حسب رأيه – من كتبه "أزمة العالم الحديث"، و"رمزية الصليب"، و"الشرق والغرب".

وحركة الزهد والرهبنة والتبتل إلى الله – عز وجل – فى كثرة كاثرة من الأديان السماوية القديمة ، كما كانت موجودة فى الديانات الوثنية،ومن البلاد التى عرفت بذلك من قديم الزمان حتى يومنا هذا "الهند"، التى ما تزال على وثنيتها من عبادة الأبقار.

يقول "القشيرى": "أما بعد رضى الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضَّلهم على الكافّة من عباده بعد رُسله وأنبيائه – صلوات الله وسلامه عليهم – وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصّهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغيث للخلق والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق، بالحق صفّاهم من كدورات البشرية، ورفعهم إلى محالّ المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منَّه – سبحانه – لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله – تعالى – بصدق الافتقار، ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه – جل وعلا – يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد، وثوابه ابتداء فضل، وعذابه به حكم عدل وأمره قضاء (١).

ويقول "الهراودى": "اعلموا – رحمكم الله – أن شيوخ هذه الطائفة – ويعنى "الصوفية" – بنوا قواعدهم على أصول صحيحة فى التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السُّنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القم، وتحققوا بما هو نعت الوجود عن العدم، ولذلك قال سيد هذه الطريقة "الجنيد" – رحمه الله -: "التوحيد هو : "إفراد القدم من الحدث"، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد"

فالقرآن الكريم مشرع التصوف بآيته الباعثة على التقوى والآمرة

---

(١) الرسالة القشيرية .

بالإخلاص واليقين والتوكّل وحسن العبودية لله وغير ذلك، وتلك الآيات تشغل من القرآن الكريم ما يقارب نصف مجموعه، والباقى فى تشريع العبادات والمعاملات وقصص السالفين؛ لتكون عبرة وذكرى للمتذكرين، ولكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"[١].

ويذهب المستشرق "ماسينيون" إلى أن التصوف دخيل على الإسلام، فيقول: "إن علماء الإسلاميات حائرون فى السُّنة، ومِن ثَمَّ ذهب إلى أن التصوف دخيل على الإسلام بعيد عن روحه".

ولم يذكر المستشرق "ماسينيون" مَن علماء الإسلاميات الذين دار بينهم الخلاف ولو عالماً واحداً، كما أنه لم يسق دليلاً على دعواه.

أما المستشرق "ماركس" يقول: "إن التصوف الإسلامى مأخوذ من رهبانية الشام خاضع للروحانية المسيحية". وذلك منطق لم يُعرف إلا من "ماركس" وأمثاله، الحاقدين على الإسلام، والذين نراهم يردون دائماً أن الإسلام عقيدة جافة بمنأى عن الروحانية، فلما ووجهوا بالتصوف الإسلامى وما فيه من روحانيات وزهد وورع، واتصال بالملكوت الأعلى عن طريق الكشف والمشاهدة، تعالت صيحاتهم المحمومة الحقدة أن التصوف الإسلامى مقبوس من الرهبنة المسيحية.

ويذهب المستشرق "جونس" إلى أن التصوف الإسلامى وثنى؛حيث إن فلسفة اليونان وثنية، وكذلك الفلسفة الفارسية.

ويذهب "نيكلسون" إلى أن الزهّاد المسلمين – ويعنى بهم الصوفية – قد تشبهوا برهبان النصارى فى لبس الصوف. وحذى حذوه فى هذا الزعم المستشرق "ماسينيون" ويدَّعى "نيكلسون" أن التصوف الإسلامى قد تكون من تأثيرات خارجية غير إسلامية، وهى المسيحية، والأفلاطونية الحديثة، والبوذية، وأنه ليس فى القرآن أصل للتفسير الصوفى للإسلام، وأن الراقد الأصيل لحب الله عند الصوفية منتزع من المسيحية [٢].

([١]) المدخل إلى التصوف الإسلامى للمنوفى.

([٢]) ذاته ص١٧ .

وهنا يفرِّق "نيكلسون" بين حركة الزهد كحركة إسلامية خالصة، نشأت فى بيئة الإسلام الأولى، وترعرعت فى ظلاله، ولذلك لغرض فى نفس يعقوب فالتوصف بمعناه العام قديم موغل فى التاريخ، كقدم النَّزعة التى دعت إليه، وهى نزعة تصفية القلب وإخلاص العبودية لله، ولكنه لما وجد تحت ظلال الإسلام، وأحيط بآداب القرآن، دخل فى دور جديد [١].

ورَدَّ "مصطفى عبد الرازق" على "جولد زيهر" فى زعمه بأنه يجب عند النّظر فى التصوّف الإسلامىّ نظراً تاريخياً تقدير النصيب "الهندى" الذى أسهم فى تكوين هذه الطريقة الدينيّة المتولِّدة من المذهب الأفلاطونى الجديد، مما تابع فيه زميله "نيكلسون" و أنَّ "نيكلسون" على الأصحّ قد تابعه فيه [٢].

إنَّ منابع التصوّف الإسلامى هى منابع إسلاميّة صِرفة، وفى ذلك يقول الإمام "الجنيد": "مذهبنا هذا – التصوّف – مقيَّد بأصول الكتاب والسنة".ويقول: "علمنا هذا مشيّد بحديث رسول الله **ق** ". ويقول : "علمنا هذا مقيَّد بالكتاب والسُّنة وإنما هو ثمرة العلم والتقوى، فيوفّق صاحبها للخير، ويُلهَم الرُّشد، فأما أن يترك العلم ويقول: إنه يعتمد على الإلهام والخواطر، فليس هذا بشئ؛ إذ لولا العلم النّقلى ما عرفنا ما يقع فى النفس، أمن الإلهام للخير،أو الوسوسة من الشيطان، واعلم أن العلم الإلهامى الملقَى فى القلوب لا يكفى عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقليّة لا تكفى عن العلوم الشرعيّة،فإن العقليّة كالأغذية، والشرعيّة كالأدوية، ولا ينوب هذا عن هذا"[٣].

وقيل: "ما أخلص عبدٌ قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[٤].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين – للأستاذ/ محمد فريد وجدى، وأيضاً التصوف عند المستشرقين – للدكتور/ أحمد الشرباصى ص١٩ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية – مادة "تصوف" .

(٣) ذاته ص٣٢٢ .

(٤) الرسالة القشيرية – ط١ ص٩٦ .

ويقول "الشّعرانى": "التصوّف عبارة عن علم انْقَدَحَ فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسُّنة، فكلٌّ من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها"(١).

ونحن لسنا مع مذهب من يُرجِع المعانى التى تناولها الصوفيّة إلى أدب أو تصوف الفرس والهند واليونان مع القرآن والسنة والذَّوق، ولكنّا نقول: إنّ توافق الأفكار بين شاعر وشاعر، وكاتب وكاتب أكثر تبادراً إلى الذهن من محاولة إثبات الأخذ ولو صح أن صوفياً أخذ معنى حكمة قديمة وعبَّر عنها بأسلوبه فليس فى ذلك ضير؛ لأن الثقافات تتَّصل فى نفس الأديب والشاعر بشعور وبلا شعور، ولأنّ من طبيعة اختلاف العصور والثقافات أن يأخذ المتأخِّر من المتقدِّم، ونحن لا نبحث عن العوارض المشتركة بين الأدب الصوفى وغيره، وإنما نبحث عن المميزات الأصيلة له، والسِّمات الواضحة فيه (٢).

ونحن إلى هذا الرأى أميل.

نعم إن المسيحية هى دين الزّهد، ولكن الزّهد هو المعنى العام للتصوّف، لا المعنى الخاص الذى كان عليه التصوف الإسلامى، ونجد أنّ المسيحية-وهى تقول بطبيعة واحدة للمسيح-عندما تلتقى بالتَّفكير الوثنى الإغريقى والرومانى فى جامعة الإسكندرية وغيرها تعود فتقول بالتثليث؛ لأن عادة التفكير الوثنى تأليه البشر، والقول بألوهية بعض الناس كذلك نرى فكرة التثليث واضحة فى مصر القديمة "إيزيس، أوزوريس، هورس" والأفلاطونية الجديدة ليست إلا أثراً لاتِّصال الفكر الشرقى بالفكر الإغريقى فى جامعة الإسكندرية القديمة، هذا الاتِّصال الذى نشر فكرة التَّثليث فى المسيحية هو راهب

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ٤/١ ، وأيضاً الأدب الصوفى للدكتور محمود فرج ص٦٢ .

(٢) دراسات فى الأدب الصوفى – دكتور / محمد عبد المنعم خفاجى ١١٠/١ .

مصرى لم يلبس أن أصبح البابا العشرين لكنيسة الإسكندرية (٣٢٦-٣٧٣م) واسمه "أثناسيوس"(١).

وكانت "أوديسا" مركزاً للقائلين بطبيعة واحدة للمسيح، وكان النَّصارى الساميّون يحاربون التّماثيل الوثنيّة، وعقدت المؤتمرات الدينيّة للبحث فى طبيعة المسيح وإدخال الصُّور والتَماثيل، ولقد وقف المستشرقون من الإسلام نفسه موقفاً أعجب، فذهب "نيكلسون" إلى أن الإسلام بجملته وتفصيله مردود فى أصوله وفروعه إلى الرَّهبنة المسيحية.

ويذهب "جولد زيهر" إلى أن "الآرية" أعظم من "السامية"، وكذلك "رينان" الذى فَصَل بين العقليّة "الآريّة" والعقلية "الساميّة"، أى بين العقليّة الشرقيّة والأوروبيّة، ورأى أن الغرب يُبدِع والشّرق يحاول فَهْم إبداع المدركات الأوروبية.

وعلى هذا النَّمط يفكِّر "غوستاف لوبون" صاحب "حضارة العرب" الذى ابتدع للإسلام أصلاً من الأسطورية اليونانية والرهبنة المسيحية.

وعلى هذا المنهج يفكر "كايتانى" الإيطالى صاحب "حوليات الإسلام" والأب "لامنسى" البلجيكى، و"ماسينيون" الفرنسى، و"نيكلسون" الإنجليزى وسواهم.

وتترنم بعض الآداب المصرية القديمة بفكرة تمجيد الله والتَّبتُّل فى محبته وطاعته، وقد عمل "إخناتون" على نشر فكرة التوحيد، ولكنَّه أخفق وقُضِى على مذهبه بعد وفاته(٢).

ولا يصحُّ أن نسمّى ذلك تصوّفاً، ونذهب إلى أنه منبع من منابع التصوّف الإسلامىّ، وكذلك لا يصح أن نربط بين التّصوّف وبين بعض الأفكار الفارسيّة القديمة والمذاهب الهندية القديمة فى الزّهد كذلك.

---

(١) تاريخ الكنيسة المصرية – مجلة الهلال – عدد ديسمبر ١٩٢٧ .

(٢) راجع كتاب إخناتون لعبد المنعم أبو بكر – سلسلة المكتبة الثقافية.

وإذا كان الرّهبان والأحبار فى الأديرة والصوامع قد لجأوا إلى الزّهد، وعاشوا به وعليه، فإن حركتهم هذه ليست لها صلة بالتصوّف الإسلامى [1].

والسّلف من الصّوفيّة كانوا أهل عِلم وعَمَل، يقول "ابن الجوزى":

"وقد كان أوائل الصوفيّة يقرُّون بأن التَّعويل على الكتاب والسُّنة وإنما لَبَّسَ الشَّيطان عليهم لِقِلَّة علمهم"[2].

يقول "أبو يزيد": "لو نظرتم إلى رجل أُعْطِى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحِفْظ الحدود"[3].

وبإسناد عن أبى موسى يقول: "سمعت "أبا يزيد البسطامىّ" قال: "من ترك قراءة القرآن ، والتَّقشُّف، ولزوم الجماعة، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادَّعَى بهذا الشَّأن فهو مُبتدِع"[4].

وبالإسناد عن "عبد الحميد الحبلىّ" يقول: "سمعت سرياً يقول: من ادَّعى باطن علم ينقض ظاهر حكم فهو غالط"[5].

وعن "الجنيد" أنه قال: "مذهبنا هذا مقيد بالأصول "الكتاب والسُّنة".

وقال أيضاً: "علمنا منوط بالكتاب والسُّنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقَّه لا يُقتدَى به"[6].

وقال أيضاً: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسَنات؛ لأنَّ التصوُّف من

---

(1) دراسات التصوف الإسلامى ظلاله فى الأدب العربى – تأليف/ محمد عبد المنعم خفاجى – الناشر: مكتبة القاهرة ص٦٦.

(2) تلبيس إبليس – للحافظ الإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى ص١٦٨ – مكتبة الإمام – ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(3) ذاته .

(4) ذاته .

(5) ذاته .

(6) ذاته

صفاء المعاملة مع الله – سبحانه وتعالى – وأصله التفرق عن الدنيا كما قال "حارثة" عزفت نفسى فى الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى"[١].

وعن "أبى بكر الشَّفاف" : "مَنْ ضيَّع حدود الأمر والنَّهى فى الظَّاهر حُرم مشاهدة القلب فى الباطن"، وقال "الحسين النّورى" لبعض أصحابه " من رأيته يدّعى مع الله – عز وجل -حالة تخرجه عن حدّ علم الشَّرع فلا تقربنَّه ،ومن رأيته يدَّعى حالة لا يدلُّ عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتَّهمه على دينه".

وعن "الحريرى" قال: "أَمْرُنا هذا كلُّه مجموع على فضل واحد: هو أن تلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائماً".

وعن "أبى جعفر" قال : مَن لم يزن أقواله وأفعاله وأحواله بالكتاب والسُّنة، ولم يَتَّهم خاطره فلا تعدَّه فى ديوان الرجال"[٢].

وقول "ابن الجوزى" أيضاً: "وما كان المتقدِّمون فى التصوّف إلا رؤوساً فى القرآن والفقه والحديث والتفسير، ولكن هؤلاء أحبُّوا البطالة"[٣].

ولا ننكر أنه إذا طهر القلب انصبَّت عليه أنوار الهدى فينظر بنور الله إلا أنه ينبغى أن يكون تطهيره بمقتضى العلم ، لا بما ينافيه، فإنَّ الجوع الشَّديد والسَّهر وتضييع الزمان فى التخيُّلات أمور ينهى الشَّرع عنها، فلا يستفاد من صاحب الشَّرع شئ ينسب إلى ما نهى عنه، كما لا تُستباح الرّخص فى سفر قد نهى عنه، ثم لا تنافى بين العلم والرياضة بل العلم يعلم كيفية الرياضة، ويُعين على تصحيحها، وأنَّ الله – عز وجل – يُلهِم الإنسان الشئ كما قال النبىّ ق "إنّ فى الأمم محدِّثين، وإن يكن فى أمتى فعمر"[٤].

([١]) ذاته ص١٦٨ .

([٢]) ذاته

([٣]) ذاته ص٣٢٣

([٤]) ذاته ص٣٢٢

والمراد بالتحديث: إلهام الخير، إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه، وأما الخضر فقد قيل إنه نبىّ ولا يُنكَر للأنبياء الاطِّلاع بالوحى على العواقب وليس الإلهام من العلم فى شئ.

ابن الفارض:

هو الشَّاعر "شرف الدين عمر بن على" المعروف "بابن الفارض"، أشهر شعراء مصر فى عصر الدولة الأيوبية، وهو شاعر صوفى أوقف شعره على التصوّف، والعشق الإلهى وقد ورث الرُّوح الصوفيَّة عن والده، وبعد وفاة والده هاجر إلى "مكة المكرمة" ، وأقام بها خمسة عشر عاماً ، ثم عاد إلى القاهرة، وأقام بها حتى لقى الله – عز وجل – ودفن "بسفح المقطم" عن ستة وخمسين عاماً، وكان من أصحاب "المذهب الرمزى" فى شعره الذى نحا فيه منحى كبار الصوفية، وأكثر فيه من صنعة البديع، مع الإجادة والرِّقة، وطول النفس مع الاتِّكاء على مصطلحات الصوفية ورموزهم، وقد ذاع صيته واشتهر شعره بين الأدباء والشعراء والنقاد والصوفية والمستشرقين، وله ديوان شعر معروف، وقد نهض بشرحه "حسن البورينى"، وعبد الغنى النابلسى وشرحه أيضاً "رشيد بن غالب"، وكان "ابن الفارض" ورعاً زاهداً، متصوفاً ، يتحلَّى بالصَّلاح والتَّقوى، وكان النَّاس يجلّونه، وقدَّره الملوك والأمراء وكان إذا مشى فى القاهرة يزدحم الناس عليه؛ يلتمسون منه البركة والدعاء، مع الهيبة والوقار، فكان إذا خاطبه الخاصَّة من الناس فكأنَّما يخاطبون سلطاناً عظيماً، وكان شديد التأثُّر بالجمال فى كل مظهر من مظاهره يميل إلى الخلوة والتقشُّف حسن العشرة، كريم السَّجايا، مولع بالعشق الإلهىّ، حتى سُمِّى "سلطان العاشقين" وقد تجلَّت جميع هذه السِّمات، وتلك الخصائص فى شعره، وقد جاء ممتلأ باصطلاحات

الصوفيَّة وعشقهم وآلامهم، وأحوالهم من وجد وسُكْر، وصَحْو وهوى، وشطح وتجريد وغير ذلك من قصص حُبِّهم الرّوحى الخالص، ويُعد "ابن الفارض" أشهر شعراء الصوفيين، ويغلب على شعره أسلوب عصره،وهو عصر "القاضى الفاضل"[1]، و"العماد الأصبهانى"، و"ابن النبيه"، و"البهاء زهير"، و"ابن سناء الملك"، وغيرهم فهو مولع بالصناعة البديعية من جناس، وطباق، ومقابلة، وطىّ، ونشر، ومُشاكَلَة، وتورية، ويمتاز أسلوبه بلُطف العبارة والإشارة، وحلاوة الجرس، ودقة الوصف، والتّشبيه والتّمثيل، ومما ميز شعره "الرمزية" التى اعتمد عليها اعتماداً كبيراً فى شعره، مع التعسّف فى الصّناعة البديعية اللفظية، وأوقف جُلَّ شعره على الحب الإلهى المملوء باصطلاحات السّالكين.

وقد كان لعصره وبيئته وأسرته التى ترعرع فى أحضانها أثر واضح فى ثقافته وشعره، ويُعد "ابن الفارض" من أكثر الشعراء الذين عنى النقاد بشعرهم دراسة وتحليلاً [2].

وهذه قصيدة من شعره ، وهى "بائية" من بحر "الرمل" وقد نظمها الشاعر وهو مقيم فى الحجاز، وهى قصيدة مشهورة بين الأدباء والنّقاد، واستهلّ بها ديوانه وتبلغ نحو الخمسين والمائة بيتاً، ويروى أن الملك "الكامل الأيوبى" كان يحبّ أهل العلم ويحاضرهم فى مجلس مختص بهم، وكان يميل إلى فنّ الأدب، فتذاكروا يوماً فى الشِّعر وأصعب القوافى، فقال الكامل: من أصعبها "الياء الساكنة"، فمن كن منكم يحفظ شيئاً منها فليذكره، فتذاكروا فى ذلك فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات، فقال "الكامل": أنا أحفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة.. وذكرها، فاستحسن الحاضرون ذلك، فقال القاضى

([1]) ابن الفارض والحب الإلهى - لمحمد مصطفى حلمى – التصوف الإسلامى لزكى مبارك ٢٩٠/١ وما بعدها، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ١٧/٣.

([2]) الديوان، وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٨٣/١، والخطط المقريزية ، وحسن المحاضرة للسيوطى وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى فى أخبار عام ٦٢٢هـ بتصرف، وأيضا : أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى لأنيس المقدس ص٣٦٩ .

"شرف الدين" كاتب سِرِّ الملك: أنا أحفظ منها مائة وخمسين بيتاً قصيدة واحدة، فقال "الكامل": يا شرف الدين ، جمعتُ فى خزائنى أكثر دواوين الشعراء فى الجاهليّة والإسلام، وأنا أحب هذه القافية، فلم أجد فيها أكثر مما ذكرته لكم، فأنشدنى هذه الأبيات التى ذكرت، فأنشده "يائية ابن الفارض"، فقال "الكامل" ياشرف الدين لمن هذه القصيدة، فلم أسمع بمثلها، فقال: هذه من نظم الشيخ "شرف الدين عمر بن الفارض".. فبعث الملك إليه بهدية ثمينة مع كاتب سره، فرفضها ابن الفارض، فذهب الكامل لزيارته حيث كان يعتكف فى قاعة الخطابة بالأزهر الشريف، فخرج الشَّيخ من الجامع، وسافر إلى الإسكندرية أياماً، ثم رجع إلى الجامع الأزهر مريضاً فأرسل إليه الكامل يستأذنه أن يبنى له خلوة بقبة الإمام الشافعى، فلم يأذن له بذلك وقد اخترنا من القصية هذه الأبيات وهى:

سائق الأظعان يطوى البيد ∴ منعماً عرج على كثبان طى طى

وبذات الشيخ عنى إن مرر ∴ ت بحى من عريب الجزع حى

وتلطف وأجر ذكرى عندهم ∴ علهم أن ينظروا عطفاً إلىّ

قل تركت الصب فيهم شبحاً ∴ ماله مما يراه الشوق فىّ

يا أهيل الودّ أنَّى تذكرو ∴ نى كهلاً بعد عرفانى فَتِىّ؟!

نصباً أكسبنى الشوق كما ∴ تكسب الأفعال نصب لام كى

رجع اللاحى عليكم آيا .·. من رشادى وكذلك العشق غى

أبعينيه عمى عنكم كما .·. صمم على عزله فى أذنى ؟

بل اسيئوا فى الهوى أو أحسنوا .·. كل شئ حسن منكم لدىّ

وروح القلب يذكر المنحنى .·. وأعده عندى سمعى يا أخى

لم يرق لى منزل بعد القفا .·. لا ، ولا مستحسن من بعد مى

آه وأشواقى لضاحى وجهها .·. وظمأ قلبى إلى ذاك اللمى

فلكل منه والألحاظ لى .·. سكرة ، واطرباً من سكرتى

لست أنسى بالثنايا قولها .·. كل من فى الحى أسرى فى يدي

سلهمو مستخبروا أنفسهم .·. هل نجت أنفسهم من قبضتى

ما رأت مثلك عينى حسنا .·. وكمثلى بك صبا لم ترى

نسب أقرب فى شرع الهوى .·. بيتاً من نسب من أبوى

ساعدى بالطيف إن عزت منى .·. قصر عن نيلها فى ساعدى

كاد – لولا أدمعى – أستغفر الله ∴ يخفى حبكم عن ملكى

أى صبا أى صبا هجت لنا ∴ سحراً من أين ذياك الشذى

كان لى قلب بجرعاء الحمى ∴ ضاع منى هل له رد علىّ

أى عيش مر لى فى ظله ∴ أسفى إذا صار حظى منه أى

ذهب العمر ضياعاً وانقضى ∴ باطلاً إن لم أفز منك بشي

الدراسة والتحليل:

١ – السائق: هو الذى يمشى خلف المطية يزعجها لتَجِدَّ فى السّير - الأظعان: جمع ظعينة، وهو الهودج سواء أكانت فيه امرأة أم لا.
يطوى: يقطع – البيد: جمع بيداء، وهى الفلاة. – طى: مصدر مؤكد.
– المنعم: المتفضِّل . أو هو القاصد "وادى نعمان" – عرِّج: مِلْ أو أَقِمْ أو أجس المطية – الكُثبان: مفردها كَثِيب، وهو مجتمع الرّمل – طى: اسم القبيلة.
المعنى: أيها الحادى للإبل فى الفلوات يطوى البيداء طيّاً مسرعاً لا يتوقَّف، قاصداً "وادى نعمان" تمهَّل قليلاً، ومِلْ بالإبل إلى كثبان طى، حيث الأحبَّة والأصفياء. ويقول شارح الديوان: إن السائق كناية عن الله – تعالى - وكثبان طى: كناية عن المقامات المحمدية الكثيرة، فكأنه يتضرَّع إليه أن يوصله لما يوصل جميع المؤمنين إليها.
٢ – ذات الشّيح: اسم موضع من ديار بنى يربوع – الحىّ: البطن من العرب – العريب: تصغير عرب وهم سكان المدن من غير العجم – الجزع: منعطف الوادى أو وسطه، وهو قرية عن يمين الطائف – حىّ: فعل أمر مأخوذ من حياه تحية إذا سلَّم عليه.

المعنى: يقول حىّ نيابة عنى أحبابى وخلانى إن مررت بذات الشّيح، حيث هم مستقرّون فى هذا المكان مع عرب الجزع. ويقول شارح الديوان: إنه كنى بذات الشّيح عن مقام الحيرة فى الله، وبالحىّ عن المشاهد العلا، وأراد بالجزع أنه موضع حَطِّ الرِّحال، حيث تنعطف عليه جميع الآمال.
٣ – تلطَّف: يعنى ارفق – أجر: اطرح – عطفاً : شفقة.
المعنى: ترفَّق أيها الحادى مع هؤلاء الأحباب، وانتهز الفرصة المواتية لتذكرنى عندهم، وتشرح حالى وما ألاقيه فى حُبِّهم، فلعلَّهم يشملونى بنظرة عطف، ويغمروننى بالحنوّ ومشاعر المودّة والعطف علىّ؛ لتخفيف ما أعانيه فى حُبّهم، إلى لقائهم ونعيمى بمودّتهم.
٤ – الصَّبّ: المتيَّم فى العشق – الشّبح: الشّخص يبدو ظلّه ولا يُرى جسمه – براه: أسقمه وأضناه – الشّوق : العشق – (فَىّ) أصلها الفئ، وهو ما كان شمساً ثم نسخه الظّلّ، وهو الظّل الذى فاء ورجع عن الشَّاخص.
المعنى: قُل يا أيّها السّائق للأحباب: تركتم مُحِبَّكم سقيماً هزيلاً، أنحله الضَّنى حتى اضمحلّ رسمه، وأصبح لا يُرى ظِلُّه.
٥ – أُهَيْل: تصغير أهل – أنَّى : بمعنى كيف، والاستفهام هنا بمعنى التعجب – كهلاً : يعنى شيخاً – فتىّ: تصغير فتى وهو الشَّاب.
المعنى: يا أهل المحبة، عجباً لإنكاركم إياى كهلاً بعد معرفتكم لى وأنا شاب فتىّ.
٦ – النَّصَب: التَّعب. والنَّصْب بسكون الصَّاد: الفتح وبينهما جناس – الشَّوق: شدَّة الحب.
المعنى: إنّ الشّوق إلى الأحبّة أكسبنى السّقام والضّنى، مثل ما أكسبت "لام كى" النَّصْب للأفعال المضارعة.
٧ – اللاحى: اللائم – والآيس: اسم فاعل من "أيس" إذا قنط ولم يبق له طمع فى شئ الرَّشاد: الاهتداء – الغىّ: خلاف الرَّشاد.
المعنى: رَجَع اللائم لى على حُبِّكم قانطاً من هُداى، قاطعاً أمله منه فإنّ العشق يدفع صاحبه إلى التّمادى فى الحبّ وتَرْك نصح الناصحين.

٨ – أبعينه عمى؟ الاستفهام هنا للتّعجب – العمى: عدم البصر – الصم: عدم السمع – العذل: الملامة – والعاذل: اللائم.
المعنى: هل عمى العزَّال لى فى حُبِّكم عن الجمال السّاحر الذى تيَّمنى حتى أشبه عمى عينيه. صمم أذنى عن لومه وعذله فلا أطيع له لوماً،ولا أسمع له عذلاً.
المعنى: يقول للعذَّال: أسيئوا أو أحسنوا فكلّ شئ منكم مقبول منى حَسَن لدىّ فوصالكم وهجركم وقُربكم وبُعدكم تقرّ به عينى، ولا أعدّه منكم إساءة.
٩ – روّح القلب: أعطه الراحة – القلب: الفؤاد – الذكر: التَّذكُّر – المنحنى: منعطف الوادى، أى موضع انعطافه وانحنائه، وهو اسم مكان معروف فى بلاد الحجاز – أخىّ بتشديد الياء: تصغير لكلمة أخ.
المعنى: اذكر أيها الصّديق اسم المكان الذى فيه أحبّتى، ففى ذكره سلوى للقلب وراحة لوجدانى، وكرِّر ذكره على سمعى، ففى تكراره لذَّة وشفاء من العناء والشّقاء.
١٠ – راق لفلان المكان: أى صَفَتْ له معيشته فيه – المنزل : مكان النزول – النّقا: القطعة من الرمل – لا: تأكيد للنفى المفهوم من قوله : "لم يرق لى" – مستحسن: مأخوذ من استحسنت الشئ أى: عَدَدْتُه حسناً – "مىّ": اسم محبوبة "ذى الرمة" وكنى بها هنا عن محبوبته.
المعنى: فارقت مسكنى وسكنى، فلم ألق بعدهما ما يغنى عنهما، فالوطن محبوب والحبيب لا تطيب بدونه الحياة.
١١ – "آه": كلمة تُقال عند الشِّكاية والتوجّع والألم – الضّاحى: المشرق – الظّمأ إلى الشئ: الشوق إليه – اللمى: مصغر "لمى"، وهو سُمْرة فى الشّفة، وهى أمارة جمال عند العرب.
المعنى: ما أشدَّ سقمى وشوقى إلى وجه "مىّ" الجميل المشرق، وما أكثر شوقى إلى ريقها العذب.

١٢ – الألحاظ: مفردها "لحظ" وهى العيون – السَّكرة : اسم المرة من السُّكر – الطَّرب: الفرح، وهو أيضاً الحزن، فهو من أسماء الأضداد.
المعنى: لى سكرتان: واحدة من الحبيبة وعذب ريقها، والأخرى من سحر لحاظها فوا شدَّة شوقى من هاتين السّكرتين. وقريب من هذا المعنى قول"ابن الفارض" فى تائيّته:
وبالحدق استغنيت عن قدحى ومن   شمائله لا من شمولى نشوتى
١٣ – الثَّنايا: جمع ثنية، وهى العقبة أو الحبل أو الطّريق فيهما. الحىّ: القوم المجتمعون النّازلون فى مكان – أسرى : جمع أسير.
المعنى: لقد سحرتنى حبيبتى بقولها لى فى هذا المكان :"إنَّ كلّ مَن فى هذا الحىّ أسرى حبِّى وجمالى".
١٤ – أَنْفَس: اسم تفضيل، من النَّفاسة، وهى الشئ الثَّمين ، والمراد أحسنهم. أَنْفُس جمع نفس، وبينهما جِناس، وكنى بالقبضتين عن تمام السُّلطان والقدرة، والبيت كلُّه من كلام المحبوبة.
المعنى: اسأل-أيها الحبيب -الحىَّ، واستخبرهم من أشرافهم وأبرارهم، هل نجوا ونجت قلوبهم من سحرى وسلطانى.
١٥ – الصَّبّ : المتيَّم حُبّاً، والمعنى: لم تَرَ عينى إنسانة مثلك حُسناً وجمالاً، ولن ترى مثلى بحبك صَبّاً مستهاماً.
١٦ – المعنى: إن الحبّ بيننا نَسَب، ويا له من نسب! فهو أقرب وأشدّ صلة من نسب الأبوين، وروى أن الرّسول ق قال "لابن الفارض" مناماً: يا "عمر"، أنت منّا أنت منّا، فأشار إلى ذلك فى هذا البيت.
١٧ – سَاعِدِى: أسعفى، من المساعدة وهى الرعاية أو المعاونة – الطَّيف: خيال الأحباب فى النّوم – المنى: جمع منية، وهو ما يتمنّاه الإنسان – القِصَر: ضدّ الطّول – نَيْلُها: إدراكها – سَاعِدَىّ: مثنى ساعد.

المعنى: إن عز تحقيق آمالى فى لقائك وقربك ومشاهدتك وزيارتك، فزورينى طيفاً فى المنام لأشفى لَوَاعِجَ أحزانى وآلامى فإن يدى تقصران عن نيل ما أتمنى، وإدراك ما أريد.
١٨ – كاد: قَرُبَ – أَدْمُع: جمع دمع – أستغفر الله: جملة اعتراضية.
المعنى: لولا الدّموع التى تتساقط من عينىّ، لكاد أن يخفى حبِّى لكم عن الْمَلَكَيْن الموكلين بكتابة أعمالى، وأستغفر الله مما أقول.
١٩ – الصَّبا : ريح الشّمال ، وأى: لنداء القريب – والصّبا الثانية : المحبّة – هِجْت: ثرت – الشّذى: تصغير شذى وهو الرّائحة الطيبة.
٢٠ – جرعاء الحمى: اسم موضع.
المعنى: إنّ قلبى قد تركتُه عند أحبابى فى هذا المكان، وافتقدته بعد ذلك فلم أجده فهل يعود إلىّ يوماً من الأيام؟
٢١ – أى : اسم استفهام يقصد منه التّهويل والتّعظيم – ظلُّه: أى ظلّ هذا المكان المذكور قبله – الأسف: أشدّ الحزن.
المعنى: ما أطيب العيش، وأحلاه قديماً وأنا مقيم فى هذا المكان وما أعظم أسفى إذ صار حظّى من هذا الماضى الجميل أن أتذكّره أَسِفاً حزيناً.
٢٢ – المعنى: يتأسّف الشّاعر على ما فات من عمره ضياعاً ، ويتحسّر على ما انقضى باطلاً، إذ لم يقرّ من مراده بالمراد، فأما إذا فاز منه بحظ ولو كان قليلاً فإنه يكون قد أدرك الخير الكثير والجد العظيم.
هذه القصيدة من "بحر الرمل" ، وهو بحر غنائىّ مشهور، ومع أن قافيتها صعبة وهى "الياء المشددة الساكنة"، ومع ذلك فقد ذلّلَتْ روح "ابن الفارض" الغنائية الأصيلة كل أثر لهذه الصّعوبة، لذلك جاءت القصيدة فى قمّة الحسن والإحسان والرّوعة والبيان والموسيقى الجيّاشة. والوحدة الموضوعيّة ظاهرة فى القصيدة، حيث إنها جاءت فى موضوع واحد، وهو الحبّ الإلهىّ، والوحدة الفنيّة أيضاً واضحة فى القصيدة، حيث جاءت الألفاظ والصّور مترابطة مع التجربة ترابطاً وثيقاً، ولذلك عبرت أصدق تعبير عما فى القصيدة من

انفعالات وعواطف وأفكار، والقصيدة تمثِّل تجربة ذاتيّة للشّاعر، وهى عاطفة الحبّ الإلهىّ، كما أن فيها إيقاعات موسيقية عذبة، وتتواكب فيها صور متلاحقة تُعدّ أجزاء مترابطة من التجربة تعبر عن حالة الشّاعر الوجدانيّة

كما أن القصيدة تُعدّ لوحة فنيّة وقد جاءت متوائمة مع الفكرة. والصورة الشعرية فى القصيدة جاءت فى أعلى درجاتها من العذوبة، والموسيقى متفاعلة مع التجربة، وتبدو الصّور الشعريّة فى أساليبه الرّائعة وفى تصوير الشاعر لمعانيه ولعواطفه، ولتجربته تصويراً دقيقاً مؤثِّراً موجباً، و"الابن الفارض"فى هذا المضمار قدرة بارعة، وتمثِّل القصيدة الصناعة الفنيّة لدى "ابن الفارض" تمثيلاً قوياً؛ حيث حرص الشاعر فيها على الجناس، مثل: "طى، طى"،و"حى وحى" ونَصَباً ونَصْباً" ، و"أنْفُسهم وأنْفَسهم"، و"صبا وصبا"، كما حرص على الطباق والمقابلة مثل: قوله "يطوى وعرج"، ففيها مقابلة "ورشاد وغى"، و"أسيئوا وأحسنوا"، "أنى تنكرونى كهلاً بعد عرفانى فتى"، كما حرص على التزام مراعاة النّظير فى قوله "واشوقى وظمأ قلبى"، و"عمى وصمم"، و"سائق الأظعان ويطى"، "كثبان طى" كما ترى لديه التشبيهات البليغة الرائعة، كقوله "تركت الصَّبَّ فيكم شبحاً"، أى كالشّبح، وقوله "نصباً أكسبنى الشّوق كما"..

وفى القصيدة كثرة كاثرة من المبالغات المقبولة، والمجازات والاستعارات، مثل "براه الشوق"،"كلّ مَن فى الحىّ أسرى فى يدىّ"، والاستعارة التّمثيلية فى قولها "قصر عن نيلها فى ساعدى" كما ترى الغزل الرقيق العذب فى قوله : "وتلطف واجر ذكرى عندهم" "كان لى قلب بجرعاء الحمى"، وهذه الرقة مبعثها الحبّ الذى أضناه والوجد الذى تيّمه، والغرام الذى أَسْكَرَه، ولا يوجد بين المتصوِّفة من يحاكى "ابن الفارض" فى هذا الميدان.

ويقول الدكتور "خفاجى": "عندما نحكم على القصيدة وفق المذهب الفقهىّ أو اللغوىّ أو البلاغىّ نظلم القصيدة؛ لأننا سننظر إلى اللغة والأسلوب والتَّشابيه والاستعارات وصور التّعبير البيانىّ والبديعىّ

والمعنوىّ وحدها، ولكننا إذا حَكَمْنا عليها وفق المذهب الفنِّىّ فسوف نُنصف القصيدة إنصافاً كبيراً، ونرفع من منزلتها إلى درجة عالية؛ لأنّنا سننظر إلى تجربتها الشّعريّة، وإلى الوحدة فى القصيدة، وإلى الفكرة، وإلى مادّة التّجربة من عاطفة أو انفعال ، وإلى الخيال والصّور الشّعريّة والموسيقى، وسنخرج من كلّ ذلك بحُكم عادل على "ابن الفارض" فى قصيدته هذه، وهو ما فعلناه فى نقدنا لهذه القصيدة التى بدأ بها الأدباء القدامى "ديوان ابن الفارض" ، وعَدَّها المحدثون
من جياد شعره[١]:
والرمز فى القصيدة هو نقلها إلى جو نعرف عنه بالذَّوق ولا نحدِّده بالصِّفة، وحول هذا الرمز يدور "ابن الفارض" فى تصوير الحبّ الإلهىّ،وفى القصيدة ظاهرة واضحة، وهى كثرة الكلمات التى استعملها الشاعرفى قصيدته مصغَّرة، والتَّصغير إذا كان عند "المتنبى" تعاظماً وكبرياء وخيلاء، فإنه عند "ابن الفارض" تواضع وإيناس وبشاشة، وتكثر فى شعر "ابن الفارض" ألفاظ : الشَّوق والوجد، والحبّ والخمر، والأفراح والهمّ، والسّكر والوصل
وله قصيدة أخرى فى الحبّ الإلهىّ يطلب فيها رؤية الله – عز وجل – وأن يسمح له بالرّؤية.

ثم يعاود نفسه ويخشى ألا تتحقّق له الرّؤية فيحذِّر قلبه من اليأس والقنوط، فيقول: أنت وعدتنى فى حبِّهم صبراً، فإياك أن تضجر و تضيق ذرعاً لعدم تحقّق الرّؤية واستجابة الرّغبة، فإنّ الغرام هو الحياة، فحقّك أن تموت فى سبيل ذلك، ولك كل العذر، ثم يخلو مع الحبيب وبينهما سِرّ أَرَقُّ من النّسيم إذا سرى، فينطلق "ابن الفارض"

---

(١) دراسات فى الأدب الصوفى – للدكتور/ خفاجى ٦٤/٢ ، ٦٥ .

يعزف على قيثارة الحبّ الإلهىّ والغرام الذى أسكره، فانطلق مغرِّداً شادياً عازفاً أرقَّ الألحان وأجملها فيقول:

زِدْنى بَفرطِ الّحُبّ تحيّراً ∴ وارحم حشى بلظى هواك تسعرا

وإذا سألتُك أنْ أراكَ حقيقةً ∴ فاسمح ولا تجعلْ جوابى لن ترى

يا قلبى أنت وعدتنى فى حبّهم ∴ صبراً فحاذِر أن تضيق وتضجرا

إنّ الغرام هو الحياة فمُتْ به ∴ صَبّاً فحقّك أن تموت وتعذرا

ولقد خَلَوْتُ مع الحبيب وبيننا ∴ سِرٌّ أَرَقُّ مِن النَّسيم إذا سرى

وأباح طرفى نظرة أملتها ∴ فغدوت معروفاً وكنت مُنْكَرا

الأدب فى ظلال الدولة الناشئة:

أولاً : الأدب فى ظلال الحمدانيين:

تألّق اسم "الحمدانيّين" منذ أواخر القرن الثالث الهجرىّ، وهى أسرة "تغلبيّة" عربيّة استطاع مؤسِّسها فى سنة ٢٧٧هـ أن يستولى على منطقة "ماردين" فى الموصل، وأخذت أسماء أبنائه وأحفاده تلمع فى أحداث الخلافة المضطربة، ومن أبنائه اللامعين "سيف الدولة" الذى استطاع أن يستولى على "حلب"، و"حمص"، و"اللاذقيّة"، و"أنطاكيّة"، وأسَّس فيها جميعاً إمارة مستقلة منذ سنة ٣٣٣هـ، متَّخذاً "حلب" عاصمة له ، هيّأ نفسه للنُّهوض بعبء الحرب ضد "الّروم البيزنطيّين"، وكان أوَّل لقاء معهم فى سنة ٣٣٦هـ، إذ أغاروا على

"أطراف الشام"، ونهبوا وسبوا ، فلحق بهم ، وأذاقهم نكالاً شديداً، فكُتِب له مجد عربىّ عظيم ضدّ الروم.
وسجَّله له فى لوحات شعريّة ناطقة "المتنبى"، الذى نزل بلاطه، ولزمه يصوِّر ويسجِّل ملاحمه الحربيّة السّاحقة للروم سحقاً ذريعاً [١].
سيف الدولة الحمدانى ورعايته للأدب :
وقد ارتقى الأدب، وازدهر شعره ونثره فى ظلال هذه الدّولة، وبرعاية زعيمها "سيف الدولة" حتى لتُعدّ الحركة الأدبيّة فى عهد "الحمدانيّين" من أكبر الحركات، وأعظمها على الإطلاق؛ لما أتيح لها من عناية ورعاية ، وحُسْنِ توجيه، وسطر التّاريخ لهذه الدولة مواقفها العظيمة من العلم والشِّعر والشُّعراء، ولا غرو فى هذا ، فرجال هذه الدولة عرب يهتزُّون للشّعر، ويقرضونه ويتذوّقونه، وذاع شأن "حلب" وأصبحت كعبة العلماء ووجهة الشّعراء والأدباء، خاصّة أيّام "سيف الدولة"، الشاعر الكبير، والقائد المغامر الجسور.
وقد نشأ هذا الأمير الشاعر فى بيئة عربيّة ، يسمع الشّعر ويطرب له، فكان لذلك أثره الكبير عليه فى حياته فيما بعد، وكان هذا الأمير الشّاعر وجهة الشّعراء، قبل أن يتولّى إمارة "حلب"، يعقد لهم المجالس، ويسمع منهم، ويجزل لهم العطاء، فامتلأت "حلب" بالشعراء الذين جاءوا حُباً فى سيف الدّولة وطمعاً فى عطائه يمدحونه، ويصوِّرون معاركه التى خاضها، وشجاعته الباسلة التى رأوها فى هذه المعارك.
ومن هؤلاء الشّعراء "المتنبى" و"السرى الرفاء" و"النامى"، وغيرهم من الشعراء الذين كانوا يتوافدون على ساحة سيف الدولة، ووصل الأمر "بابن نباتة السّعدىّ" إلى الضِّيق والضّجر من كثرة العطايا التى أعطاها إياه "سيف الدولة"

([١]) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٥٠٥ وما بعدها – د/ شوقى ضيف.

فإذا هو يقول:

قد جُدْتَ لى باللها حتى ضجرت بها ∴ وكِدْتُ من ضجرى أثنى على البُخْل

لم يُبْقِ جُودُك لى شيئاً أؤمِّله ∴ تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

ومجالس سيف الدولة مع الشّعراء كثيرة ، سمع بها القاصى والدانى، حتى الأعراب فى الصّحراء.

وفى ساحة "سيف الدولة" لمع "أبو فراس الحمدانى" الشاعر المشهور، وكان سيف الدولة يعجب به ويصطحبه فى غزواته، ويستخلفه فى أعماله، واشترك "أبو فراس" فى عدة معارك مع "سيف الدولة" ، حارب فيها الروم، فأُسر فى إحداها، وجُرح فى فخذه، فحُمل إلى "القسطنطينية"، وسُجن فيها أربع سنوات، وكان "سيف الدولة" ذا بصيرة بالشِّعر ، فقد نقد "المتنبى" حينما أنشده قصيدته التى يقول فيها :

وقفت وما فى الموت شكّ لواقف ∴ كأنك فى جفن الرّدى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ∴ ووجهك وضاح وثغرك باسم

فقال "سيف الدولة": قد انتقدنا عليك هذين البيتين، كما انتقد على "امرئ القيس" بيتاه:

كأنى لم أركب جواداً ولم أقل ∴ كخيل كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الدّوى للذة ∴ ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

فقال "المتنبى": أيَّد الله مولانا، أخطأ "امرؤ القيس"، وأخطأت أنا، وإنما قرن "امرؤ القيس" لذّة النّساء بلذّة ركوب الصّيد، وقرن السّماح فى شراء الخمر للأضياف بالشّجاعة فى مُنازَلة الأعداء، وأنا

لما ذكرت الموت فى أوّل البيت أتبعته بذكر الرّدى، وهو الموت ليجانسه، ولما كان وجه الجريح لا يخلو من أن يكون عبوساً، وعينه من أن تكون باكية قلت: ووجهك وضاح وثغرك باسم؛ لأجمع بين الأضداد في المعنى، وإن لم يستسغ اللفظ لجميعها، فضحك "سيف الدولة"، وأُعجب بجوابه، وأعطاه هبة عظيمة.
ولم تقتصر مجالس "سيف الدولة" على إلقاء الشّعر فقط، بل وُجد فيها بعض المشاحنات التى تأجّجت بين الشّعراء بعضهم مع بعض، ومنها هذه المشاحنة الطّريفة التى جرت بين "الخلدين" "والنامى"، و"السرى الرفاء" فكان الأخير يعتقد أن "الخالدين" يسرقان شعره، وينسبانه إليهما، فكان يشكوهما إلى "أبى البركات ناصر الدولة" قائلاً:

أشكو إليك حليفى غارة شهرا ∴ سيف الشّقاق على ديباج أفكارى

وكان "السّرى" يعتقد أيضاً أن "النامى" الشاعر الجزار يسرق شعره، فقال:

أرى الجزار هيجن ولى ∴ وكاشفنى وأسرع فى انكشافى

وبعد: فقد كان "سيف الدولة" لا يألوا جهداً فى الاحتفاء فى العلم والعلماء والأدباء فاجتمع حوله الشّعراء والأدباء، والكُتاَّب والفلاسفة، ونهض الأدب فى ظلال "الحمدانيّين" نهضة لا تُنكَر .

الأدب فى ظلال الفاطميين :

ازدهار الأدب فى مصر الفاطمية وأشهر شعراء العصر:

ويُنسَب الأدب الفاطمىّ إلى "إسماعيل بن جعفر الصّادق" ، وقد استولوا على مصر بقيادة القائد "جوهر الصّقلىّ" الذى نزل بالقرب من "الجامع الأزهر"[1].

([1]) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٢١ وما بعدها .

وبدأ فى التّخطيط لمدينة "القاهرة"، وأوّل خطّة كانت "بناء الجامع الأزهر"، لتُقام فيه الصّلوات، ونشر الدّعوة الفاطميّة، وفى عهد الفاطميّين ارتفع شأن الأدب، وأصبح له المكانة العظمى فى ذلك الوقت من الزّمان، وقد اعتنق الفاطميّون المذهب الشّيعىّ وحاولوا هَدْم المذهب السنىّ الذى كان سائدا فى مصر والشام آنذاك، ونبع منهم خليفتان اهتمّا بالعلم وأهله، وهما: "العزيز بالله"، سنة خمس وستّين وثلاثمائة للهجرة (٣٦٥)هـ إلى سنة ستّ وثمانين وثلاثمائة (٣٨٦)هـ، والخليفة الثانى: هو "الحاكم بأمر الله" سنة ستّ وثمانين وثلاثمائة للهجرة إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة (٤١١)هـ.

كما أُنشئت "خزانة الكتب"، التى ضمَّت مئات الألوف من المجلّدات فى العلوم على اختلاف موضوعاتها.

ومن العوامل التى أدّت إلى النّهضة العلميّة والأدبيّة فى عهد الفاطميّين : حرصهم على رِفعة الشّعر، وإعلاء شأنه، حتى أصبح يحتلّ مكانة سامقة فى هذه الدّولة، ولا غَرْوَ فهُم عرب يجرى فى دمهم حبّ الشّعر والاعتزاز به ، ومن هنا هَوَى إلى "مصر" فى عهدهم كثير من الشّعراء أو الأدباء من جميع أرجاء العالم العربىّ، والذى يتأمّل الحياة فى العصر "الفاطمىّ" يجد أنّها قد أترعت بكثير من الشّعراء الذين كان لهم شأن كبير فى الحياة هناك ومن هؤلاء الشّعراء مَنْ وَفَدَ مِن "العراق" ، ومنهم من وَفَدَ من "الشّام"، ومنهم من وَفَدَ من "اليمن"، وكان لاجتماع هؤلاء الأثر الكبير فى الحركة الأدبيّة والشعريّة فى "العصر الفاطمىّ"، وبجانب هذا اهتمّ الفاطميّون "بديوان الإنشاء" الذى كان له الأثر الكبير فى ارتقاء الكتابة[1].

كما ظهر فى هذا العصر "الأمير والشاعر المجيد" ذو الشاعريّة الفائقة، والموهبة الرّائعة "تميم بن المعز" ، وهو أشهر شعراء هذا العصر.

([1]) دراسات فى الأدب العباسى ص٩٩ وما بعدها .

وهو "تميم بن المعز" مؤسّس الدّولة الفاطميّة، وُلد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة الكريمة، وقد عنى أبوه بتربيته إذ كان يُعِدّه لولاية العهد، فأحضر له المعلّمين الدّينيّين واللّغويّين، وعَهِدَ إلى بعض دعاة النّحلة الفاطميّة بتلقينها له، وكانت للغلام موهبة فذّة في الشّعر، فأكبّ على الشّعر في أزمنته المتباينة يتزوّد منه، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته، وقد أُتيح له أن يحيا حياة ترف ولهو فى قصوره وبساتينه ورياضه [1].

وفى ديوانه ما يصوّر كؤوس اللّهو والمجون التى كان يعبّ منها عَبّاً[2].

وكان ذا حسّ دقيق، وشعور مرهف، وشاعريّة متدفّقة، وكان "تميم بن المعز" يَحْفِل بالطّبيعة، ووصفها فى شعره، وله فى ذلك القدرة الفائقة، وله خمريّات أجاد فيها إجادته فى الفخر والمديح، وشكوى الزّمان [3] .

وقد صوّر الشّعر الفاطميّ البيئة المصريّة فى وضوح، وعبّر الشّعراء عن خلجات أنفُسهم، وحَنَايا أفئدتهم فى صدق وصراحة، وقوّة فى التّصوير، ومَالَ الشّعراء إلى تصوير جَمَال النّيل، والحدائق، وما فيها من زهور، وزروع، وما على ضفّتى النّيل من قصور كما صوّر ما عليه المجتمع من رقّة وثراء ونعيم، وما فى "مصر" من خيرات وفيرة جعلتها أَمَل المحتاجين، وكعبة السّائلين [4].

يقول "تميم بن المعز" فى النّيل :

يومٌ لنا بالنّيل مختصر ∴ ولكلّ يوم مسرّة قصرُ

والسّفن تجرى كالخيول بنا ∴ صَعَداً أو جيش الماء منحدرُ

([1]) دراسات فى الأدب العباسى ص٩٣ وما بعدها.

([2]) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٣٠٦ وما بعدها .

([3]) محاضرات فى الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٨٤ .

([4]) دراسات فى الأدب العباسى ص١٠١ بتصرف .

وكأنّما أمواجه عُكَنٌ ∴ وكأنّما داراته سُرُرُ [1]

أشهر شعراء العصر الفاطميّ :

ومن أشهر شعراء العصر الفاطميّ:

١ - "ابن وكيع التنبسيّ":
وهو "الحسن بن على بن أحمد بن محمد بن خلف التنبسىّ" وهو بغدادىّ، وولد "بتنبس"، وهى مدينة كانت قرية من "بورسعيد" الحالية، وقد نشأ فيها الشاعر وتثقَّف ويبدو أنه طَلب المزيد من الثّقافة، والتّعرّف على أدباء "القاهرة"، فرحل إليها، وكانت شاعريّته تفتَّحت فلَفَتَ إليه الأنظار، وأعانه ثراؤه على انغماسه فى المجون، وآثر حياة المجون، والخمول على حياة العزّة حتى لو كانت الخلافة، ويبدو أنه تَمثَّل كلَّ ما كان فى "ديوان أبى نواس" حتى الجانب السيئ منه.
ويُعدّ "ابن وكيع" من أشهر الشّعراء فى وصف الزّهور، والزّروع التى تحفّ بالنّيل يقول الشّاعر "ابن وكيع" فى وصف الأزهار:

مِن نَرجَسٍ أبيَضَ كَالثغورِ ∴ كَأَنَّهُ مَخانِقُ الكافورِ

وَرَوضَةٍ تُزهِرُ مِن بَنَفسَجِ ∴ كَأَنَّها أرضٌ مِنَ الفَيروزَ

وَارمِ بِعَينَيكَ إِلى البَهارِ ∴ فَإِنَّهُ مِن أَحسَنِ الأنوارِ

([1]) الفن – مذاهبه فى الشعر العربى ص٤٧١ .

وقد تبعه الشّعراء يتغنّون بهذه الأزهار وتلك الأنوار [١].
وكان من أشهر شعراء هذا العصر أيضاً :
٢ – الشّريف العقيليّ:
وهو الشّاعر "عليّ بن الحسن بن حدرة"، وينتهى نسبه إلى "عقيل بن أبى طالب"، تاريخ مولده غير معروف، وكذلك تاريخ وفاته وهو من أهل "الفسطاط"، وكان له بها متنزَّهات، وليس فى ديوانه مديح لخليفة "الفاطميين"، وفى ديوانه بعض الإخوانيات، وبعض الفخر والهجاء،، ومن شعره قوله:

الغَيمُ مَمدودُ السُّرادِق ∴ وَالزَّهرُ مَفروشُ النَّمارِق

٣ – عمارة اليمنيّ:
ومِن شعراء العصر الفاطميّ هذا الشّاعر الفذّ ، وهو "أبو حمزة عمارة بن أبى الحسن اليمنىّ"، وكان من أهل الجبال فى "تهامة"، وهو "قحطانىّ"، وُلد سنة ٥١٥ للهجرة فى أسرة تهتمّ بالعلم والثّقافة ، وفى سنة ٥٣١ للهجرة أرسله أبوه إلى "زبيد"، فتعلَّم فيها الفقه الشافعىّ، وله فى علم "الفرائض" -يعنى المواريث-كما اتّصل بآل نجاح حكّام "زبيد"، ووزرائهم، كما اتّصل بآل زريع حكّام "عدن"، ومن شعره قصيدة سمّاها "شكاية المتكلِّم ونكاية المتألِّم"، يصف كثرة ما كان يصله من عطايا "الفائز"، و"العاضد" ووزرائهما، ومنها قوله:

مذاهبهم فى الجود مذهب سُنَّة ∴ وإن خالفونى فى اعتقاد التَّشيّع

وقد توعَّد فى بعض شعره مبغض الفاطميّين بالنّار وسوء المصير، وتمادَى فى هذا الغىّ، والضّلال ملوّحاً بيده فى وجه "صلاح الدين"،

---

[١] الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٧١ .

زاعماً أن الأئمّة الفاطميِّين هم باب النَّجاة، وأن حُبَّهم أصل الدّين، يقول الشّاعر "عمارة اليمنىّ" فى ذلك:

أئمّة خلفوا نوراً قبورهم ⁖ من نُور خالص نور الله لم يفل

والله لا زلت عن حبِّى لهم أبداً ما أخَّر الله لى فى مدّة الأجلِ [١]

النثر الفاطمي

أكثرَ الفاطميّون من اتّخاذ الكتّاب الذين يَأْنَسُون فيهم الكتابة والقُدرة على القيام بهذه المهمّة دون أن يقيموا وزناً لقصيدة الكاتب ، إنما المهمّ لديهم أن يكون الكاتب كُفؤاً يجيد عَمَلَه ،ويُحسن التّصرف فى وجوه الكتابة، ولو رجعنا إلى "صُبْح الأَعْشَى"، أو كتاب "النّجوم الزّاهرة فى أخبار مصر والقاهرة" "لابن تغرى بردى" الأتابكىّ الأشعرىّ، أو كتاب "حُسْن المحاضرة" للسّيوطى، لوجدنا طائفة كبيرة من الكُتّاب فى "ديوان الإنشاء" الفاطمىّ منهم المسلم، ومنهم الذمىّ، بَيْد أنّ هذه الكتب لم تنقل لنا صورة واضحة عن أصل هؤلاء الكُتَّاب، وظروف حياتهم، أو ثقافتهم، أو النّواحى الفنيّة التى تميّزت بها أساليبهم، وربما كان هذا الغموض راجعاً إلى كراهية المؤرِّخين للفاطميّين الذين كانوا يغالون فى تشيّعهم، وناحية أخرى وهى أنّ الأيوبيّين بزاعمة "صلاح الدّين الأيوبىّ" أعدموا ما أمكنهم من آثار الفاطميّين الثّقافيّة، حيث كانت مؤلَّفاتهم الضَّخمة تباع بثمن بخس[٢].

ومن الكُتّاب المشهورين، بل ومن أبلغ الكتّاب المصريّين والفاطميّين

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٣٣٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٨٧ .

"ابن الصوفىّ" فى إحدى رسائله الأدبيّة التى صنّفها "للأفضل الحمالى":

"أَوْلى ما يتقرّب به إلى الله – تعالى – الإكثار من تحميده، والإقرار بربوبيّته وتوحيده والصّلاة على نبيّه "محمد" ق الذى عضّده بتأييده، وخصّه من الشّرف بما لا سبيل إلى تحديده، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تحديده، ثم التوسّل إلى ملوك كلّ وقت بشُكر نعمتهم، ومواصلة خدمتهم، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد، وذِكْر مناقبهم التى سارت فى الأقطار، ونقّبت فى البلاد".

وواضح أن الكاتب كان يحسن الكتابة إحساناً بعيداً، دون أىّ غرابة فى اللّفظة، بل مع السّهولة واليسر، فسجْعُه خفيف، وكأنّه يفيض من ينبوع غدق شراباً يمتع النفس، وكان يوشيه أحياناً بالألفاظ القرآنية مثل قوله"نقّبت فى البلاد"[١].

الأدب فى ظلال الأيوبيين :

لقد ورث الأيوبيون ملك الفاطميين ودولتهم، واقتفوا آثارهم فى رعاية الأدب وتشجيع الشعر، وتنافس الأدباء ليصلوا إلى أعلى المناصب، ونيل موفور العطاء، وقد كان للاتّصال المصرى بالشام الأثر الكبير فى نهضة الأدب وازدهاره، وكان لالتفاف الأدباء والشعراء فى مصر والشام حول القائد المظفّر "صلاح الدين الأيوبى" أبلغ الأثر فى النهضة الأدبية والشعرية؛ لأنه كان ذا بصيرة بالشعر والأدب، يستمع إليه، ويهتز له، ويجزل العطاء للشعراء، وكذلك كان خلفاؤه كرماً ورعايةً للأدب، واحتضاناً للشعر [٢].

وقد استمر نشاط الشعر طيلة حكم الأيوبيين، وعُنيت كتب التواريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين، وفى مقدمتها هذا المصدر

([١]) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٤٠٥ وما بعدها .

([٢]) دراسات فى الأدب العباسى ص١٠٣ : أ د/ عيد عبد الرحمن ، وأيضاً: قصة الأدب فى مصر : للدكتور: محمد عبد المنعم خفاجى – رحمه الله تعالى – بتصرف.

التاريخى الأدبى المهم "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" "لابن خلكان"، وأيضاً "فوات الوفيات" "لابن شاكر الكتبى"، ولا يكاد يوجد شاعر زمن الأيوبيين إلا وله ديوان مطبوع، فقد طبعت دواوين "ابن سناء الملك"، و"ابن النبيه"، و"البهاء زهير" وغيرهم [١].

ومن أشهر شعراء العصر الأيوبى "ابن سناء الملك"، الذى يقول عنه الدكتور "شوقى ضيف": "لا نبالغ إذا قلنا: إن "ابن سناء الملك" أكبر شاعر عرفته "مصر" فى القرن السادس الهجرى، ولد سنة خمسين وخمسمائة للهجرة، لأب متشيع كان يعمل فى دواوين الفاطميين، وكان صديقاً "للقاضى الفاضل"، وأحاط الأب ابنه برعاية شديدة، وأحضر له "المربين"، والمثقفين، وقد تفتحت مواهبه الشعرية فقرّبه "القاضى الفاضل" إليه، وعيّنه في الدواوين، ولم يكن"ابن سناء الملك" شاعراً فحسب، بل كان كاتباً، وناقداً، وهو أول من اهتمّ من المصريين بصنع "موشّحات" على غرار الموشحات الأندلسية، وتحس فى بعض شعره "المبالغة" الشديدة، خاصة فى فخره ، مثل قوله:

سِوَايَ يَخَافُ الدَّهْرَ أَو يَرْهَبُ الرَّدى ∴ وغيرِي يَهْوَى أَنْ يَكونَ مخلّدَا

ولكنَّني لا أَرْهَبُ الدهرَ إِنْ سَطَا ∴ ولا أَحْذَرُ الموتَ الزُؤَامَ إِذَا عَدا

ولو مدَّ نحوي حادِثُ الدهرِ طَرْفهُ ∴ لحدَّثت نَفْسِي أَنْ أَمُدَّ لَهُ يَدا

([١]) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص١٧٠ بتصرف .

وكان يميل إلى السهولة فى شعره مع تحليته بألوان التصنع، ولم يعب منه مذهب التصنع؛ إذ كان يتصنع على طريقة معاصريه للمصطلحات العلمية ، مثل قوله:

رأَيْتُكَ بحراً طَبَّقَ الأَرضَ مَدُّه ∴ فلم يَبْقَ عندي رُخْصَةٌ في التَّيَمم

ولا نبالغ إذا قلنا: إن موشحاته أروع من أشعاره، فقد كان يوفر لنا "النغم الحلو الرشيق"، مثل قوله :

البدر يحليك ∴ لولا تثنّيك

بالفن أخيك للصدر أدنيك **(١)**

ابن النبيه :

ومن الشعراء المشهورين فى هذا العصر "ابن النبيه"، وهو "كمال الدين النبيه"، وقد ولد هذا الشاعر بمصر المحروسة سنة ستين وخمسمائة للهجرة "٥٦٠"، للهجرة، وحفظ القرآن الكريم فى الكتّاب، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء، فنضجت ملكته الشعرية، والتحق بدواوين "صلاح الدين الأيوبى"، ووزيره الكاتب البليغ "القاضى الفاضل"، ومدح بنى أيوب فى "مصر"، حتى اتصل "بالملك الأشرف"، فكتب له فى ديوان الإنشاء، واستمر فى خدمته حتى توفى سنة "٦١٩هـ" تسع عشرة وستمائة للهجرة النبوية الكريمة. وهو شاعر حاضر البديهة، مليح النادرة، منسجم الأسلوب، حسن الوشى، مطبوع على البديع، فهو يتوخّى الحلية اللفظية، ويشتد فى طلبها، بيْد أنه لا يتكلفها لجمال صياغته، وأسلوبه قوى الحياة، شديد الحركة، كثر

([١]) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٩٥ وما بعدها بتصرف .

التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته، مثل قوله فى المديح:

فَحَرِيقُ جَمْرَةِ سَيْفِهِ لِلْمُعْتَدي ∴ وَرَحيقُ خَمْرَةِ سَيْبِهِ لِلْمُعْتَفِي

يا بَدْرُ تَزْعُمُ أَنْ تُقاسَ بِوَجْهِهِ ∴ وَعَلَى جَبينِكَ كُلْفَةُ المُتَكَلِّفِ

يا غَيْمُ تَطْمَعُ أَنْ تَكونَ كَكَفِّهِ ∴ كَلاّ وَأَنْتَ مِنَ الْجَهامِ المُخْلِفِ

ولم يكن شعره يخرج عن أغراض ثلاثة: أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها فى عصره، وهى : المديح ، والغزل ، والوصف. وعلى الجملة فإن "ابن النبيه" شاعر عذب الروح، كثير الافتتان، مغرق فى المجاز، والتشبيه، والبديع، وكان مجيداً للمطالع، محسناً للتخلص، وله ديوان مطبوع فى بيروت – لبنان ، وفى "مصر"[(١)].

البهاء زهير :

ومن مشاهير الشعر فى هذا العصر "البهاء زهير"، وهو "أبو الفضل زهير بن محمد الهلبى" المولود "بوادى نخلة" على طريق "مكة" ، ثم رحل إلى "مصر"، فنشأ بها وتأدب فلما بلغ أشده واستوى فى العلم والحسن برع فى النظم، والنثر، والخط، واتصل بالملك الصالح ابن الملك "الكامل" الأيوبى، ورافقه إلى الشام، والجزيرة، واتخذه وزيره، وموضع سره، حتى مات "الملك الصالح" فلزم "البهاء" داره حتى وافته منيته فى السنة التى سقطت فيه "بغداد" فى أيدى "التتار"، وكان "بهاء الدين" دمث الأخلاق، رقيق الطباع لين الجانب، حلو الكلام، فأثرت تلك الصفات فى شعره، فجاء عذباً رقيقاً، يطمع السامع أن يأتى بمثله لسهولته وقته، فإذا حاول عجز، فشعره فيض قريحته، ووحى طبيعته وصورة بيئته، ولم

---

(١) تاريخ الأدب العربى: للأستاذ أحمد حسن الزيات ص٢٩٩، عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ص٢٧١ وما بعدها : للدكتور/ شوقى ضيف .

يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، فلا تجد فيه كلمة غريبة، ولا جملة معقدة . وليس فى معانى "البهاء" ابتداع ولا تخيل، إنما هى عادية كساها ألفاظاً سهلة، وبث فيها من روحه الفياضة قوة التأثير، ومن شعره فى الغزل قوله :

إن شَكا القَلبُ هَجرَكُم ∴ مَهَّدَ الحُبُّ عُذرَكُم

لَو عَلِمتُم مَحَلَّكُم ∴ في فُؤادي لَسَرَّكُم

قَصِّروا عُمرَ ذا الجَفا ∴ طَوَّلَ اللَّهُ عُمرَكُم [(١)]

ابن الفارض :

ومن الشعراء الكبار فى هذا العصر: سلطان العاشقين "عمر بن الفارض": وهو "أبو حفص عمر بن على" المعروف "بابن الفارض" ، أصل آبائه من "حماة"، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ، وتفقه فى الدين، وتوسع فى اللغة والأدب، حتى حاز منهما قسطاً وافراً، ثم وقع فى نفسه أن ينهج منهج الصوفية، فاقتفى آثارهم، وعرف أسرارهم، وذهب إلى "مكة" فزار البقاع المقدسة، ومكث بها زمناً،ثم رجع إلى "مصر"، فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكراه، حتى توفى بالقاهرة سنة ٦٣٢هـ.

نشأ فى عصر الأيوبيين، وهذا العصر تنازع النفوس فيه عاملان مختلفان: عامل التصوف والتقوى، لدوام الحروب وتعالى الكروب:من المجاعات، والموتان، وعامل الفسوق والمجون، لانحلال الأخلاق ، وتحكم الشهوات، وانتشار المخدرات، واتجه الشعر فى "مصر" وفى غير "مصر"إلى هاتين الوجهتين، فهو إما

([١]) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٤٠٣ ، وعصر الدول والإمارات (مصر والشام) : د/ شوقى ضيف.

أن يراد به الله، وإما أن يراد به الشيطان،و"ابن الفارض" قد نشأ نشأة دينية، وربى تربية صوفية، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم فى الشعر، وينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر، وذكر الغزل، مريداً بذلك الذات الإلهية على اصطلاحهم، فكان بذلك موجد الطريقة الرمزية فى الشعر العربى، وهو أكثر الشعراء تعملاً بالكلام، وتكلفاً للبديع وولوعة بالجناس والطباق، وأمير معاصريه شعراً؛ لرقته، واشتماله على ما يرضى المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن، ذاك بباطنه، وهذا بظاهره، ومن أشهر شعره نونيته الكبرى والصغرى، ومن شعره قوله فى الخمر – وفيها كثير من رموز الصوفية :

شَرِبْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَةً ∴ سكِرْنَا بها من قبل أن يُخلق الكرْمُ

لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ يُدِيرُهَا ∴ هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجم

ولولا شذَاها ما اهتدَيتُ لِحانِها ∴ ولولا سَناها ما تصَوّرها الوَهْمُ

يقولونَ لي صِفْهَا فأنتَ بوَصفها ∴ خبيرٌ أَجَلْ عِندي بأوصافها عِلم

صفاءٌ ولا ماءٌ ولُطْفٌ ولا هَواً ∴ ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولا جِسْمٌ **(١)**

---

(١) المرجع السابق ص٤٠١ وما بعدها .

الأدب فى ظلال الدول الأخرى:

نهض الأدب فى كثير من الدول التى نشأت فى العصر العباسى الثانى، غير تلك الدول التى أومأنا إليها آنفاً، ومن هذه الدول "الدولة الزيادية"، التى نبغ منها "قابوس بن وشمكير"، وكان أديباً شاعراً، تولى فى عهد الخليفة "الطائع"، وقد لقبه الخليفة "شمس المعالى"، وكان محباً للعلماء والأدباء، وكان يرفض أن تنشد قصائد المديح بين يديه، ومن مؤلفاته "كمال البلاغة"، وهو مجموعة رسائل أدبية تمتاز بجمال عباراتها، والتأنى فى اختيارها، ويغلب على طابعها التأثر بطريقة "بديع الزمان الهمذانى".

وأسلوب "قابوس" فى الكتابة يغلب عليه السجع، والمحسنات البديعية، والعناية بالتجنيس.

و"قابوس بن وشكير" معدود بين الأفراد الزياديين، وفى طبقة المجودين من الكتاب وكان ينزع إلى الأدب، ويكلف بالأدباء، ويجتمع الشعراء على بابه كل "نيروز" و"مهرجان"، فيرسل إليهم جوائزهم مع أحد أصحابه، ويقول له: "وزع عليهم الهدايا بحسب رتبتهم"، وكذلك كان حظ الأدب كبيراً فى ظلال الدولة السامانية، والدولة القرنوية، فقد شجعوا الأدباء، وبالغوا فى إكرام الشعراء، مجاراة ومنافسة للملوك المعاصرين لهم، ورغبة فى أن تزدان بهم قصورهم ومجالسهم، ولكنهم كانوا دون "البويهيين" فى الاحتفاء بالشعر، واجتذاب كثير من الشعراء إليهم؛ لبعد مزارهم عن قلب المواطن الإسلامية؛ ولأن أذواقهم أعجمية، وقد حاول "نوح بن منصور السامانى" أن يجتذب "الصاحب بن عباد"، ويستأثر به دون "البويهيين"، فراسله يعرض عليه ما يغريه بالرحلة إليه، والوزارة له لولا اعتذار "الصاحب" بما يشق عليه من نقل متاعه، ومن بينه كتبه التى تحتاج وحدها إلى أربعمائة جمل كما قال، ولعل بلاءهم يذكر فى احتضان الكتب، فقد ظهر فى كتابهم بعدها من يقاربون "ابن العميد" ، و"الصاحب بن عباد" فى الدرجة البلاغية، وإحياء الحركة الأدبية، مثل الوزير "البلعمى"، والوزير "الجيهانى" فى دولة "السامانيين"، ومن حولهم من آل "ميكال" الأمراء والكتاب والشعراء، ومثل "أبى القاسم المينوى"، و"أبى الفتح البستى" فى بلاط الغزنويين.

على الجملة فقد تعدد بتعدد الدول موارد الأدباء، وتبارى الملوك من العرب والمتعربين وما ساماهم من الأعاجم فى تقربهم، والاحتفاء بهم، فسعد العهد بعدد وافر من الأعاجم فى تقريبهم والاحتفاء بهم، وضن الإنتاج الأدبى بما لم يضارعه مثله من بعد وفى كل ركن ندوة أدبية، والأدباء يطوفون فى أرجائه تطواف البلابل فى الروض الأغن لها منه الزهر الندى والجنى الشهى، وله منها التطريب، والتغريد باللحن الفريد (١).

أبو الفرج الأصفهانى:

هو "على بن محمد بن أحمد القرشى الأصبهانى" ، ويكنى "أبو الفرج"، ولد سنة أربع وثمانين ومائتين للهجرة النبوية، وطلب العلم والأدب، وتأدب "ببغداد"، ويبدو أنه كان يعيش بعد ذلك حياة أديب جوّال، وقد نادم "سيف الدولة"، وكان أكثر الناس إيثاراً له "الوزير المهلبى معز الدولة بن بويه"، فانقطع إليه ومدحه، حتى توفى "ببغداد" سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة (٢).

وكان هذا الأديب -على الرغم من ظرفه وأدبه – سليط اللسان، فاحش العبارة تتقيه الملوك والأمراء؛ لأنه كان عالماً بالمعايب والمثالب،وكان لا يغسل ثوبه ولا يبدّله وكان الوزير المهلبى يحتمل منه كل شئ؛ لعلمه وحسن حديثه، وحلاوة منطقه؛ حيث كان ملماً بأشتات العلوم، راوياً للأنساب والأشعار، وكان ثقة فيما يقول، وكان كاتباً معدوداً ومؤلفاً ضالعاً، وراوية أميناً، بيد أنه لم يكن مطبوعاً فى الشعر، وحسبه شرفاً وفخراً كتابه "الأغانى"،وقد أجمع الباحثون والمؤرخون على أنه لم يصنَّف فى بابه مثله، وأن كل كاتب فى الأدب لا غنية له عن مطالعة هذا المصدر الأدبى المهم، ولولا هذا الكتاب لضاع الكثير من أخبار الجاهلية، وصدر الإسلام، وعصر بنى أمية، وقد ألَّفه "الأصفهانى" فى خمسين سنة، وبناه على

---

(١) تاريخ الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى : د/ خفاجى ص٣٦ : ٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ٦٨/٣ ، وأيضاً : تاريخ الأدب العربى : للزيات ص٤١٣ .

"خمسين صوت" التى اختيرت للخليفة "هارون الرشيد"، وزيدت للخليفة "الواثق"، وعلى ما اختاره هو من عيون الأغانى. وقد حمله إلى "سيف الدولة الحمدانى" فأعطاه ألف دينار، واعتذر إليه، وكان "الصاحب بن عباد" إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً، فلمَّا اقتناه استغنى به عنها [١].

ويقول "ابن النديم": "وله من الكتب "كتاب الأغانى الكبير"، وهو نحو خمسة آلاف ورقة، ثم كتب "مجرد الأغانى"، وكتاب "مقاتل آل أبى طالب"، وكتاب "تفضيل ذى الحجة"، وكتاب "الأخبار والنوادر"، وكتب أدب السماع [٢].

يقول الأصفهانى مخاطباً الوزير "المهلبى":

فداؤك نفسى هذا الشتاء ∴ علينا بسلطانه قد هجم

ولم يبعد من نشى درهم ∴ ولا من ثياب إلا رمم

يؤثر فيها نسيم الهواء ∴ وتحرقها خافيات الوخم

فأنت العماد ونحن العفاة ∴ وأنت الرئيس ونحن الخدم [٣]

وهذا الشعر مدون فى كتابه "الأغانى"، يقول "أبو الفرج": "وممن حكى أنه صنع فى شعره وشعر غيره "المنتصر"، فإنى ذكرت ما

([١]) تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان "مرجع سابق"، وتاريخ الأدب العربى : للزيات ص٤١٣ .

([٢]) ينظر: أبو الفرج الأصبهانى وكتابه "الأغانى" : لمحمد عبد الجواد الأصمعى، نقلاً عن الفهرس لابن النديم ص١١٥.

([٣]) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٤١٥ .

روى عنه أنه غنى فيه على ضعف الصنعة، لئلا يشذ عن الكتاب شئ قد روى وقد تناوله الناس، ومما ذكر عنه أنه غنَّى فيه :

سقيت كأساً كشفت ∴ عن ناظرى الخمرا

فنشطتنى ولقد ∴ كنت حزيناً خائرا [(١)]

النثر :

ازدهار النثر وأسبابه :

فى هذا العصر انقسمت الدولة العباسية إلى دويلات وإمارات، وكان لهذا الانقسام أثره البالغ فى ازدهار فنون النثر، وتنوع ألوانه، وقد بلغ النثر قمة الرقى والازدهار فى هذا العصر، وذلك للأسباب الآتية:

١ – ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى هذا العصر، فقد أثمرت العلوم العربية المترجمة وآتت أكلها، فظهر أثر ذلك فى تنمية الأذواق ، وسعة الخيال.

٢ – لم تكن "بغداد" وحدها هى العاصمة التى يقصدها الأدباء والكتاب والشعراء، بل كانت هناك عواصم أخرى قصدها الأدباء والعلماء فى هذا العصر، فكان حكام وأمراء "مصر" و"الشام" و"بلاد ما وراء النهر" يتنافسون فى تشجيع الأدب، واجتذاب الأدباء.

٣ – الثراء والنعيم والترف الذى ساد أرجاء الدولة العباسية، وما ضمته من دويلات كان له أثره فى رقى الكتابة الفنية وازدهارها، ومن مظاهر هذا الرقى : رقة الألفاظ والاهتمام بالزينة اللفظية، والتأنق فى العبارة .

٤ – لم تقتصر الكتابة الفنية على بعض الموضوعات، بل تعددت موضوعاتها وأغراضها، فشملت موضوعات كثيرة وأغراضاً عديدة، أملتها ظروف العصر وتطور المجتمع

([١]) أبو الفرج الأصبهانى وكتابه الأغانى ص٣٤١ نقلاً عن الأغانى ٣٠٠/٩ – ط: دار الكتب .

على أنه فى أواخر هذا العصر بدأ يتسلل إلى الكتابة الانحطاط والاضمحلال، ولعل **من أسباب ذلك**: كثرة المحسنات البديعية التى أغرق الأدباء فيها، فكبلوا أساليبهم بها وانتشار العجمة فى البلاد التى تولى حكمها الأعاجم، وطغيانها على اللغة الفصحى، كما أن هؤلاء الحكام الأعاجم لعدم فهمهم للغة العربية، وتذوقها لم يشجعوا الأدباء، ولم يحتفوا بالأدب، وإن كان بعضهم قد اهتم بالأدب، وكان له ذوق وفهم للشعر، إلا أن هؤلاء قلة.

وأنواع النثر التى كانت قبل هذا العصر من النثر العلمى والفلسفى والأدبى والمناظرات، والمواعظ، والقصص، والأدب التهذيبى، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية، كل هذه الأنواع ازدهرت فى هذا العصر، وخاصة القرنين الرابع والخامس ولا نبالغ إذا قلنا : إنهما كانا أزهى القرون فى العصر بالقياس إلى النثر وفنونه، وقد بلغ العقل العربى كل ما كان يُرجى من نضج، وظل المترجمون ينقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف، وظل يتغذى بها وينمو، ولم يلبث أن شارك فيها، وأصبح للعرب علماؤهم وفلاسفتهم، حتى بلغ القمة فى مطلع هذا العصر[1].

وفى أخريات هذا العصر بعد أن ضعفت الخلافة ، وقام بالأمر غير أهله ، سرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، فمالوا إلى زخرف القول، وتدبيج اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا فى ذلك حتى سمجت مبانيهم، وفسدت معانيهم، فكانت مموهة الظاهر، مشوهة الباطن، كسيف الخشب فى غمد الذهب، وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم[2].

---

(1) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٤٣٠ - بتصرف .

(2) تاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٢٤٠ .

ومن أشهر أعلام النثر فى هذا العصر "ابن العميد"، و"الصاحب بن عباد"، و"الوزير المهلبى"، و"الخوارزمى"، و"الصابئ"، و"الثعلبى"، والقاضى الفاضل"، و"الشريف الرضى"، وأبو حيان التوحيدى.

أبو حيان التوحيدى :

هو فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة "أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى"، وقد اختُلف فى مسقط رأسه، وتاريخ مولده، وتاريخ وفاته : فقيل: ولد "بشيراز" بـ "فارس"، وقيل: "بنيسابور" "بخراسان"، وقيل: "بواسط" بجنوبى "العراق" وقيل: "ببغداد"، وهو القول الراجح فى رأينا؛ إذ لم يذكر كثير من مترجميه أنَّ أباه كان يبيع نوعاً من التمر "ببغداد" يُعرف باسم التوحيد، وعليه حمل شراح "المتنبى" قوله:

يَتَرَشَّفنَ مِن فَمي رَشَفاتٍ ⁂ هُنَّ فيهِ أَحلى مِنَ التَوحيدِ

وكأنه هو وأبوه قد نُسبا إلى هذا التمر، وخطأ ما ذهب إليه "ابن حجر" وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى توحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد، أى من المعتزلة.

اختلف إلى الكتَّاب فى طفولته ؛ ليحفظ القرآن والشعر، ويتعلم الخط والحساب ومن أساتذته "أبو سعيد السيرافى"، و"على بن عيسى الرومانى"، و"أبو بكر الشافعى" و"يحيى بن عدى" تلميذ "الفارابى"، وغيرهم.

وكان "أبو حيان" ورَّاقاً يكتب للناس بالأجر، يقرأ ما يكتبه فيلصق بذاكرته، فاتسعت ثقافته، ومن الكتب التى كان معجباً بها كتب "الجاحظ"، وبخاصة كتاب "الحيوان"، وعندما أحس بمقدرته الأدبية قصد "ابن العميد" فى "الرى"؛ عَلَّه يجد عنده علماً، لكنه لم يوفَّق فى هذه الرحلة التى استمرت ثلاث سنوات، فعاد خالى الوفاض، ومما

يذكره أنه لجأ إلى التأليف مستفيداً مما قرآن خلال اشتغاله بالوِرَاقة، فألَّف كتاب "البصائر والذخائر"، وهو على نمط "البيان والتبيين" "للجاحظ"[1].

وذكر "كارل بروكلمان" أن "التوحيدى" توفى بعد سنة ٤٠٠هـ،وقيل: توفى فى حدود سنة ٣٨٠هـ [2].

ومن أشهر مؤلفات "التوحيدى" : كتاب "الإمتاع والمؤانسة"، فقد كان يتخذ له مجلساً علمياً فلسفياً أدبياً؛ للحوار ليلاً فى كل ما يتصل بالإلهيات، والطبيعيات، والأخلاق وعلم الكلام، واللغة، والشعر، فقد ذكر "أبو حيان" العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يحاورونه فى هذا المجلس بكتابه "الإمتاع والمؤانسة"[3].

ويُعدّ "التوحيدى" من أعظم أدباء "العراق" فى القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته؛ حيث تناول فيه كثيراً من جوانب التفلسف، والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعيات، والإنسان، والأخلاق، والنفس، فأدبه ليس لفظاً، بل هو أدب يحمل زاداً كثيراً من المعانى، وقد أشار مراراً فى "الإمتاع" وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يعنى بالألفاظ، وقد أداه ذلك إلى أن ينفصل عن مواجهة السجع التى سادت الكتابات الأدبية فى أيامه؛ إذ رأى فيها طلباً للفظ أو الألفاظ، والاستعلاء لها على المعانى.

وقد راعه أسلوب "الجاحظ" وأدبه؛ إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتى والمعانى، مستخدماً أسلوب الازدواج الذى عُرف به. وقد يتخلله فى الحين البعيد بعد الحين السجع، ولكن دون التزامه، ودون الإكثار منه، فاستقر هذا الأسلوب فى نفس "أبى حيان"

---

(1) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٤٥٣ وما بعدها .

(2) تاريخ الأدب العربى ٣٣٦/٤ .

(3) عصر الدول والإمارات ص٤٥٨ .

وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته، ويبلغ فيه ذروته من الجمال الصوتى لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند "الجاحظ"، وهو يتسع اتساعاً واضحاً فى أسلوبه بالترادف،وما يتبعه من التقطيع الصوتى، ولنقرأ هذه الفقرة فى فاتحة الرسالة التى توسَّل بها إلى "أبى الفتح بن العميد":

"اللهم هيئ لى من أمرى رشداً، ووفقنى لمرضاتك أبداً، ولا تجعل الحرمان علىّ رصداً، أقول – وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق، وخير الصدق ما جلب النفع، وخير النفع ما تعلق المزيد، وخير المزيد ما بدا عن شكر، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق".

وقد بدأ "أبو حيان" الرسالة بالسجع، وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج، معادلاً بين كل عبارة وتاليها، معادلة صوتية دقيقة، وليس ذلك فحسب، كأنه يستغل قدرته الفكرية فى تفريغ الجمل بعضها من بعض؛ إذ بدأ بالصواب، وجعله ينتهى بالتوفيق، ونحس كثيراً إزاء ازدواجات "أبى حيان" وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قرائه وكان عجباً له أن هذه الرسالة التى كتبها "لأبى الفتح" لقيت فيه إعراضاً، وعرف أن السبب فى ذلك أنها لم تُكتب بلغة السجع التى كانت سائدة فى عصره، إنما كتبت بأسلوب "الجاحظ"[1].

([1]) السابق ص٤٦١ .

الكتابة الفنية :

ازدهار الكتابة وأسبابه وأشهر الكتَّاب :

لقد ازدهرت الكتابة الفنية فى عصر "الدويلات"، وتنوعت ما بين رسائل شخصية ورسائل ديوانية، ومؤلفات، ومواعظ، وخطب دينية، ومحاورات، ورسائل فكاهية، وقد باتت أسباب ازدهارها واضحة جلية لمن يقوم بدراسة هذا العصر، فإن اتساع نطاق الدولة وانتشار الدويلات فى أرجائها كان مَدْعاة لازدهار الكتابة، وذلك للحاجة الملحة لإدارة شئون الدولة عن طريق الرسائل والتوقيعات. كما أن من أسباب ازدهارها هذا الاتصال بين الثقافات العربية، والثقافات الأجنبية الوافدة، ذينكم الاتصال الذى أثمر شجره، ونضج ثمره، وآتى أكله فى هذا العصر. كما كان من بين أسباب الازدهار انتشار الثقافة ، وكثرة دور التعليم، وظهور المكتبات، والإقبال على العلم والتعلم، مما دفع العقول إلى التفكير وكان لانتشار "دواوين الإنشاء" وتنوعها فى عصر الدويلات، وكثرتها من العوامل المهمة لازدهار الكتابة فى هذا العصر، فقد كان هناك "ديوان الخليفة"، و"ديوان الزمام"، و"ديوان الضِّياع"، و"ديوان الجيش"، و"ديوان الأوقاف"، و"ديوان النفقات"، ولم تكن تلك الأقاليم فى "فن الكتابة" تسير على وتيرة واحدة فى الازدهار، ومثال ذلك: أنَّ "نَجْداً" لم يكن لها نشاط يذكرفى هذا الفن، أما غير "نَجْد" من مدن "الحجاز"، وخاصة "مكة"، و"المدينة" فإن فن الكتابة كان فيهما مزدهراً، ولا غرو فى ذلك ؛ حيث إن "مكة" و"المدينة" كانت كل واحدة منهما تمثل جامعة إسلامية تعِجّ بالعلماء والأدباء وطلاب العلم من كل حدب وصوب، وكان أمراء "مكة" فى ذلك العصر يتخذون كتَّاباً للإنشاء يكتبون لهم ما يريدون من رسائل فى مخاطبة "سلاطين مصر"،وحكَّام "اليمن" و"العراق" (١).

---

(١) محاضرات فى الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٨١ وما بعدها .

وعن ازدهار الكتابة فى إقليم "اليمن" فى هذا العصر يقول الدكتور/ "شوقى ضيف": "ولعل قُطْراً فى الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت فى "اليمن"، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة "الصليحية"، و"الإسماعيلية" سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، واثنتان وثلاثون وخمسمائة للهجرة(٤٣٩ – ٥٣٢هـ) ؛ إذ كانت تتخذ لنفسها "ديواناً للإنشاء"، ومن كبار الكتّاب فيه "الحسين بن على القيم" الشاعر النابه [١].

ويقول عن ازدهار الكتابة فى إقليم "عُمان": "وظلّت عمان تحتفظ بنشاط كتابى طوال العصر، وقد عنى "نور الدين السالمى" بعرضه فى كتابه "تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان"[٢]، وفى إقليم "مصر" يعظم "ديوان الإنشاء" حين يستولى "الفاطميون" على مقاليد الأمور، وذلك لاتساع دولتهم من أقاصى "المغرب" إلى "نهر الفرات"، وامتداد سلطانهم إلى "الحجاز" و"اليمن" أيضاً، فكان طبيعياً أن يهتموا اهتماماً واسعاً "بديوان الإنشاء"، وقد بلغ من اهتمامهم به أن ألحقوا به دائماً "كبار النحاة"، و"اللغويين" لمراجعة الرسائل قبل صدروها من الديوان، وكان ممن اختاروه فى ذلك "ابن بركات" و"ابن برى" النحوى المشهور، وكان لمن يلتحق "بديوان الإنشاء" مكانة كبيرة فى عهد الأيوبيين، ويتولاه للقائد المظفّر "صلاح الدين الأيوبى" "القاضى الفاضل" مع قيامه على وزارته، ويشرك معه "العماد الأصفهانى" فى الكتابة، أما فى إقليم الشام فقد ظل كثير من بلدانها تابعاً "لمصر" فى زمن "الدولة الفاطمية"، ولم ينشأ حينئذ فى "دمشق" أو غيرها "ديوان إنشاء" ينهض الكتّاب فيه بالكتابة الديوانية حتى إذ أطلّ "دمشق" حكم دولة "الأتابكة" (٤٩٧ – ٥٤٩هـ) رأيناها تعنى بهذا الديوان، ولعل أهم كتّابهم "صفى

---

[١] عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٢٠٣ .

[٢] محاضرات فى الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر ص٥١ وما بعدها .

الدولة"، ومن أشهر الكتّاب فى الجزيرة العربية فى هذا العصر "أبو إسحاق الصابئ"، و"أبو حيان التوحيدى"، و"الحريرى"، والخوارزمى"، و"ابن العميد"، و"الصاحب بن عباد"، و"بديع الزمان الهمزانى".

ثقافة الكتَّاب

تعددت ثقافة هؤلاء الأعلام فى هذا العصر بتعدد العلوم والثقافات وانتشارها فشملت الثقافة الدينية، والعلوم الداخلية التى ترجمت، وشملت أيضاً الإلمام بسياسة الملك وتدبيره، وبالنظم الاقتصادية التى تسير عليها الدولة،من جباية الخراج، وتحصيل للجزية وحساب للأموال، والمصارف والموارد، ومن ثم عب الكتاب من كل ميادين الثقافة واتصلوا بالفلاسفة والمناطقة، وشاركوهم فى الإلمام بمسائل هذين العلمين، وفى الإحاطة بفروعهما، وكان الأدب فى رأيه هو الأخذ من كل فن بطرف، ويروى عن "الصابئ" أنه كان مع معرفته بأحكام الإسلام وإحاطته بثقافة العربية وآدابها ، واتسع العلم بالهندسة والهيئة ، والرياضيات، وكذلك كان "ابن العميد" متفوقاً مع الثقافة الأدبية الواسعة فى الفلسفة والمنطق والهندسة والطبيعة، والتصوير وغيرها .

ويورى "ابن مسكويه" عنه أنه كان أكتب أهل عصره، وأجمعهم للكتابة، وحفظاً للغة والغريب، وتوسعاً فى النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعر وشعراء الجاهلية والإسلام، وأما تأويل القرآن الكريم ، وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة بأخلاق فقهاء الأمصار فكان منه أرفع درجة ، وأعلى رتبة.

وكذلك كان "الصاحب" من المحدثين المتكلمين من المعتزلين، متبحراً فى علوم اللغة بصيراً بالنقد، مشاركاً فى الطب... وكذلك

الأمر فى "الخوارزمى"، والبديع، و"أبى حيان التوحيدى" الذى كان يلقب "بالجاحظ الثانى"، وسواهم [1].

مذهب "ابن العميد فى الكتابة وخصائصه :

التعريف به : "أبو الفضل محمد بن العميد بن أبى عبد الله الحسين" الكاتب، فارسى الأصل، من مدينة "قم"، كان أبوه مترسلاً بليغاً، فنشأه على الأدب، ودرّبه على الكتابة وغذاه بالعلم، فبرع فى الإنشاء والترسل، وتوسع فى الفلسفة والنجوم، وكان وزيراً "لركن الدولة بن بويه الديلمى"، ويسمى "ابن العميد" بين الأدباء "الجاحظ الثانى". توفى سنة ٣٦٠هـ[2].

مذهبه فى الكتابة وخصائصه :

كان عصر "ابن العميد" عصر تأنق وزخرف، وقد استحدث أسلوباً جديداً، متناسب الفِقَر، أنيق الديباجة، بديع الوشى، وكان متفنناً فى أسلوب الكتابة، متفنناً فى ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة، بدئت الكتابة "بعبد الحميد"، وختمت "بابن العميد".

وهو إمام الطبقة الثالثة: التى تميل إلى إثارة الوجدان، ويلتزم أصحابها السجع القصير، والجناس، وتضمين الملح من التاريخ والعلوم، والتوسع فى الخيال والتشبيه، مع إجادة المعنى وسلامته، ومن رجالها : "الصاحب بن عباد"، و"الخوارزمى"، و"الصابئ" وغيرهم [3].

ويقول الدكتور/ "شوقى ضيف" فى مذهبه وخصائصه: "من يقرأ ما اقتبسه من كتاباته يؤمن بأنه هو الذى أعطى الكتابة فى عصر الدول والإمارات صيغتها التى ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها، وهى صيغة

---

(1) دراسات فى الأدب العباسى ص١٢٨ وما بعدها : د/ عيد عبد الرحمن.

(2) تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ١١٩/٢ ، وتاريخ الأدب العربى : أحمد حسن الزيات ص٢٦١ .

(3) المرجع السابق ص٢٤١ وما بعدها .

قامت على أساسين كبيرين: أولهما السجع وكان معروفاً من قبله فى الدواوين العباسية، ولكنه أدخل عليه ضروباً من الموازنة فى السجعتين المقولتين، والأساس الثانى لم يكن متبعاً قبله، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع، فالسجع وحده لا يكفى ،بل لا بدّ أن تصاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق، وما إلى ذلك من محسنات البديع وسنسوق مثالاً لذلك من كتابٍ كَتَبَه عن "ركن الدولة بن بويه" إلى "ابن بلكا" عند عصيانه عليه ، مغتنمها لكلامه بقوله: "كتابى إليك،وأنا متأرجح بين طمع فيك، ويأس منك ، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حزمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرها يوجب حقاً ورعاية، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعها بحارث غلول وخيانة، وتتبعها بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويسقط كل ما يدعى لك".

وهذا مثال من كتاباته بين لنا المنهج الذى اتبعه "ابن العميد" فى كتابه، حيث يلتزم السجع، ويوازن بين السجعات، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية، وجعلها موازنة لها أدق موازنة، مسجعة "تدل بسابق حزمة" توازنها فى دقة السجعة التالية لها "تمت بسالف خدمة".

كما أنه يكثر من الطباق، مثل "طمع .. ويأس" كما يكثر من الجناس، مثل: "سابق .. سالف"[١].

مدرسة الصاحب بن عباد:

"أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس الصاحب"، وسمى بذلك لأنه كان صاحب "مؤيد الدولة"، ويكنى "أبو القاسم"، ويلقب "بالصاحب" كافى الكفاية، وقد ولد فى "اصطخر"، وقيل: إنه ولد فى "الطالقان" سنة أربع وعشرين وثلاثمائة للهجرة النبوية الكريمة، ودرس على أبيه "بالرى"، وأخذ عنه مذهبه الدينى والسياسى، وأكمل دراسته بعد ذلك "ببغداد"، فلما آب إلى وطنه بدأ حياته العلمية فى ديوان الوزير "أبى الفضل بن العميد" وكانت مدة وزارة

---

(١) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) : د/ شوقى ضيف ص٦٥٦ .

الصاحب ثمانى عشرة سنة وشهراً استطاع فيها أن يشجع العلم والأدب، وكان كثير البر للأدباء والعلماء، وكان هو أيضاً كاتباً وشاعراً. توفى "بالرى" سنة ٣٨٥هـ [١].

وقد سار "الصاحب بن عباد" على مذهب أستاذه "ابن العميد"، وزاد عليه فى الزينة اللفظية، ولاسيما فى السجع والجناس، حتى قيل فيه: لو أن سجعه تَنْحَلُّ بموقعها "عروة الملك"، ويضطرب بها حبر الدولة، لما هان عليه أن يتخلى عنها، وقد كان له ذوق سليم فى صوغ الشعر، ونظر صادق فى نقده، ولم تقصه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف، فصنف فى اللغة كتاب "المحيط" فى سبعة مجلدات، وكتاب "الإمالة"، والكشف عن مساوئ "المتنبى"، وغير ذلك، وأكثر فضله فى تشجيع الأدباء، وتنشيط العلماء وإذكاء شعلة الأدب.

ويقول الدكتور/ شوقى ضيف عن أهم خصائص رسائله : "إن الصورة العامة لرسائله هى السجع، والبديع، والتفنن فى استخدامها تفنناً يدل على مهارة واسعة، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه، وسجية من سجاياه.

من رسائل "الصاحب" تهنئته بميلاد طفلة :

"أهلاً وسلهاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار والأولاد والأطهار والمبشرة بإخوة يتناسقون، نجباء يتلاحقون.

فلو كان النساء مثل هذى ∴ لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ∴ ولا التذكير فخر للهلال

فادرع يا سيدى اغتباطاً، واستأنف نشاطاً، فالدنيا مؤنثة، ومنها خلقت البرية، وفيه كثرت الذرية، والسماء مؤنثة، وقد زينت بالكواكب، وحليت بالنجم الثاقب، والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان، وملاك الحيوان، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، ولها بعث المرسلون،

---

(١) تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ١٦٨/٢ وما بعدها .

فهنيئاً هنيئاً ما أدليت، وأوزعك الله شكر ما أعطيب، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد، وما بقى الأبد، وكما عمر لبد

أبو القاسم إسحاق الصابئ :
"إبراهيم بن هلال بن إبراهيم" ، يكنى "بأبى إسحاق"، أصل آبائه من "حران"، ولد "ببغداد" سنة ٣١٣هـ، وكان "عز الدولة البويهى" دعاه إلى الإسلام ليجعله وزيراً له، فأبى ويبدو أنه أحس فى نفسه مبكراً نحو الأدب،وأن يصبح من كتاب الدواوين، فأخذ يكب على ديوان الرسائل، وحاول "عز الدولة" أن يدخله فى الدين الحنيف، فكان يعتذر، وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين، وتوفى سنة ٣٨٣هـ [١].
وقد نشر "شكيب أرسلان" مختارات من رسائله فى مجلدين، وهى مطبوعة بطوابع السجع، والمحسنات البديعية، وفيها يقتبس من القرآن الكريم، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية، وبعض الأشعار القديمة والحديثة، وكان يطيل فى التحميدات أول الرسائل، حتى ليظن قارئوه أنه من جلة المسلمين، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :
الحمد لله العلى العظيم، الأزلى القديم، المتفرد بالكبرياء والملكوت، المتوحد بالعظمة والجبروت، الذى لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات،ولا تحصره قرارة مكان ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها، فاطر السماوات وما تظل، وخالق الأرض وما تقل".
وقد أشاد "ابن الأثير" برسالة "الصابئ" التى أعلن فيها عزل الخليفة "المطيع بأمر عز الدولة"، يختار "البويهى"، وهى نموذج أساليب النثر الفنى، المبنى على أسس المبادئ الفقهية

([١]) الأدب العربى : بروكلمان ١١٩/٢ ، وعصر الدول والإمارات : د/ شوقى ضيف ص٤٤٣ .

الثعالبي :
هو "عبد الملك بن محمد بن إسماعيل"، ويكنى "أبو منصور الثعالبى"، وهو لغوى وأديب عباسى، وقد وُلد "بنيسابور" سنة "خمسين وثلاثمائة" للهجرة، وقد برع فى اللغة والإنشاء، والتدوين الأدبى، والتراجم ، وانصرف إلى التدوين فيها جميعاً، وأشهر مؤلفاته "يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر"، وهو ديوان تراجم وشعر لأشهر مشاهير الشعراء وكتاب "أحسن ما سمعت"، وغير ذلك من الكتب، وتوفى "الثعالبى" سنة "تسع وثلاثين وأربعمائة" للهجرة الكريمة،وقد أخذ "الثعالبى" فيما أخذ فيه من أهله من العمل، ولكن نفسه المتوثبة، ورغبته العارمة فى العلم والمعرفة حببت إليه أن يطلع، ويدرس فعكف على هذا التراث الطيب بنفس مشوقة، ولكنه ما كاد يرقى أول "الدرج" حتى وجد نفسه مطالباً بما تطالب به الحياة الناس، من جد يتطلبه الرزق، وجهد تفرضه لقمة العيش، فاشتغل معلماً للصبية، حتى استطاع أن يلحق بركب الملوك،وأن يخدمهم بكتبه، فقد ضمه "بلاط الأمير شمس المعالى "قابوس بن وشمكير"، واتصل "بالصاحب بن عباد" ، وخدمه بكتابه "لطائف المعارف"، واستطاع ذكاؤه وثقافته أن يجعل مكانة طيبة فى البيت "الميكالى" وأصبح "أبو منصور" صديقاً وفياً للأمير "أبى الفضل عبيد الله الميكالى"، وقد أتاحت له تلك الحياة من أسباب الثقافة ما لم يُتح لغيره، كما أتاحت له أن يجالس الخاصّة، فأصبح عملاقاً من أدباء عصره، ولا غَرْو أن نراه وقد تفرّد بتسجيل الأدب العربى خلال هذه الفترة ولا غرابة فى أن نحسّ بهذا الجمال المتدفق، ونحن نطالع كتبه حيث إنك ترى فيها تراث العرب
وقد عرض عرضاً جديداً يجذب النفوس نحوه، ويأخذ بالقلوب إلى رِحابه، وقد رزق "أبو منصور الثعالبى" القبول والنجاح ما مكّن له فى قلوب معاصريه، ثم فى قلوب من أتَوْا بعدهم من الأدباء والمؤرِّخين، وهو كما يقول "الحصرى" : فريد دهره، وقريع عصره، ونسيج وحده.
وهو كما يقول عنه "ابن بسّام" صاحب "الذخيرة": "رأس المؤلِّفين فى زمانه، وإمام المصنِّفين بحكم أقرانه، سار ذِكْره سَيْر المثل، وضُربت إليه آباط الإبل وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب . وقد كان يقول

الشّعر على طريقة المتأدِّبين والكتّاب المترسِّلين، فهو يعدّه فناً له أشكاله وقوانينه أكثر منه فناً يعتمد على الإلهام وانتفاضة الشعور، ومن هنا جاء شعره أقرب إلى الصّنعة، وأَلْصَق بالمحسِّنات اللّفظية[١].

الْخُوارزمي :

هو "محمد بن عباس الخوارزمى" ، ويكنى "أبو بكر"، وكان أصل آبائه من "طبرستان"، وولد "بخوارزم" سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة النبوية الكريمة ثم فارقها وهو فتىّ السّن ابتغاء العلم، والتماساً للرزق، وتقلَّب فى خدمة كثير من الملوك والأمراء، ولقى "سيف الدولة" وخدمه بالشام، واستوطن فى "نيسابور"، واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، وعاش قرير العين، ناعم البال بين مجالس الدرس، ومجالس الأُنس، وفى آخر عمره نافسه "بديع الزّمان الهمزانى"، وكان هذا أحدث منه سناً، فزعزع مكانته، وغض من جاهه، وتوفى – رحمه الله تعالى – سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة للهجرة [٢].

وكان "الخوارزمى" يتمتع بمكانة سامقة فى الأدب والكتابة، كما كان يتمتع بسرعة الحافظة، وقوة الذاكرة، وشاع ذلك حتى قيل : "إنه قصد "الصاحب بن عباد"، فلمّا وقف ببابه وهبَّ الحاجب إلى "الصاحب"، وقال: "إن بالباب أديباً يستأذن فى الدخول" فقال الوزير: "قل له : ألزمتُ نَفْسِى ألا يدخل علىّ إلا أديب يحفظ "عشرين ألف بيت" من شعر العرب"، فقال "أبو بكر" للحاجب: "ارجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أخبر بذلك "الصاحب بن عباد" قال: "هذا أبو بكر الخوارزمى"،

([١]) مقدمة كتاب التمثيل والمحاضرة لأبى منصور الثعالبى: للأستاذ / عبد الفتاح محمد الحلو .

([٢]) تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ٢/١١٠ ، وتاريخ الأدب العربى : لأحمد حسن الزيات ص٢٦٨ .

وكان "الخوارزمى" مع ذلك إماماً فى اللغة، عالماً بأشعار العرب وأخبارها، واقفاً على أسرار اللسان، وخواص التراكيب، و"الخوارزمى" فى النثر يُعدّ من طبقة "ابن العميد"، وشعره بين الجيّد والرّدئ [١].

وقد روى صاحب "يتيمة الدهر" نماذج من شعره، أمّا رسائله المسجوعة فى كل فن من الفنون الأدبية، فقد وُصِفت باسمه، وخلّدت ذكره [٢].

ومن كلامه الرجال حصون ، يبنيها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وينبع بثمرها البر واليُسر، ويمحقها الجفاء والكبر، وإنه لا مال إلا برجال، ولا صُلح إلا بعد قتال والجبان مقتول بالخوف قبل أن يُقتل بالسّيف، والشّجاع حيّ وإن خانه العمر، وحاضر وإن غيّبه القبر، ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب".

ومن شعره فى الحكم :

لا تصحب الكسلان فى حالاته ∴ كم صالح بفساد آخر يَفْسَدُ

عدْوى البليد إلى الجليد سريعةٌ ∴ والجمر يُوضع فى الرّماد فيخمد[٣]

وقد خلّف "الخوارزمى" ديوان رسائل كبير، وفى كتاب "يتيمة الدهر" "للثعالبى" طائفة كبيرة من أشعاره فى النسيب ، والغزل ، والمديح ، والرثاء ، وفى فنون متباينة وفى مقدمتها "الهجاء"[٤].

([١]) تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ٢٦٨/٢ .

([٢]) ذاته ١١١/٢ .

([٣]) تاريخ الأدب العربى : لأحمد حسن الزيات ص٢٦٩ وما بعدها .

([٤]) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) : د/ شوقى ضيف ص٥٩٨ .

القاضى الفاضل :
هو "أبو على أبو عبد الرحيم"، ولد بمدينة "عسقلان" "بفلسطين العربية"، وأخذ العلم عن أبيه "قاضى عسقلان"، ثم وفد إلى "مصر" فى أواخر الدولة الفاطمية؛ ليتعلم الكتابة فى الديوان، ورحل إلى مدينة "الإسكندرية"، فدخل "ديوان ابن حديد"، وكان يومذاك قاضيها، ثم قدم "القاهرة"، وكتب فى "ديوان الظّافر"، وبعد قيام الدولة الأيوبية استوزره الملك "صلاح الدين الأيوبى"، وقد توفى سنة "خمس وتسعين وخمسمائة" للهجرة، وقد كانت له منزلة سامقة، ومكانة باسقة فى الكتابة، فقد خالط القاضى الفاضل الكتّاب فى مختلف البلدان، ووقف على المناصب الكتابية المتباينة فى الشام والعراق ، و"مصر"، فجرّته المحاكاة ، والمفاضلة ، وقوة الشخصية إلى ابتكار طريقة جديدة، نماها على أصول طريقة "ابن العميد"
وكانت مُغرقة في "التورية"، و"الجناس" حتى أصبحت الكتابة فى عهده طِلاءً خَدَّاعاً من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى السَّقيم، وقد اقتفاها عبّاد الصنعة من أشباه الكتّاب [١].
ومن كلامه الدّالّ على ما أومأنا إليه آنفاً قوله وهو يصف فيضان النيل من رسالة قال: "وأما النيل فقد ملأ البقاع، وانتقل من الأصبع إلى الذراع، وكأنما غَارَ على الأرض فغطّاها، وعَارَ عليها فاستنفقذها وما تخطَّاها، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ولا مرغوب مرهوب إلا إياه"[٢].
"العماد الأصبهاني" :
هو "عماد الدين محمد بن محمد"، ولد "بأصبهان" سنة ٥١٩ للهجرة، وفد به والده إلى "بغداد"، واستقر بها، والتحق بالمدرسة "النظامية"، وتفقه بها، وثقف علوم العربية وعاد مع أبيه إلى "أَصْبهان" سنة "اثنتين وخمسين وخمسمائة" للهجرة، ثم آب إلى "بغداد" وتولى نظر

---

(١) تاريخ الأدب العربى : للزيات ص٢٧٩ وما بعدها .

(٢) المنتخب من أدب العرب: للدكتور / طه حسين وآخرين ١٨٢/١ .

"البصرة"، ثم نظر "واسط"، وفى سنة "ستين وخمسمائة" للهاجرة سُجن "العماد الأصبهانى" مع من سُجن من أتباعه، وفى سنة "اثنتين وستين وخمسمائة" للهجرة نزل "مشق" فى المدرسة "النورية"، وزار "مصر" ، ثم عاد إلى "دمشق"، فلزم داره يصنِّف ويؤلِّف حتى توفى – رحمه الله تعالى – فى سنة "سبع وتسعين وخمسمائة" للهجرة [١].

وخصائصه الفنية فى الكتابه : أنه يعد من رجال الطبقة الرابعة التى تزعمها "القاضى الفاضل"، وقد نهج "العماد الأصبهانى" نهج إمام هذه الطبقة فى توخِّى "السجع" و"البديع"، ويكثر "الطِّباق" فى رسائله، وأهم محسِّن بديعى أكثر من استخدامه هو "الجناس"[٢].

ومن كلامه فى انتصار القائد "صلاح الدين الأيوبى" على حملة الصليب: "وأخرج من بيت المقدس يوم الجمعة أهل الأحد، وقمع من كان يقول:"إن الله ثالث ثلاثة" بمن يقول: "هو الله أحد"، وأعان الله بإنزال الملائكة والرُّوح، وأتى بهذا النصر الممنوح الذى هو "فتح الفتوح"[٣].

ميزات الكتابة فى هذا العصر:

ومما سبق يستبين لنا بجلاء ووضوح تامَّين أن الكتابة قد تميّزت فى هذا العصر بعدة ميزات ، منها:

- **أولاً :** تناولت الكتابة الموضوعات المختلفة التى كان يتناولها الشعر .
- **ثانياً :** الإكثار من عبارات التبجيل والتَّعظيم .
- **ثالثاً** : مات الكتابة إلى الدقة فى الخيال، وتسلسل المعانى، والاعتماد على الأدلة والحجج والبراهين، وذلك للتأثر بالثقافات الأجنبية الوافدة إلى الأمة العربية .

---

(١) المنتخب من أدب العرب: للدكتور / طه حسين وآخرين ١٨٢/١.

(٢)عصر الدول والإمارات: د/ شوقى ضيف ص٧٨٧ ، وتاريخ الأدب العربى: للزيات ص٢٤٢ .

(٣)عصر الدول والإمارات (مصر ، والشام) ص٧٨٧ .

● **رابعاً:** إظهار البراعة فى تقصى الحوادث والإلمام بأحداث التاريخ(١).

● **خامساً:** يقول الأستاذ "أحمد حسن الزيات" فى ميزان الكتابة : "فلما نزع العرب إلى الترف ، وزاد اختلاطهم بالفُرس أخذوا يتأنَّقون، ويطلبون أساليب القدماء، ثم مالوا إلى الازدواج، والسجع، والتضمين، يعنى تضمين الأشعار والأمثال
فلمَّا ضعفت الخلافة، وقام بالأمر غير أهله سرى الضعف إلى الكتابة، ومالوا إلى زخرف القول، وتدبيج اللفظ بأنواع البديع (٢).

فن المقامات فى الأدب:

المقامة ومعناها الأدبي :

كانت كلمة مقامة فى العصر الجاهلى تعنى مجلس القبيلة أو ناديها :

وفيهم مقامات حسان وجوهها ∴ وأندية ينتابها القول والفعل

وأحياناً كانت الكلمة تتجاوز المكان إلى من يتواجدون فيه، فتعنى الجماعة التى يضمها المجلس أو النادى، كقول "لبيد":

ومقامة غاب الرقاب كأنهم ∴ جن لدى باب الحصير قيام

ثم تطور مضمون الكلمة فى العصر الإسلامى، وأصبحت تعنى المجلس الذى يقوم فيه شخص بين يدى الخليفة أو غيره ، كقول "كعب":

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر ، والشام) ص٧٨٧ ، دراسات فى الأدب العباسى: للدكتور عيد عبد الرحمن قناوى ص١٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربى: للأستاذ / أحمد حسن الزيات ص٢٤٠ .

لقد أقوم مقاماً ما لو يقوم به .:. يرى ويسمع ما لو يسمع الفيل

وأخيراً أصبحت تعنى المحاضرة ، سواء أكان من يقدمها قائماً أو قاعداً، وعندما تقدمت الفنون الأدبية فى العصر العباسى الثانى، وتعددت ألوان الأدب شعره ونثره، اتجه الأدب إلى التذويق والإغراق فى المحسنات البديعية اتخذت المقامة مدلولاً أدبياً.
وكان "بديع الزمان" أول من استخدم لفظ "المقامات" استخداماً يقصد به جنساً أدبياً جديداً زيد على الفنون الأدبية المتداولة فى ذلك الحين [١].
و"بديع الزمان" أول من وضع المعنى الاصطلاحى لكلمة "مقامة" ، فقد أطلقها على مقاماته، وجعلها فى صورة أحاديث تعليمية فيها الكثير من الأساليب اللغوية، والمعانى اللفظية التى تفيد الناشئين، ووضعها فى شكل قصصى.
وقد أصبحت المقامة فى عرف الأدباء: هى الحديث المأثور الذى يخلب اللب، ويأسر الخيال، ويقال على لسان شخص خيالى يحكيه على هيئة قصة، ويزينها بما يشاء من الحكم والأمثال، والمواعظ الكثيرة، معتمداً على السجع فى سردها وتصوير حوادثها [٢].

ظهور المقامات ونشأتها فى الأدب العربي:
ارتبطت نشأة المقامات فى الأدب العربى بفساد الحياتين : الاقتصادية ، والاجتماعية ففى خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى سيطر "البويهيون" على "فارس" و"العراق"، فأدى ذلك إلى انقسام الدولة المترامية الأطراف إلى دويلات كثيرة فى "فارس" و"الشام"

---

(١) الأجناس الأدبية – دراسة تحليلية مقارنة ص١٨١ وما بعدها : د/ حمدان عبد الرحمن – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م.

(٢) دراسات فى الأدب العباسى ص١٥٠ وما بعدها .

و"المغرب" و"الأندلس"، وقد نتج عن هذا الانقسام وجود جماعات حاكمة في هذه الدويلات متمتعة بكل الحقوق ، تقابلها كثرة كادحة قد كتب عليه الحرمان والشقاء، وأصبح لزاماً على الأدباء الذين يتطلعون إلى الحياة الكريمة أن يتصلوا بهؤلاء الحكام لمدحهم؛ طمعاً فى المال والجاه، وأصبح الأدب وسيلة للكسب، فلا غرابة أن تظهر جماعة من فقراء المجتمع يتخذون من الأدب وسيلة للتسول أحياناً والنصب على العامة أحياناً أخرى . وقد واكب هذا الاضطراب اضطراب آخر فى الحياة الأدبية، ومحاول كل أديب إظهار التفوق على الآخر فى مجال الصنعة، والإكثار من المحسنات البديعية

وفى فن المقامات وصف لكثير من العادات والتقاليد التى كانت منتشرة بين الطبقات الوسطى والدنيا فى العالم الإسلامى، وقد عزى "الحريرى" ابتداع هذه المقامات إلى "بديع الزمان الهمزانى"، وقد تبع "الحريرى" فى هذا الرأى كل من تصدوا لدراسة المقامات فى القديم كما وافقه معظم الباحثين المعاصرين.

بين القصة والمقامة:

وتعتبر المقامة نواة للقصة فى أدبنا العربى، وقارن الأستاذ/ "فخرى أبو السعود" بين مقامات البديع، وبين أشباهها فى الأدب الإنجليزى، فيقول: "بدأت تنموا بذور القصة الفنية التى تدرس المجتمع، وتحلل الشخصية، وتهتم بالتصميم الفنى، والفكرة الموحدة ويبدو كل ذلك فى مقامات "بديع الزمان"، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه الوجهة مكان "أديسون"، و"ستيل" فى الإنجليزية، وقد أبدى فى ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف، وبراعة الفكاهة، وتنوع الموضوعات ما هو جديد بأسمى أنواع القصص واخترع شخصية"أبى الفتح الإسكندرى"، وهذه الشخصية تعين من مراحل تطور القصة العربية، نفس المرحلة التى تعينها شخصية "سير روجر" من تطور القصة الإنجليزية فمقامات البديع فى الأدب

العربى بمثابة مقالات "أديسون" و"ستيل" فى الأدب الإنجليزى تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية.
بَيْد أن تطور القصة العربية وقف عندها الحد، لا يتخطاها، ولم يبلغ مرحلته التالية لأن الأسباب لذلك لم تكن مكتملة [1].
وفى أصل المقامة ومعناها ومنزلتها من القصة يقول الدكتور/ "محمد غنيمى هلال": "المقامة فى الأصل معناها المجلس، ثم أطلقت على ما يحكى فى جلسة من الجلسات على شكل حكاية ذات أصول فنية . وكان يمكن أن يكون هذا الجنس أخصب جنس أدبى فى القصة والمسرحية فى الآداب العربية، لولا أنه سرعان ما انحرف عن النقد الاجتماعى فى صورة جدية إلى المحاكاة اللفظية، والألفاظ اللغوية، والأسلوب المصطنع، الزاخر بالحلية اللفظية[2].
مقامات البديع وخصائصها :
التعريف به : "بديع الزمان ، أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمزانى" ولد سنة ٣٥٨هـ فى "همزان"، وأدَّبه "أبو الحسن أحمد بن فارس النمرى"، وفى سنة ٣٨٠ قدم إلى "جرجان"، وانتقل منها سنة ٣٨٤هـ إلى "نيسابور"، ولقى فيها "الخوارزمى"، وهو فى ذروة شهرته، ثم طاف "خراسان"، و"سجستان"، حيث نزل منزلة الكرامة عند الأمير "خلف بن أحمد"، وتوفى سنة ٣٩٨هـ.

مقاماته :
البديع مبتكر فن المقامات فى الأدب العربى، ويقول "الحصرى" فى "زهر الآداب" : "إنه عارض بمقاماته كتاب "الأربعين حديثاً" "لأبى بكر محمد بن الحسن بن وريد الأزدى" وقد عد أقوال المكذبين، وصاغ منها صوراً من حياة الأدباء السيارين، حافلة بالحركة التمثيلية، وتدور فيها المحاورة بين شخصين، سمى أحدهما:

---

(1) القصة القصيرة فى مصر منذ نشأتها سنة ١٩٣٠ : عباس خضر ص١٨ – الدار النوبية للطباعة ١٩٦٦م.
(2) الأدب المقارن : د/ محمد غنيمى هلال ص٢٢٣ : ٢٢٤ .

"عيسى بن هشام"، والأخر: أبا الفتح السكندرى".
وقد كتب البديع أربعمائة مقامة فى الكدية وغيرها ،ولم يعثر منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة، ولحسن الديباجة ، وأناقة الأسلوب فيها المقام الأول فأسلوبها طلى شهى، والموضوع الأساسى الذى تدور حوله جل مقاماته هو : الكدية والاستجداء، ولكى ينجح البطل فى خداع الناس، كان ينمق أسلوبه، ويطعمه بالأشعار والحكم، والأمثال ويزينها ببعض الآيات القرآنية الكريمة وروح الفكاهة هى الطابع المشترك الذى يميز كل المقامات ، كى يستطيع البطل أن يصل إلى قلوب ضحاياه، ويتمكن من الاحتيال عليهم وتعتبر مقامات البديع من هذه الناحية من عيون الفكاهة فى الأدب العربى[١].
ويقول الدكتور/ "شوقى ضيف": "فى مقاماته، يمتاز البديع فى مقاماته بخفة الروح وميل إلى الدعابة، والعبارات المسجوعة، وتدور حول "الكدية" أو الشحاذة الأدبية، أما المقامات الخمسة المتصلة "بخلف بن أحمد" ، فإنها تخلو من "الكدية"، وقد وضع البديع المقامات فى إطار السجع، وألوان من الأخيلة والجناس، ومراعاة النظير، ولا ريب أن سجعه فى مقاماته – كرسائله – سجع رشيق ، لما يمتاز به من قصر، ومن حسن انتخاب لألفاظه من المقامة القريضية للبديع.
حدثنا "عيسى بن هشام" قال: "طرحتنى النوى مطارحها، حتى إذا وطئت "جرجان" الأقصى استظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها (أعملت) يد العمارة، فأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة. فجعلنا يوماً نتذاكر القريض وأهله، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ، ينصت وكأنه لا يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال : أصبتم عذيقة ووافقتم جزيلة. فدنا وقال: "سلونى أجبكم، واسمعونى أعجبكم"، فقلنا: "ما تقول فى "امرئ القيس"، وقال:

(١) الأجناس الأدبية دراسة تحليلية مقارنة : د/ حمدان عبد الرحمن ص١٨٦ ، ١٨٧ .

"هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير فى وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسباً، ولم يجد القول راغباً، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه"، قلنا: "فما تقول فى "النابغة"، قال: "ينسب إذا عشق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، ولا يرمى إلا صائباً""[1].

مقامات الحريري

التعريف به : هو "أبو محمد القاسم بن على بن محمد الحريرى البصرى" ولد سنة ٤٤٦هـ، وسكن "البصرة"، وأخذ يختلف إلى علماء عصره، يأخذ عنهم الحديث والفقه ، والأدب، وهو أحد أعلام البلاغة، واللغة، والأدب، والإنشاء، ومقاماته التى حاكى بها البديع، أربت عليها اشتهاراً ومنفعة، وقل أديب منذ وجدت لم ينتفع أو يعجب بها، توفى سنة ٥١٦هـ.

مقاماته : ويعتبر مقامات الحريرى آية براعته، التى ليس لها لاحقة مماثلة، وكأنما أغلق الأبواب بكلتا يديه بعده، فلم يستطع أحد أن يبلغ مبلغه فى تلك المقامات، وقد شهد بذلك "الزمخشرى" ، فقال:

أقسم بالله وآياته ∴ ومشعر الحج وميقاته

إن الحريرى حرى أن ∴ تكتب بالتبر مقاماته

ويقول "السمعانى" عنه : "لم يكن له فى فنه نظير فى عصره".

ويقول" العماد الأصفهانى": "طلعت ذكاء (شمس) ذكائه فى المغرب والمشرق ... حريرى الوشى، عراقى الوشم (النقش)، لؤلؤى النظم، كلامه يتيمة البحر، وتميمة النحر، وكان الناس يزدحمون عليه لسماع مقاماته،ويقال: إنه أجاء لسبعمائة طالب أن يرووها عنه، وفى ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته فى عصره من منزلة أدبية رفيعة.

([1]) النصوص الأدبية فى العصر العباسى : د/ مصطفى محمد يونس ص١٣٨ .

والمقامات أقاصيص قصيرة، تصور مواقف متنوعة، لأديب متسول يحتال ببيانه وفصاحة لسانه، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير، وهى تزخر بحركة تمثيلية، غير أنها لا تتسع لتصوير حياة مجتمعها، فقد كانت غاية "الحريرى" منها غاية بلاغية فحسب.

ونرى "الحريرى" يذكر فى مقاماته مقصده منها ، إذ يقول: "أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها به من الآيات، ومحاسن الكتابات، ورصّعته منها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجى النحوية، والفنادى اللغوية، والرسائل المبتكرة والخطب المحيرة، والمواعظ المبكية، والأضاحيك الملهبة، ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القصص لذاته، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر، فضلاً عما التزمه من السجع، وكان ذوق التصنيع عم فى الكتابة، فلم يقف الكتّاب عند السجع، والمحسنات البديعية، بل أخذوا حتى يثبتوا براعتهم الأدبية".

وعن التصنيع والصنعة عند "الحريرى" يقول: "أحمد حسن الزيات": "وهو من ساقة أتباع "ابن العميد"، ومن المجتهدين لظهور الطريقة الفاضلية، بالقصد إلى البديع والمبالغة فى الصنعة والإفراط فى تدبيج اللفظ، والتفريط فى جانب المعنى، حتى تراءت معاينة من خلال ألفاظه عليلة ضئيلة، مثل العروس المسلولة جملوها بالأصباغ، وأثقلوها بالغلائل والحلل، ومقاماته من أجود أثاره، صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه، وفيها تكلف لا تسمح به طبيعة البدوى الذى قيلت على لسانه.

من المقامات الفلسفية من مقامات الحريري :

فاتفق حين دخلت تغليس أن صليت مع زمرة مفاليس فلما قضينا الصلاة وأزمعنا الانفلات، برز شيخ بادى اللغوة ، بالى الكسوة والقوة، فقال: عزمت على من خلق من طينة الحرية، وتفوق در العصبية ، إلا ما تكلف لى لبثة واستمع منى نفثة ثم له الخيار من بعد، وبيده البذل والرد، فعقد له القوم الحبا ورصوا أمثال الربا، فلما أنس حسن إنصاتهم، ورزانة حصاتهم، قال: "يا أولى الأبصار الرافقة، والبصائر الرائقة، أما يغنى عن الخبر العيان، وينبئ عن النار الدخان شيب لائح،

ووهن فادح وداء واضح، والباطن ناضح، ولقد كنت ممن ملك ومال وولى وآل، ورفد وأنال، ووصل وصال، فلم تزل الحوائج تسحت والنوائب تنحت، حتى الوكر قفر، والكف صغر والشعار ضير، والعيش مر، والصبية يتضاغون من الطوى، ويتمنون مصاصة النوى ولم أقم هذا المقام الشائن ، وأكتشف لكم الدفائن إلا بعد ما شقيت ولقيت(١)، وشبت مما لقيت، فليتنى لم أكن بقيت ..."الخ.

أثر المقامات فى اللغة والأدب :

لقد أثرت المقامات فى اللغة العربية وآدابها، لما حفلت به من مفردات غريبة وتراكيب بليغة، وأساليب بديعة ، وصور فنية جميلة، ويمكن إيجاز ذلك فيما يلى :

- تعد المقامات ديواناً حافلاً بالألفاظ اللغوية .
- شاع أسلوبها وانتشر فى الأوساط العربية شرقاً وغرباً .
- أفاد الناشئون والمتأدبون من الألفاظ اللغوية، والتراكيب الأدبية،منذ نشأتها حتى الآن.

وفى قيمتها اللغوية والأدبية يقول الأستاذ / "أحمد حسن الزيات" :"وليس من المقامة جمال القصص، ولا حسن الوعظ، ولا إفادة العلم، وإنما هى قطعة أدبية فنية يقصد بها الفن للفن، وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب فى اسلوب مسجوع أنيق الوشى يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد،ولم تراع قواعد الفن القصصى فيما كتب من هذا النوع ، فلم يعن كاتبوا المقامات بتصوير الخطابات، وتحليل الأشخاص وإنما صرفوا عملهم إلى تحسي اللفظ وتزيينه.

الخطابة فى العصر العباسى الثانى وأهم موضوعاتها :

كان للخطابة فى صدر هذا العصر مكانة فى النفوس، وسلطان على القلوب لاعتماد القوم عليها فى توطيد الملك، وتحميس الجند،

---

(١) أصبت بالقوة .

واستقبال الوفود، وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع، والشأن البعيد، "كالمنصور"، و"المهدى"، و"الرشيد" و"المأمون"، و"داود بن على"، و"خالد بن صفوان"، و"شيبة بن شيبة"[1].

ولا غرو فالخطابة ضرورية لكل مجتمع، فى سلمه وحربه، فهى أداة الدعوة إلى الرأى، والتوجيه إلى الخير، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين، والزعماء والمصلحين، فهى ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية.

ومن المعلوم أن الخطابة تنتعش بوجود الدواعى إليها، والأغراض الباعثة عليها، والموضوعات التى تكون الضرورة ملحَّة ماسَّة للقول فيها، والتصدى لها، والإعلان عنها والدعوة إليها.

وقد توافرت فى العصر العباسى الأول عوامل أدت إلى ازدهار الخطابة وتنوعها – كما رأينا – فلما استوثق الأمر لبنى العباس، وقام الموالى بسياسة الدولة وقيادة الجيش وقل النضال بالسنان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعى إليها وحلت الرسائل والمنشورات محلها فى دفع العظائم، وسل السخائم، وقصرت على خُطب الجُمع والعيدين والزواج، على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس، ويؤمونهم إلى عهد الخليفة "الراضى"، فلما غلَّ "بنو بويه" أيديهم، وحصروهم فى دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاءة من العلماء، فنبغ فى آخر هذا العصر طائفة من الأدباء اشتهروا بهذا النوع من الخطابة . كما اشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم فى كل بلدة، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب "ابن نباتة" خطيب "سيف الدولة الحمدانى" ، وطبيعى أن يشتهر بمصر غير واعظ، ويلقانا فى مفتتح هذا العصر "أبو الحسن على بن محمد البغدادى"، المتوفى سنة ٣٣٨هـ ... وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشئ من خطبه ومواعظه "بالقاهرة".

---

(١) تاريخ الأدب العربى : للزيات ص٢٤٣ .

ونمضى إلى زمن "الأيوبيين"، فيلقانا "إبراهيم بن منصور" المتوفى سنة ٥٩٦هـ، إمام جامع "عمرو بن العاص" وخطيبه ... وطبيعى أن الخطابة فى زمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام[١].

وفى "حلب" بالشام نلتقى "بأبى العلاء المعرى" ... وله كتاب يعرف "بسيف الخطب" فيه خطب الْجُمَع والعيدين، والخسوف والكسوف، والاستسقاء،وعقد الزواج.

ويحتدم الوعظ عند نزول الصليبيين "الشام" ليبث الحمية فى نفوس الناس ... واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم، منهم "بنو العديم" فى "حلب" لعهد "نور الدين"، و"ابن نجا" خطيب "دمشق" ومن الوعاظ المشهورين حينئذ "المهذب الدمشقى"، وفى الجزيرة العربية تلقانا فى "اليمن" المواعظ فى كل زمان ومكان، ومن أشهر الخطباء فى عهد "الرسوليين": "أبو الغيث بن جميل" الملقب "بشمس الشموس"، وكان يعاصره "أحمد بن علوان"، وكان الوعظ مزدهراً فى "حضر موت"، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم، ومن أشهر متصوفيها "أبو بكر العيدروس"، كما وجدت خطب ومواعظ كثيرة فى "البحرين" و"عمان" شأنها فى ذلك شأن جميع البلاد العربية فى الجزيرة، ووراء الجزيرة .

خصائص الخطابة فى هذا العصر :

يمكننا أن نستخلص خصائص الخطابة فى هذا العصر من خلال عرضنا لخطبة من خطب أشهر الخطباء حينئذ ، وهو "ابن نباتة الفارقى" الذى يقول فيه "ابن خلكان" صاحب الخطب المشهورة: "وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها، وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته، وكان خطيب "حلب" أيام "سيف الدولة الحمدانى"، وكان كثير الغزوات ولهذا أكثر "ابن نباتة" من خطب الجهاد؛ ليحض الناس عليه، ويحثهم على نصرة "سيف الدولة"، يقول فى

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر ، والشام) ص٤٦٠ وما بعدها .

الخطبة الثالثة لشهر صفر، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم:
"أيها الناس، تنزَّهوا عن حبِّ الدنيا ، فإن متاعها قليل، وتزوَّدوا بتقواكم، فإن السفر طويل، ولا تطعموا فى هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم: يا عباد الله، الرَّحيل الرَّحيل، هو الموت الذى ما فيه فوت ولا تعجيل، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل، كم ألحق عليلاً بصحيح، وصحيحاً بعليل، وكم أخذ قريباً من قريب، وخليلاً من خليل، فكيف تطمعون فى الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل، فإلى متى هذه الغفلة والقساوة، ولم يبق من العمر إلا القليل، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى فى كماله عن الشَّبيه والمثيل".
وواضحة فى هذه الخطبة الخصائص الفنية لأسلوب الخطيب فى هذا العصر، فلغة "ابن نباتة" فى خطابته عذبة سائغة، وقد بناها على السجع شأنه فى ذلك شأن الخطباء والكتاب فى العصر، فقد عمَّ السَّجع حتى فى الكتابات التاريخية .. ويجعه يلذ الآذان حين تصغى إليه لسهولته، وخفته وبراعته فى صوغه، حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد وبهذه اللغة الصافية الحلوة، كان "ابن نباتة" يعظ الناس فى أيام الجمع، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم، ونحسّ بصلة قوية بين خطبه وخطب "على بن أبى طالب" فى نهج البلاغة، وبدون ريب كان فى خطابته يستعين ببيانه الرائع.

ازدهار الشعر فى هذا العصر وأسبابه:

ازدهر الشعر فى هذا العصر، وتعددت اتجاهاته، ونشط نشاطاً واضحاً فى كل أنحاء الجزيرة ، فقد شهد هذا العصر انقسام الدولة وتفرقها إلى دويلات فى الشرق والغرب استقلت عن الدولة العباسية، ووجد الشعر فى هذه الدويلات عناية ورعاية من أمرائها وزرائها، ووجد الشعراء سخاء وعطاء من أمراء هذه الدويلات من أمثال "سيف الدولة الحمدانى"، و"معز الدولة بن بويه"

ومن هنا كان تعدّد العواصم والحواضر فى هذا العصر وتنافس الأمراء على أن يجمع كل واحد منهم أكبر عدد من الشعراء فى دولته أهم الأسباب التى أدت إلى ازدهار الشعر وانتشاره، وكثرة الشعراء فقد عمل كل أمير من أمراء هذه الدويلات على تقريب الشعراء والأدباء إليه، وحرص على أن تنافس دولته "بغداد" فى جذب الأدباء والشعراء إليها، كما أن من أسباب ازدهار الشعر ونهضته تلك النهضة العلمية والأدبية والفنية التى شهدها هذا العصر، فقد جنى العلماء فى هذا العصر ثمرة جهاد العلماء فى العصر السابق، كما انتفعوا بثمرات الترجمة من الثقافات الأجنبية.
ومن هذه الأسباب أيضاً تنافس الشعراء والأدباء الشديد، ومحاولة كل منهم بذل الجهد فى أن يرقى بفنه إلى منزلة عالية تقربه من أهل الحكم.

الشعر فى الجزيرة العربية :
هذه الأسباب وغيرها دفعت بالشعر إلى الازدهار والانتشار فى شتى أنحاء الدولة الكبرى، ففى الجزيرة العربية كانت "مكة" داراً كبيرة للشعر والشعراء، واليمن التى قامت فيها دويلات صغيرة تنافست فى جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم، غير أن أخبار هؤلاء الشعراء فى القرن الرابع الهجرى قليلة.
وقد ترجم "العماد" لشعراء "الحجاز" و"تهامة"، ويريد بها "مكة"،وأول من يترجم لهم "شكر بن أبى الفتوح"، ثم "جعفر بن إسماعيل الحسنى"،ثم "أبو عبد الله بن إبراهيم الأسدى الحجازى"، كما ترجم الكثير من شعراء اليمن "كابن القم"، و"عمارة اليمنى".
وفى "مصر" فى عهد الدولة "الإخشيدية" نشط الشعر نشاطاً كبيراً، فقد ترجم "الثعالبى" فى كتابه "اليتيمة" لطائفة من شعرائها، مثل: "ابن أبى العصام"، و"ابن طباطبا الحسنى الرس"، ونزل "مصر" فى عهد "كافور"، و"المتنبى"، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة، وممن نزلها من الشعراء أيضاً "كشاجم"،و"الناشئ الأصفر".

ولما تولى الفاطميون حكم "مصر" قصدهم الشعراء، فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا، وكان من أمرائهم ووزرائهم شعراء أيضاً "كالمعز"، و"العزيز"، و"الحاكم" و"المستنصر" ... ووفد على مصر فى زمانهم كثير من الشعراء النابهين فى البلاد العربية أمثال: "ابن الرقعمق الأنطاكى"، و"صريع الدلاء البغدادى"، والتهامى المكى" ... وغيرهم.
ويظل نشاط الشعر المصرى فى زمن "الأيوبيين" بل يزداد نشاطاً على نحو ما يصور ذلك كتاب "بدائع البدائع" "لعلى بن ظافر الأزدى"، ومن الأدلة على ازدهار الشعر فى أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد "العماد" فى خريدته يخص "مصر" بمجلدين ترجم فيهما لمائة وأربعين شاعراً . وأطلقت فتوح "صلاح الدين" وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء فى "مصر" وجميع البلدان العربية .

الشعر فى الشام :

أما فى الشام فقد كانت "حلب" فى زمن "سيف الدولة" أكبر مركز علمى وفلسفى ولغوى، إذ نزلها كثير من العلماء والمتفلسفة واللغويين، من أمثال "الفارابى"، و"أبى على الفارسى"، و"ابن جنى"، غير من كان بها من الأطباء، وعلماء الفلك، وأصبحت مركزاً للشعر والشعراء، إذ لم يبق شاعر كبير فى "الشام" أو فى "العراق"، أو فى "إيران" إلا أَمَّها وأسبغ عليه "سيف الدولة" من نواله حتى ليقول "الثعالبى" : إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب "سيف الدولة" من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر، منهم "كشاجم"، و"السلامى" ، و"السرى الرفاء"، و"الوأواء الدمشقى"، و"النامى"، و"ابن نباتة السعدى"، و"الببغاء".
ومضت "الشام" فى نهضتها الشعرية، وظهر فيها أمثال "عبد المحسن الصورى" و"أبى الرقعمق"، و"الواسانى"[1].

([1]) المرجع السابق ص٦١٠ : ٦١١ بتصرف .

الشعر فى ظلال البويهيين والسلجوقيين :

لقد كان الشعراء كثرة كاثرة فى البيئة العراقية، فقد ترجم "الثعالبى" صاحب كتاب "يتيمة الدهر" لأكثر من سبعين شاعراً، مما يصور ازدهار الشعر آنذاك، وهذا الازدهار قد هيأته عدة عوامل ، منها:

رعاية الخلفاء للشعراء، وكذلك كان "أمراء بنى أمية" ووزراؤهم؛ حيث إنهم أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز، وليس ذلك فحسب، فقد استقبلوهم فى مجالسهم، وحوَّلوها أو حوَّلها بعضهم مثل "عضد الدولة البويهى" إلى نوادٍ أدبية.

وكان وزراء "بنى بويه" يتنافسون فى جذب الأدباء والشعراء إليهم،وكان أول من اشتهر بذلك منهم "الوزير المهلّبى"، وهو وزير "معز الدولة"،وقد فات "الثعالبى" وهو يؤرخ ويترجم للشعراء فى عهد البويهيين "الأنبارى"، كما نهض الشعر نهضة كبيرة فى عهد "السلجوقيين"، وذلك بفضل الوزير السلجوقى "أَلْب أرسلان نظام الملك" الذى فتح أبوابه للشعراء، وأغدق عليهم العطايا والهبات، وغمرهم بالجوائز، فجاءوا يمدحونه من كل أنحاء "العراق"، ومن أشهر شعراء هذا العصر "ابن السراج البغدادى"[(1)].

([1]) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق - إيران) ص٣٢٣ وما بعدها .

خصائص الشعر فى العصر العباس الثاني:

أولاً : ألفاظ الشعر وأساليبه وأخيلته ومعانيه :

تعددت اتجهات الشعر فى هذا العصر بحسب تعدد الدول والأقاليم، فاتجه الشعر فى "العراق" و"فارس" بصفة عامة إلى التأثر بالنزعة العلمية، لأن البيئة كانت حقلاً خصيباً لازدهار أشعارهم المؤلفة والمترجمة، فكان الشعراء فى الغالب يضمنون أشعارهم أراء أفادوها مما طالعوه مترجماً، وظهرت فى أشعارهم الصبغة العميقة المتقنة، والإكثار من الحِكَم والأمثال، وشاعت فيه النَّزعات الفلسفية والعلمية، وكان ذلك على حساب طبيعة الشعر، وما يلائمه من روعة الخيال، وبراعة التصوير لدقائق الشعر، وأضافوا إلى ذلك كثيراً من المحسنات البديعية.

ومن هؤلاء الشعراء "أبو طالب المأمونى" المتوفى سنة ٣٨٣هـ،و"أبو الفتح البَسْتِي" المتوفى سنة ٤٠٠هـ، و"الطغرائى" المتوفى سنة ٥١٣هـ، و"الأَبيَوْرى" المتوفى سنة ٥٥٧هـ وغيرهم.

وأما فى ديار "الشام" فقد تجلت فى الشعر دقة المعانى، وسعة الخيال، وبلاغة العبارات، ولعل السبب فى ذلك أن هذه الديار موصلة من الناحية المكانية بأرض الجزيرة مهد اللغة العربية، ومن شعراء الشام "أبو الطيب المتنبى" المتوفى سنة ٣٥٤هـ، و"أبو فراس الحمدانى" المتوفى سنة ٣٤٥هـ، و"كشاجم" المتوفى سنة ٣٦٠هـ، و"السّرى الرّفاء" المتوفى سنة ٣٦٣هـ، و"الوأواء الدمشقى" المتوفى سنة ٣٩٠هـ، و"أبو الفتح الببقاء" المتوفى سنة ٣٩٨هـ، و"الشريف الرضى" المتوفى سنة ٤٠٦هـ، و"مهيار الديلمى" المتوفى سنة ٤٢٨هـ و"أبو العلاء المعرى" المتوفى سنة ٤٤٧هـ وغيرهم.

وأما الشعر العربى فى "مصر" فقد تجلت فيه – غالباً – الرقة والعفوية ، ومن شعراء مصر فى هذا العصر "ابن طباطبا" المتوفى سنة ٣٤٥هـ،و"تميم بن المعز" المتوفى سنة ٣٦٨هـ و"عمارة اليمنى" المتوفى سنة ٥٦٩هـ، و"ابن سناء الملك" المتوفى سنة ٦٠٨هـ، و"ابن الفارض" المتوفى سنة ٦٢٣هـ، و"بهاء الدين زهير" المتوفى سنة ٦٥٦هـ.

وإذا نظرنا إلى الشعر فى هذا العصر من ناحية المعنى ، وجدنا طائفة من معانى القدماء مطروحة بين أيدى الشعراء – فى الغالب – يأخذونها، ويحوِّرون فيها أو يضيفون إليها ويزيدون عليها، وكان لهم بجوار هذه الطائفة معانٍ جديدة استقلوا بها واستوحوها من تلك الحضارة التى اتسعت، وتلك المدنية التى انفسحت، وتلك المشاهدات الجديدة التى ملأت عليهم دنياهم.

ثانياً: أغراض الشعر فى العصر العباسى الثاني:

يقول "ابن وهب" الكاتب : "للشعراء فنون فى الشعر كثيرة، يجمعها فى الأصل أصناف أربعة: وهى المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو . ثم يتفرع عن كل صنف من ذلك فنون ، فيكون من المديح: المراثى، والافتخار، والشكر، واللطف فى المسألة، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه، ويكون من الهجاء : الذم ، والعتب، والاستبطاء والتأنيب، وما أشبه ذلك، ويكون من الحكمة: الأمثال، والزهد، والمواعظ، وما شاكل ذلك، وكان من نوعه، ويكون من اللهو: الغزل، والطرد، وصفة الخمر، والمجون، وما أشبه ذلك وقاربه.

وهكذا أراد "ابن وهب" أن يشير إلى أنه من الميسور أن نختصر ونركز، فنجعل أغراض الشعر راجعة إلى أربعة أصول، ونستطيع أن نقسم كل أصل إلى جملة فروع، ولو شئنا لأضفنا إلى "ابن وهب" فريداً منها، بأن نذكر النسيب والتشبيب، وأن نذكر الإخوانيات، والتهانى، وأن نذكر شعر القصص والملاحم ... الخ.

والقصيدة من الشعر لا تقتصر على غرض واحد، بل يتسرب إليها أكثر من غرض ولو أرادها صاحبها لغرض معين، فقصيدة الرثاء مدحاً ووصفاً وحكمة، وقد يقال مثل هذا عن قصائد تصاغ فى

أغراض أخرى، ومعنى هذا أن الأغراض الشعرية تتداخل أحياناً كثيرة وتتمازج أو تتقارب.
وإذا نظرنا إلى أغراض الشعر فى العصر العباسى الثانى نجد طائفة من الأغراض التى كانت معروفة مألوفة قبل هذا العصر، قد بقيت فيه، كالمدح، والهجاء، والفخر، والرثاء والقول فى الزهد، والحكمة، والمثل، ولكن الشعراء أخذوا يقلدون مخاطبة الديار، فى الوجدان ووصف النوق والصحراء، وكان هذا طبيعياً، فقد فتح العرب عيونهم فى هذا العصر على ما شغلهم عن الصحراء وما اتصل بها، وتفتحت عيونهم على دور وقصور ومشاهد حضارية، كادت تنسيهم حياة البادية وذكرياتها.
أما عن موضوع الفخر: فيقول "حنا الفاخوري":
"الفخر من أول فنون الأدب على نظرة الإنسان، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها ، فالإنسان – ما لا يخفى – سجين ذاته منذ الولادة يديم النظر فى مرآتها، مستجلباً محاسنها، صابغاً قبائحها بما يجعلها فى ميزانه دون الناس أجمعين، موازياً فيها بينها وبين غيرها، هذا الإيثار للنفس إذا تجسم فى عبارات سكرية كان الفخر وكان الحماسة"[1].
والفخر هو تعداد الصفات، وتحسين السيئات، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب، وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم، يعبر عن ميلهم الطبعى إلى الأنفة والعزة، كما يعبر عن انتفاخة أعصابهم تحت تأثير العوامل الجوية، والطبيعية وانطلاقها النابض وراء الآمال والذرى.
والذات فى الفخر ذات وتمددات للذات، من خلال خلقية، ومن أصل، ونسب وحزب، ومذاهب وأعمال، وأقوال، ومواقف، وكرامات، وبطولات، وما إلى ذلك مما لا نهاية له، والفخر من ثم أنواع: فخر ذاتى، وفخر حزبى، وفخر سياسى، وفخر دينى وفخر حربى.

([1]) مقدمة الفخر والحماسة – سلسلة فنون الأدب العربى – دار المعارف سنة ١٩٨٠ .

أما الفخر الذاتى: فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد،وما دار حول القبيلة والآباء والأجداد، وأما الفخر الحزبى فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه، وطموحه وأما الفخر الدينى فقد نشأ مع ظهور الإسلام ورافقه فى الفتوح الإسلامية، وأما الفخر الحربى، فهو شعر الحماسة ووصف الجنود وتشجيعهم على القتال وخوض الحروب، وأما الشعر الحماسى فى هذا العصر: فكان يدور حول وصف المعارك والأسلحة المستخدمة فيها كالسهام، والخيول، والأساطيل، وقد تتبع الشعراء فى هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم، وزادوا على ذلك أن فجروا الحكمة بالتصوير الفنى، واهتموا بالصياغة اهتماماً خاصاً، كما اهتموا بالتذويق والتهويل فى الوصف والتصوير.

وقد اشتهر كثيرون فى الشعر الحماسى فى هذا العهد، نذكر منهم "أبا الطيب المتنبى"، و"أبا فراس الحمدانى".

أما أبو الطيب: فهو شاعر الحماسة الحمدانية، وقد أفسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك؛ لأن حروب الحمدانيين مع "الروم" دارت نحو ستين عاماً، وكان لها أصداء واسعة فى طولها وعرضها، وأهم المعارك التى جرت بين "سيف الدولة" و"الروم" معركة "خرشنة" ومعركة "الحدث الحمراء"، ومعركة "الدرب"، وقد سجلها "المتنبى" فى شعره أروع تسجيل وفرج "المتنبى" الشعر الحماسى بشعر المدح، يتضح ذلك فى قصيدته التى قالها فى موقعة "الحدث الحمراء" فقد كانت هذه المعركة بعد أن هدم "الروم" ذلك الثغر، وقوَّضوا أركانه وبعد أن باشر "سيف الدولة" إعادة البناء، فقد هاجمه "الروم" وهو فى زحمة العمل، وعلى رأسهم "برداس فوكاس"، ونشبت الحرب الهائلة بين الفريقين، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها، وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربى

ولم يترك "سيف الدولة" مدينة "الحدث" حتى أتم بناء سورها، فتناول "المتنبى" هذا الحدث العظيم، ونظم فيه قصيدته المشهورة ، والتى مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ∴ وتأتى على قدر الكرام المكارم

يقصد "سيف الدولة الحمدانى".

كما اتسع الهجاء فى هذا العصر عند طائفة من الشعراء، أقذعوا فيه إلى حد بعيد فتناولوا العورات والسّوءات، وعرَّضوا بالآباء والأمهات، وشاع شعر المجون، واللهو على لسان كثير من الشعراء: "كأبى الرقعمق" أحمد بن محمد الأنطاكى و"ابن سكرة".

ونذكر بهذه المناسبة أن "الراغب" "الحسين بن محمد الأصفهانى" المتوفى سنة ٥٠٢هـ أورد كثيراً من الأشعار التى تحت مفهوم "الأدب المكشوف"، الذى يدور حول المجون فى كتابه "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء".

وقد حاول بعض القائلين فى المجون والهزل، ممن كانت لهم مكانة أدبية أو دينية بين قومهم، أن يُفهمونا أن شعرهم الماجن لا يتعدى نطاق القول،وأن لهم من دينهم وخُلقهم ما يمنعهم أن يصدِّقوا قولهم بالعمل ..

وإذا كان لكل فعل ردّ فعل ، وبضدها تتميز الأشياء فقد كان من الطبيعى أن تظهر أغراض فى الشعر تكون كحركة المقاومة لشعر المجون والهزل والتمرد على قيم الدِّين والأخلاق، ومن هذه الأغراض: الإكثار من القول فى الحكمة والفلسفة، والتصوف والزهد، ومن شعراء الحكمة "أبو الطيب المتنبى"، و"المعرى" ومن شعراء الفلسفة: "ابن سينا"، و"الرازى" ومن شعراء التصوف: "الحلاج"، و"الشبلى"، و"القشيرى".

ومن الأغراض التى كثر القول فيها فى هذا العصر:

- وصف المعارك الحربية، وذلك لما تتطلبه الدولة من تمجيد هذه المعارك ، وتخليدها بسبب الصراع الدامى الذى وقع بين المسلمين والمعتدين عليهم خلال الحروب الصليبية.

• وظهر أيضاً الشعر الاجتماعى الذى يتحدث عن بعض مظاهر المجتمع أو مشكلاته أو سيئاته، كما ظهر الشعر العلمى: المتصل بالجدل الدينى، أو النقاش الفكرى وكذلك ظهر نوع من الدراسة الأدبية الشعرية عن طريق الموازنة بين الشعراء
ولقد توسع كثير من الشعراء فى هذا العصر فى الإتيان بالمحسِّنات البديعية واللفظية وتجلى ذلك فى عصر "بنى بويه" بصفة خاصة، ومن أعلام هذا المجال "الدمشقى"،و"أبو الفتح البستى".

الشعر الصوفي :

الشعر لغة الوجدان، وهو نتاج خيال محلق، وشعور مرهف، وفكر رحب، والشعر من الشعور، وما سمت العرب الشعر شعراً إلا لأنها شعرت به، وفطنت إليه، والشعر الصوفى كثير، وغزير غزارة النثر الصوفى، وشعراء الصوفية كثيرون فى كل عصر، ومنهم شعراء قالوا فأفاضوا، واعتمدوا على الارتجال والبديهة فأحسنوا، وأتوا فى شعرهم بغرر المعانى، وروائع الخيال، وبدائع الصور، وجميل التشبيهات، ولطيف المجازات، ونلاحظ أن الشعر الصوفى كان من جانب آخر تحويلاً للشعر الدينى الإسلامى، وتوجيهاً للغزل العذرى المتصوف الهائم فى مسارح الجمال الروحى، وكان قسم منه تغييراً لشعراء الخمريات فى الأدب العربى، وقسم آخر منه -وهو الخاص بوصف الذات الإلهية كان ترقية لفن الوصف فى أدبنا القديم، وشعر المدائح النبوية كان كذلك تموجاً لفن المدح فى الشعر العربى.

عصور الشعر الصوفى :

إذا حكمنا بأن التراث الشعرى الصوفى قد ظهر فى أوائل القرن الثامن الهجرى على أيدى "الحسن البصرى" وتلامذته من بعده، فإننا نستطيع أن نقسمه إلى مراحل زمنية متعاقبة:

• **أولاً :** المرحلة الأولى من عام (١٠٠هـ حتى عام ٢٠٠هـ)، وتشمل القرن الثانى الهجرى بأكمله، والخلافة العباسية فى "بغداد" ... وفيها كان الشعر الصوفى يُكوِّن نفسه بنفسه، وينهض بتقاليده الفنية والفكرية؛ ليؤصلها فى أذهان الناس، وكان هذا الشعر الصوفى

لمحات دالة ، أو قليلاً من الأبيات الموجزة. ومن شعراء هذه المرحلة "رابعة العدوية" (١٨٥هـ) .

• **ثانياً:** المرحلة الثانية، وتشمل قرنين من الزمان هما : (الثالث والرابع) الهجريان وقد كان الشعر الصوفى فى هذه الحقبة فى دَور نهضة وازدهار ومن شعرائه : "أبو تراب عسكر بن الحسين التخشبى" (٢٤٥هـ)، وله شعر فى "علامة المحبة" يقول فيه :

لا تخدعن فللحبيب دلائل ∴ ولديه من تحف الحبيب وسائل

منها تنغمه بمر بلائه ∴ وسروره فى كل ما هو فاعل

ومن الشعراء فى هذه المرحلة: "أبو حمزة الخراسانى"، وفيها ظهر من شعراء العربية "المتنبى"، و"الشريف الرضى" وسواهما.

• **ثالثاً**: المرحلة الثالثة، وتمثل القرنين: (الخامس، والسادس) (٤٠٠ – ٦٠٠هـ)، وفيها يتجه الأدب الصوفى إلى الحب الإلهى، ومدح الرسول ﷺ ، والشوق إلى الأماكن المقدسة، ويدعو إلى الفضائل الإسلامية، وفى هذه المرحلة نشأ الأدب الصوفى الفارسى، ونبغ من الفرس "معروف البلخى"، و"البستى"،وفى هذه المرحلة ظهر شعراء العربية الكبار "الحصرى"، و"مهيار".

ومن الشعراء الصوفيين فى هذه المرحلة :

"السهروردى" (٨٥٦هـ)، ومن شعره:

إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم ∴ أنوح كما ناح الحمام المطوق

وفوق سحاب يمطر الهم والأسى ∴ وتحتى بحار بالأسى تتدفق

سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها ∴ تفك الأسارى دونه وهو موثق

فلا هو مقتول ففى القتل راحة ∴ ولا هو ممنون عليه فيطلق

و"عبد القادر الجيلانى" ، ومن شعره :

يا من تحل بذكره ∴ عند النوائب والشدائد

يا من إليك المشتكى ∴ وإليه أمر الخلق عائد

و"أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسى القرشى"، صاحب قصيدة "المنفرجة" التى مطلعها:

اشتدى أزمة تنفرجى ∴ قد آذن ليلك بالبلج

● **رابعاً**: المرحلة الرابعة : وتشمل القرن السابع الهجرى، وفيه بلغ الشعر الصوفى قمة نهضته، وظهر من أعلامه "ابن الفارض" المتوفى سنة ٦٣٢هـ، ويقرن "جلال الدين الرومى"، و"محى الدين بن عربى" المتوفى سنة ٦٣٨هـ، والبوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥هـ. ومن شعرهم :

جزى الله عنا أحمد خير ما جزى ∴ فمذ جاءنا بالحق فالحق أبلج

جمال بدا بين الحطيم وزمزم ∴ فظلت له الآفاق بالنور تبهج

جرى أولاً فى وجه آدم نوره .: وكان به يوم السجود يتوج

• **المرحلة الخامسة** : من القرن الثامن الهجرى حتى اليوم، ومن أشهر أعلام التصوف فيه "الشعرانى" (٨٩٨هـ - ٩٧٣هـ)، و"النابلسى"، و"الحلاج" فى شعره يصطنع ما اصطنعه سائر الصوفية من رمز ، وألغاز ، وإشارة ،بَيْد أنه امتاز بالوضوح أحياناً، وظهر ذلك جلياً فى ديوانه وموضوعاته فى الحب الإلهى، والمعرفة والفناء والنور المحمدى، ووحدة الوجود[١].

وقد انتشرت كما أومأنا إلى ذلك آنفاً موجة الخلاعة والمجون منذ مطلع العصر العباسى الأول، وكان لهذه الموجة صداها فى الشعر، فكثر شعراء المجون والخلاعة والزندقة، وظلت هذه الموجة تنمو وتزدهر طوال العصر العباسى الأول، وكانت كثرتها مفرطة للغاية فى هذا العصر، وعلى إثر ذلك كان لا بد أن تظهر موجة مضادة لهذه الموجة ومناقضة لها، وتلك طبيعة الأشياء.

وهذه الموجة التى نعنيها موجة "الزهد والتصوف"، فالزهد بُعْد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة، والتصوف: زهد فى الدنيا لكسب رضا الله – عز وجل – والتصوف :

دخول فى جمال الملأ الأعلى وروحه ورحمته، فهو دخول فى مجال التقوى خوفاً من عذاب الله ونقمته وجبروته.

واشتدت حدة هذه الموجة فى العصر العباسى الثانى الذى نحن بصدده، ولكن انحراف الصوفية عن المنهج الصحيح كان سبباً فى أن تنشأ حرب ضَروس منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء والمتصوفة، حيث إن الفقهاء كانوا يرونهم خارجين عن الإسلام [٢].

---

(١) اتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى: للمؤلف أ.د/ على الخطيب ص٢١ وما بعدها.

(٢) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) ص٢٧٨ بتصرف، واتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى : للمؤلف/ أ . د / على الخطيب

وفى القرنين الثالث والرابع يبلغ الشعر الصوفى غايته فى النهضة والازدهار، واتجه الشعر الصوفى فى القرنين الخامس والسادس إلى الحب الإلهى، ومدح الرسول ﷺ والشوق إلى الأماكن المقدسة، وفى هذه الفترة نشأ الأدب الصوفى الفارسى، ونبغ من الفرس "معروف البلخى"، ومن شعراء العربية "الحصرى"، و"مهيار الديلمى"، و"عبد الرحيم البرعى"، وغيرهم.

وفى شعره فى الحب الإلهى، والتغزل بالمشعر الحرام يقول فى إحدى قصائده :

تجلت لوحدانية الحق أنوار .:. فدلت على أن الجحود هو العار

وأغرقت بداعى الحق كل موحد .:. لمقصد صدق حبذا الدار والجار

- **أما المديح النبوى**: فقد امتاز بصدق العاطفة ، وحرارة الشعور ، وشدة التعلق بالرسول ﷺ ، وآل بيته، فكان ترجمة صادقة لما يعتمل فى نفس المحب من عشق وهيام، كما كان وسيلة لنيل القرب من الله تعالى.

- **وأما الحب الإلهى عند الصوفيين:** فقد استغرق كثيراً من أشعارهم، بل هو جلها فالحب هو الميل الطبيعى لدى المحب إلى المحبوب، وحب العبد لله يقتضى طاعة أمره وكانت أشعارهم تدول حول معانى الحب، والشوق، والعشق، والوجد، والبقاء والفناء. ويقول ابن الفارض:

سائقَ الأظعانِ يَطوي البيدَ طَيْ .:. مُنْعِماً عَرِّجْ على كُثْبَانِ طَيْ

وبِذَاتِ الشّيح عنّي إنْ مَرَرْ ∴ تَ بِحَيٍّ من عُرَيْبِ الجِزعِ حَيْ

وتَلَطّفْ واجْرِ ذكري عندهم ∴ علّهُم أن ينظُرُوا عطفاً إلي

قُل ترَكْتُ الصّبّ فيكُم شبَحا ∴ ما لهُ ممّا بَراهُ الشّوقُ في [(١)]

خصائص الشعر الصوفي :

قد تميز الشعر الصوفى بخصائص فنية ظهرت جلية واضحة فى أشعارهم، ومن أهم هذه الخصائص ما يلى:

أولاً: الغموض والإبهام، وتلك خاصية فى أشعارهم فى الحب الإلهى، حيث كثرة الإشارات، والاستعارات، والتلميح، والكناية.

ثانياً: إن الشعر الصوفى ينمّ عن شفافية أصحابة، وقوة سلتهم بالله .

ثالثاً: الشعر الصوفى أخذ عن الشعر القديم القوالب الموسيقية، وتميز شعراء الصوفية بالتعبير الرمزى، الذى يوحى بالفكرة، ولا يصرح بها، فالشعر الصوفى ليس شعراً خطابياً مثل جُلّ الشعر العربى ومعظمه، إنما هو شعر أقرب إلى "الرومانسية"، حيث الهيام، والحب، والوجد، وهو أيضاً يقترب من الرمزية الأوروبية، التى تتخذ الرمز الموضوعى الموحِى بالعَدْوَى النفسية.

رابعاً: استعار الصوفيون خصائص ألفاظ الشعراء الغزليين والخمريين، وألفاظ حبهم وأسماء محبوباتهم للدلالة بها على معانٍ روحانية .

خامساً: كان لشعر الصوفيين خصائص تميزه عما سواه ، من حيث تمثله فى الإكثار من "حروف الجر المتتالية، والسجع، والتورية، والكناية، والطِّباق" بصفة خاصة وكذلك أساليب القَصْر، وقد علل

([١]) ديوان ابن الفارض ص٧ – دار صادر – بيروت .

"السهروردى" لهذه الرمزية بأنها تخص الصوفيين وحدهم، وذلك لما لديهم من علم لدنّى خاص بهم[١].

ابن الفارض :
هو "عمر بن أبى الحسن" الحموى الأصل، المصرى المولد والدار، ويكنى "أبو حفص"، وقيل: هو "شرف الدين أبو القاسم عمر بن الفارض"، وأصل آبائه من "حماة" بسورية العربية، ولد بالقاهرة سنة ست وسبعين وخمسمائة للهجرة، وتفقه فى الدين ، وتوسع فى اللغة والأدب، ثم وقع فى نفسه أن ينهج منهج الصوفية، فاقتفى آثارهم، وعرف أسرارهم، وذهب إلى "مكة"، فزار البقاع، ومكث بها زماناً، ثم رجع إلى "مصر"، فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام، حتى توفى بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة للهجرة [٢].
وكان -رحمه الله تعالى – على تقشفه وزهده وورعه وتصوفه، جميل الهيئة حسن البذّة ، ظريف المحضر، محمود العشرة، وقوراً، كثير الورع، وكان الناس يلتمسون منه البركات، ويطلبون منه الدعوات، ويقال: إنه عندما ينظم الشعر تأخذه غيبوبة قد تطول إلى عشرة أيام، فإذا أفاق أمْلَى شعره. وقد نشأ "ابن الفارض" فى عصر الدولة "الأيوبية"**(٣)**.
- وفى هذا العصر تنازع الناس عاملان متباينان، وهما:

الأول: عامل التصوف والتقوى:
الثانى: عامل الفسوق والمجون : وهو الانحلال الخلقى ، وتحكّم الشهوات، والجرى وراء الملذّات، ولذلك اتجه الشعر إلى هاتين الوجهتين، فإما أن يراد به الله، أو يراد به الشيطان، وابن الفارض نشأ

---

(١) اتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى : للمؤلف "مرجع أسبق" ص١٨٦ وما بعدها – ط: دار المعارف بالقاهرة ١٤٠٤هـ.

(٢) تاريخ الأدب العربى: لأحمد حسن الزيات ص١٠٠، وتاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ٦٧/٥ .

(٣) تاريخ الأدب العربى : للزيات .

نشأة دينية، وربى تربية صوفية، فلم يكن بدّ من سلوك طريقة القوم فى شعره ، ينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر وذِكر الغزل، مريداً بذلك "الذّات الإلهية" على اصطلاحهم، فكان ذلك سبباً فى وجود "الرمزية" فى الشعر العربى، والرمز يعنى "الإشارة والتلميح"، يقول صاحب "الكشاف" تقول: رَامز، ورَمَز، كخادم وخدم، ورَمُوز ورُمُز ، كرسول ورسل وهو إشارة بالعينين أو الحاجبين،أو اليدين، أو الشفتين، والفم واللسان، وقصر بعضهم الرمز على الشفتين خاصة، ويرى بعضهم أن الرمز أصله "الصوت الخفى" الذى لا يكاد يُفهم، وذلك ما عناه الله – سبحانه وتعالى – بقوله : "قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أياماإلا رمزاً"، وقيل: إنه هو الكلام الخفى الذى لا يكاد يُفهم [١].

وابن الفارض من أكثر الشعراء تعمّلاً للكلام ، وتلطّفاً للبديع، وولوعاً بالجناس والطباق، وكان شعره يسير مع الرّكبان ؛ لرقّته، واشتماله على ما يرضى أذواق أهل التصوف، والزهد، والعشق، وكذلك أهل "المجون"، فأهل التصوف ينشرون أشعاره فى مجالس الذكر، وأهل المجون ينشرونه فى مجالس الخمر والخلاعة، فكلٌّ يغنّى على ليلاه ومن أشهر شعر"ابن الفارض" التائية الكبرى، والتائية الصغرى، وتبلغ التائية الكبرى نحوا من ستمائة بيت، ولا يستطيع فهمها إلى من رزقه الله – عز وجل – بالصبر والجَلَد والتحمل على فكّ رموزها، وما حوته من معانٍ وأفكار.

يقول "ابن الفارض" فى مطلع التائية الكبرى :

نَعَمْ بالصَّبا قلبي صبا لأحِبّتِي ∴ فيا حبّذا ذاك الشّذى حينَ هَبَّتِ

([١]) القاموس المحيط .

- العمدة لابن رشيق القيروانى ٣١٠/١ .
- نقد النثر ص٦١ .
- الكشاف : للزمخشرى فى تفسير "إلا رمزا" ٣٢٢/١ وما بعدها .
- لسان العرب لابن منظور – مادة "رمز".

سَرَتْ فأسرَّتْ للفؤادِ غُدَيَّةً ∴ أحاديثَ جيرانِ العُذيبِ فَسَرَّتِ

مُهَيْمِنَةٌ بالرَّوضِ لَدْنٌ رِداؤُها ∴ بها مرضٌ من شأنِهِ بُرْء عِلّتي

تُذَكِّرُني العَهْدَ القَديمَ لأنَّها ∴ حديثَةُ عَهْدٍ من أهَيْلِ مَوَدَّتي [١]

أما جُلّ شعره فالغالب عليه الحنين والشوق إلى "الحجاز"، وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه[٢].
ويقول "ابن الفارض" فى وصف الخمر الإلهى، وفيها كثرة كاثرة من الرّمز الذى عُرف به شعراء الصوفية:

شَرِبْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَةً ∴ سكِرْنَا بها من قبل أن يُخلق الكَرْمُ

لها البدرُ كأسٌ وهيَ شمسٌ ∴ هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجم يُدِيرُهَا

ولولا شذَاها ما اهتدَيتُ لِحانِها ∴ ولولا سَناها ما تصَوّرها الوَهْمُ

ولم يُبْقِ منها الدّهْرُ غيرَ حُشاشَةٍ ∴ كأنّ خَفاها في صُدور النَّهى كتْم

فإن ذُكرَتْ في الحَيّ أصبحَ أهلُهُ ∴ نَشاوى ولا عارٌ عليهمْ ولا إثم

---

(١) الديوان ص٣٣ – ط: دار صادر – بيروت – لبنان .
(٢) تاريخ الأدب العربى – للزيات ص٤٠٠ وما بعدها .

ومِنْ بينِ أحشاء الدّنانِ تصاعدتْ ∴ ولم يَبْقَ منها في الحقيقة إلاّ اسمُ

وإن خَطَرَتْ يوماً على خاطرِ امرىءٍ ∴ أقامتْ به الأفراحُ وارتحلَ الهمّ (1)

ونراه يتغنى بالجمال الربانى فيقول :

تِهْ دَلاَلاً فأنْتَ أهْلٌ لِذَاكا ∴ وتحَكّمْ فالحُسْنُ قد أعطاكا

ولكَ الأمرُ فاقضِ ما أنتَ قاض ∴ فَعَلَيَّ الجَمَالُ قد وَلاّكَا

وتَلافي إن كان فه ائتلافي ∴ بكَ عَجّلْ به جُعِلْتُ فِداكا

فيكَ معنىً حَلاّكَ في عينِ عقلي ∴ وبه ناظري مُعَنّى حِلاكا

فُقْتَ أهْلَ الجمال حُسْناً وحُسْنى ∴ فَبِهِمْ فاقةٌ إلى معناكا

يُحْشَرُ العاشقونَ تحتَ لِوائي ∴ وجميعُ المِلاحِ تحتَ لِواكا (2)

ويقول ابن الفارض :

---

(1) الديوان ص١٤٠ وما بعدها – بيروت – بدون تاريخ .
(2) ذاته ص١٥٦ ، ١٥٩ .

أبرقٌ بدا من جانِبِ الغَور لامعُ ∴ أمِ ارتفَعَتْ عن وجهِ ليلى البراقع

أنَارُ الغضا ضاءتْ وسلمى بذي الغضا ∴ أمِ ابتَسَمتْ عمّا حكتهُ المدامع

أنْشرُ خُزامى فاح أم عَرْفُ حاجرٍ ∴ بأَمّ القُرَى أم عِطْرُ عَزَّةَ ضائع

ألا ليتَ شِعري هل سُلَيْمَى مقيمة ∴ بِوادي الحِمى حيثُ المُتَيَّمُ والع

وهل لَعلَعَ الرّعْدُ الهَتونُ بِلَعلَعٍ ∴ وهل جادَها صَوب من المُزنِ هامع

وهل أرِدَنْ ماء العُذَيْب وحاجِر ∴ جِهَاراً وسِرُّ الليلِ بالصّبح شائع

ويقول :

نَشَرْتُ في موكِب العشّاقِ أعلامي ∴ وكان قَبلي بُلي في الحُبّ أعلامي

وسِرْتُ فيه ولم أبْرَحْ بدَوْلتِه ∴ حتى وجَدْتُ مُلُوكَ العِشْقِ خُدّامي [(١)]

---

(١) ذاته ص٢٠٦ .

الشّبلي :
هو : "دُلَف بن جحدر"، وقيل: "جعفر بن يونس"، وقيل: هو "جعفر بن دُلف"،وقيل غير ذلك، ويكنى "أبو بكر، وأصل أهله من "أشْروسنة" جنوبى "طَشْقَند" الحالية، فهو تركى العرق.
رقى أبوه فى قصر الخلافة حتى أصبح حاجب الحُجَّاب، وكان خاله يلى إمرة "الإسكندرية" بمصر، ويبدو أنه استعان به فى عمله لعدة سنوات؛ إذ يزعم بعض من تحدثوا عنه أنه كان مصرياً، وأنه ورد "بغداد" من "مصر"، وقد تركت "مصر" و"الإسكندرية" فيه بعض طوابعهما، إذ نراه يعتنق مذهب المالكية الذى كان يعتنقه أهل الإسكندرية، ومحافظة "البحيرة" القريبة منها، وعاد إلى "العراق"، فقرَّبه منه "الموفَّق"، ولى عهد "المعتمد" وصاحب الأمر من دونه فى خلافته، واتخذه حاجباً له، ثم ولاه "دُنباوند" بالقرب من "الرَّى"، ويَحْدث منه ما يجعل أمير "الرى" التابع له يصرفه عن عمله، وكان ذا نعمة كبرى عليه، فإنه انصرف إلى مجالس المتصوفة، وخاصة مجلس "خير النسَّاج" تلميذ "السَّرِى السقطى"، و"أبى حمزة البغدادى"، وعلى يديه تاب وأناب، ولم يلبث أن لحق "بالجُنَيْد" أستاذ الصوفية "ببغداد" حينئذ، ويقال: إنه عاد إلى ولايته يستسمح الناس، ويطلب منهم لعفو إن كان قد أساء إلى أحد منهم، وفرَّق أمواله فى الفقراء، ورجع إلى "الجنيد"، فأخذه برياضات ومجاهدات عنيفة، ويذكرون أنه قال له فى أول سلوكه الطريق: "لقد حدثونى أن عندك جوهرة العلم الربَّانى، فإما أن تمنحنيها، وإما أن تبيعنيها" فقال له "الجنيد": "لا أستطيع أن أبيعكها فما عندك ثمنها،وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها، أَلْقِ بنفسك غير هيَّاب فى عُباب هذا المحيط مثلما فعلتُ فعلَّك إن صبرت أن تظفر بها".

ومضى "الشبلى" يجاهد، ويَضْنَى فى جهاده، ويَشْقَى طوال حياة شيخه "الجنيد" حتى إذا توفى سنة ٢٩٧هـ صحب "الحلاج"، وكان يزوره فى سجنه، ولكنه لم يعتنق مذهبه الذى صوَّرناه آنفاً، وما اتَّصل به من أفكار اللاهوت والناسوت، والحلول والاتحاد ورفع التكاليف الشرعية، فقد كان يصل بقوة بين الحقيقة أو الحقائق الصوفية والشريعة متبعاً أستاذه "الجنيد" فى اتباع الكتاب والسنة، بل فى التفقه ورواية الحديث النبوى، وبذلك لم يترك "الحلاج"فيه أى أثر.

ويزعم بعض من تحدثوا عنه من القدماء أنه كان شيعياً، وقد عرفنا آنفاً أنه كان مالكى المذهب، وهو لذلك يُسْلَك مع أهل السنة، ويقال: إنه لما قُتل "الحلاج" خشى على نفسه لتردده عليه، فتظاهر بالخبل لئلا يُمْتحَن، وأُدخل "المارستان"، ثم خرج منه، وتفرَّغ للوعظ، فكان ينعقد له مجلس أيام الجمع، يحضره الناس على تفاوت طبقاتهم، وكان يحضره "على بن عيسى"، وزير "المقتدر"، وذاع صيته، فكان يقصده الطلاب والمتصوفة من كل فَجّ، وما زال يحتل "ببغداد" هذه المكانة العليَّة، حتى توفى سنة ٣٣٤ للهجرة عن سبعة وثمانين عاماً.

وكان "الشبلى" فى تصوفه دائماً سُنياً، فلم يكن يزعم لنفسه حال غيبة ولا ابتعد عن ظاهر الشريعة، ويقال: إنه سُئل: "مَنْ أسعدُ أصحابك بصحبتك؟" فقال: "أعظمُهم لحرمات الله، وألهجُهم بذكر الله، وأقْوَمُهم بحق الله، وأسْرَعُهم مبادرة فى مرضاة الله وأَعْرَفُهم بقضائه، وأكثرهم تعظيماً لما عظَّم من حُرمة العبادة".

وكان يقول : "إن الله موجود عند الناظرين فى صُنْعه، مفقود عند الناظرين فى ذاته". وسأله سائل: "هل يتحقق العارف بما يبدو له؟" فقال:"كيف يتحقق بما لا يثبت؟! وكيف يطمئن إلى ما لا يظهر؟! وكيف يأنس بما يخفى؟!" ولم يلبث أن قال "

فمن كان في طولِ الهوى ذاق سلوةً ∴ فإنّيَ من ليلى لها غيرُ ذائقِ

وأكثر شيءٍ نلته من وصالِها ∴ أمانيُّ لم تصدق كلمحةِ بارقِ

فهو لم يكن يقول حتى بالشهود، فضلاً عن الحلول والاتحاد .
وكان ينكر كل ما قيل، أو بعبارة أدق : كل ما قاله "الحلاج" عن تجلى الله فى عبيده ومخلوقاته شئ آخر، وهو يخاطب ولكن لا يُرى ولا يُشاهَد، يقول:

وخاطبت موجوداً بغير تكلّم ∴ ولاحظتُ معلوماً بغير عيان

وكان يقول : "تعززت به وما افترقنا، وكيف نفترق ولم يَجْر علينا حال الجمع أبداً؟!".
وكان يتحدث كثيراً عن الأحوال والمقامات، ويُبدى ويعيد فى الحديث عن حُبه ومن قوله : "أُدْخِلْتُ المارستان كذا وكذا مرّة، وأُسْقِيتُ الدّواء كذا وكذا مرّة، فلم أزدد إلا جنوناً".
وكثيراً ما كان ينشد قوله :

جرى حبك فى قلبى ∴ كجرى الماء فى العود

وقوله :

هذه دراهم وأنت محبٌّ ∴ ما بقاءُ الدموع فى الآماقِ

ويطيل الحديث عن عذابه فى حبه، وما يتحمل فيه من أهوال ، وما يكسب من دموع غزار، حتى فى العيد، فالناس فيه يفرحون، ويُعِدُّون الرَّاح والرَّيحان، وآلات الطرب، أما هو فيفيض إلى حزن شديد،

ونَوْح وتعديد، حتى لكأنما يحمل تحت ثيابه قبراً فهو دائم البكاء ، دائم النوح ، يقول:

قُبورُ الورى تحت التراب ∴ رجال لهم تحت الثياب قبور وللهوى

وعندي دموع لو بَكَيتُ ببعضها ∴ لفاضَت بُحورٌ بعدهن بحور

وكان يؤمن بالفناء فى الذات الإلهية ، مثل أستاذه "الجنيد"، ولكن لم يكن يَفْنَى فيه عن نفسه الواعية، فتصوفه دائماً تصوف صَحْو لا تصوف غَيْب،وإن بدا فى كلامه أحياناً أنّ فناءه إنما يكون فى حال غيبة من مثل قوله وقد سُئل: "متى يكون العارف بمشهد الحق؟"، فأجاب: "إذا بدا الشاهد وفنيت الشواهد، وذهبت الحواس، واضمحل الإحساس".

وذُكر عنه أنه كان يقول: "هذا مجنون بنى عامر، كان إذا سُئل عن "ليلى"، يقول: "أنا ليلى"، فكان يغيب بليلى عن "ليلى"، حتى يبقى بمشهد "ليلى"، ويغيِّبه عن كل معنى سوى "ليلى"، ويشهد الأشياء كلها "بليلى".

ولكن ينبغى ألا نظن من مثل هذا القول أنه كان يؤمن بانمحاء التفرقة بين الشاهد والمشهود، مثل "الحلاج" إنما يريد الإحساس بالفناء فى الذات العليَّة.

ومن طريف ما له من ذلك قوله :

تَسَرمدَ [(١)] وقتي فيك فهو مُسَرمَد ∴ وأفنيتني عني فعدت محدَّدا

وكلي بكل الكل وَصلٌ محققٌ ∴ حقائق حق في دوام تخلّدا

---

(١) السرمد : الدائم ، وتسرمد : خلد .

وقوله :

تغنَّى العودُ فاشتَقنا	∴	إلى الأحباب إذ غَنَّى
وكُنّا حيثُما كانوا	∴	وكانوا حيثما كُنَا

وكان ينكر كل ما تورط فيه "الحلاج" من شعوذات ونيرنجيات، مما رواه عنه بعض مريديه، وتتردد على لسانه كثيراً كلمة السُّكْر، وسأله سائل: هل شاهد الله بحقيقته؟ فقال: "الحقيقة بعيدة، ولكنْ ظنون وأمانىّ وحُسْبان".

من أعلام الشعر فى العصر العباسى الثاني:

المتنبي :

هو الشاعر "أحمد بن الحسين" ، ويكنى "أبو الطَّيب" المتنبى، وكان صاحب شهرة ملأت الآفاق فى الأدب العربى. وقد ولد "بالكوفة"، وهى إحدى محافظات "العراق" سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة، ونشأ بها، وتأدب بفصاحة أهل البدو، وأجاد الشعر وأتقنه، فذاع صيته، وعلا شأنه، وظهرت موهبته، وطبقت شهرته الآفاق، وسار حديثه مع الرُّكبان وعرفه القاصى والدانى، حتى غدا عَلَماً من أعلام الشعر فى العصر العباسى الثانى (١).

وقد ظهر فضل "المتنبى" فى بادية "الشام"، فحقد عليه حُسَّاده، ورموه بادِّعاء النبوة وإن كان لا يُعقل أن إنساناً فى رجاحة عقل المتنبى ، ورحابة خياله، وقوة جَنَانه يدَّعى النبوة فى وقت رسخت فيه قواعد الإسلام، ورفرفت رايات التوحيد عليه خفاقة فى سماء الجزيرة العربية وما يجاورها من البلدان، كما سكنت واستقرت أصول الإسلام وقواعده فى قلوب الناس، فكيف يُنسب إلى "المتنبى" مثل هذا الادِّعاء؟!

---

(١) من النصوص الأدبية فى العصر العباسى ص١٨١ – مصطفى محمود يونس – ط: ١٩٨٣م.

إنه فى رأينا محض افتراء، واختلاق من الحسَّاد، وتُرَّهات أشاعوها، وشَعْبذات نشروها، للنَّيل من هذا الشاعر العملاق.
ودليلنا وصدق كلامنا على ما أومأنا إليه آنفاً: أن "المتنبى" كان يضيق ذرعاً بكل من يلقِّبه بهذا اللقب. ودليل آخر على صدق ما ذهبنا إليه: أننا لا نجد فى شعره – على كثرته – أثراً لما ادَّعاه حُسَّاده عليه وأنه ادَّعى النبوة، اللهم إلا ما تأوَّله عليه حُسَّاده وخصومه فقالوا حسب شهواتهم للنَّيل منه،وهو فى ذلك برئ براءة الذئب من دم ابن يعقوب – عليه السلام-وذلك مثل قوله:

أى محل أرتقى ∴ أى عظيم أتقى

وكل ما قد خلق ∴ الله وما لم يخلق

محتقر فى همتى ∴ كشعرة فى مفرقى

وقوله :

أنا تِربُ النَدى وَرَبُّ القَوافي ∴ وَسِمامُ العِدا وَغَيظُ الحَسودِ

أنا في أَمَّةٍ تَدارَكَها اللَ ∴ هُ غَريبٌ كَصالِحٍ في ثَمودِ

وقد كان من آثار هذه التهمة أنْ سَجَنَه "لؤلؤ" والى "حمص" من قِبَل "الإخشيد"، ثم أطلق سراحه بعد أن مكث طويلاً، وخرج "المتنبى" واللقب البغيض على نفسه يلاحقه فى كل مكان، وربما كان سجنه عوض خروجه على الدولة، فقد نُسب إليه أنه انتهز فرصة ضعف الدولة، ودعا إلى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سِنِّه فبايعوه، وحين كاد يتم له الأمر وصل خبره إلى والى البلدة، فقبض عليه وحَبَسَه . فالحبس على هذا لم يكن إلا لدعوة سياسية كما رواه "الثعالبى" فى "اليتيمة".
لم يجد "المتنبى" بادرة حين خرج من السجن من أن يطوف فى البلاد ليمدح كل من لاقاه ، عظيماً كان أو حقيراً.

وكان المتنبى لمكانته عند "سيف الدولة" قد اشترط عليه ألا ينشد الشعر قائماً، وأن لا يقبل الأرض بين يديه، وظل "المتنبى" فى موضع التقدير والإكبار، حتى وشى به حُسَّاده عند "سيف الدولة"، وعلى رأسهم الشاعر "أبو نواس الحمدانى"، و"ابن خالويه" النحوى ومؤدب "سيف الدولة"، وصاحب الحظوة عنده
وكان من آثار تلك الوشاية أن زاد "سيف الدولة" فى إيلامه بالاستماع إلى غيره من الشعراء، ومن ذاك لم يطق "المتنبى" صبراً، فألقى قصيدة عصماء يعاتب فيها "سيف الدولة" مُرَّ العتاب، ويهدِّد بالرحيل إلى "مصر" إن لم ينصفه، ولكن الأمير لم يعبأ تهديده، وقد جاء فى القصيدة التى عاتب فيها "سيف الدولة":

يا مَن يَعِزُّ عَلَينا أَن نُفارِقَهُم ∴ وِجدانُنا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُم عَدَمُ

ما كانَ أَخلَقَنا مِنكُم بِتَكرُمَةٍ ∴ لَو أَنَّ أَمرَكُمُ مِن أَمرِنا أَمَمُ

إِن كانَ سَرَّكُمُ ما قالَ حاسِدُنا ∴ فَما لِجُرحٍ إِذا أَرضاكُمُ أَلَمُ

ولما اشتد ما بينه وبين "سيف الدولة" خرج سنة ٣٤٦هـ إلى مصر، قاصداً "كافوراً الإخشيدى"، ولكنه لم ينل منه ما رجاه، فهجاه بعد ذلك، وهرب منه إلى "بغداد" سنة ٣٥٠هـ، وهنا أراد الوزير "المهلبى" أن يوليه عملاً فى خدمته، ولكن "المتنبى" أبى أن يمدح "المهلبى"، فألّب هذا شعراءه على هجائه، وعندئذ توجه "المتنبى" إلى "فارس"، فمدح "عضد الدولة البويهى، فأسبغ عليه نعمته، ووصله ثلاثة آلاف دينار، وخيول وثياب، ثم دسَّ عليه من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل، إلا أنه متكلف، و"سيف الدولة" كان يعطى طبعاً، فغضب "عضد الدولة" من ذلك ويقال: إنه جهز عليه "فاتكاً الأسدى" فى قوم "بنى ضبة"، فعرض له بالصافية من سواد "بغداد"، واقتتلا، فلما رأى الدائرة عليه همَّ بالفرار، فقال له غلامه:

لا يتحدث الناس عنك بالفرار، وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ∴ والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قُتل، وولده وغلامه فى أواخر رمضان من سنة ٣٥٤هـ

منزلته الأدبية :

المتنبى خاتم الثلاثة الشعراء، آخر من بلغ شعره الغاية فى الإجادة،وقد أجمع الأدباء على أنه حظى فى شعره بقدر ما حظى به فى ذكره، وأنه بحق أشعر شعراء العربية، وأنه لم يأت بعده من بلغ شأوه أو داناه فى فضله، فهو شاعر "سيف الدولة"، ورجل القوة الطموح، احتك بالقرامطة، فأخذ عنهم حب الثورة، والميل إلى انتفاضة العنفوان، واحتك بذوى الأمر والأمراء، فذاق مرارة الخيبة، وسعى وراء العظمة والمراتب العليا

فعرف حطمة الطموح، وحسده الناس وآلموه، فكان صدره بركاناً ينفث حمماً ونيراناً، وقال شعراً فكان شعره ترجمان قلبه الطموح الساخط، وكان محملاً بالحِكم والأمثال، جمعها "الصاحب بن عباد" "لفخر الدولة البويهى"، ونشرها "زهدى يكن" بعد أن شرحها، وحفظ ألفاظها، وعلَّق عليها، ومما جاء فيه :

"لم يكن "المتنبى" فيلسوفاً بمعنى الكلمة الصحيح، إذ ليس له آراء شاملة فى أصل العالم أو الحياة، أو الأخلاق يقوم عليها نظام من الفكر متصل متماسك، وإنما له خطوات فى الحياة والأحياء منشورة هنا وهناك، لا يجمع بينها سوى نفس الشاعر، والجو الذى يصبح فيه، وهو لا يتوفر على تعليل هذه الخطوات ودعمها منطقياً بتؤدة وإسهاب، شأنه شأن الفلاسفة، ولكنه شديد الاعتقاد بها، شديد الإثبات لها، وكثيراً ما يدعمها بصورة مؤثرة، أو دليل موجز، يقر بصحتها فى نظره بقوة جازمة، وهو كثيراً ما يأتى بحكمه وأمثاله لإيضاح فكرة أو للبرهان عليها.

أما ما مصدر حكمته ؟ فهو قبل كل شئ نفسه، وتجاربه ، وإلهامه ، لا دراسة الفلسفة أو التأملات فيما وراء الزمان والمكان، وإن كان قد استقى أحياناً بعض حِكَمه مما وصل إليه من نظريات اليونان وآرائهم، ومما اطلعت عليه ثقافته.

عاصر "المتنبى" فطاحل الشعراء : "كأبى فراس الحمدانى"، وكشاجم"، و"الرفاء" و"النامى"، و"الوأواء الدمشقى"، و"السعدى"، ومع نبوغهم فى الشعر ومكانتهم بين أرباب الأدب، وعلوّ كعبهم فقد تفوق عليهم جميعاً، ولم نر شاعراً قديماً أو حديثاً عنى الناس بدراسة شعره، وتناولوه بالنقد والشرح مثل "المتنبى"، ما من كاتب ولا خطيب، ولا مدرس إلا وله من حِكَم "المتنبى" مدد، وممن دَرَسَ شعر "المتنبى" ، وبين حَسَنه وقبيحه" أبو منصور الثعالبى" فى الجزء الأول من "يتيمة الدهر"، فإنه بيَّن بالتفصيل حسناته وسيئاته مع سائر أخباره فى نحو مائة صفحة.

وقد جَمَعَ ديوان "المتنبى" ، ورَتَّبه حسب الحروف الأبجدية، وشرحه كثير، منهم : "ابن جنى"، و"الواحدى"، و"التبريزى"، والعكبرى"، و"اليازجى"وكثير غيرهم.

قال المتنبى فى كل الموضوعات : فى الوصف ، والغزل ، والفخر ، والهجاء ووصف المعارك الحربية.

وفى شعره يقول الأستاذ / "أحمد حسن الزيات": "المتنبى" شاعرمن شعراء المعانى وفق فى الجمع بين الشعر والفلسفة، وجعل أكثر اهتمامه بالمعانى، وأطلق الشعر من القيود، وخرج به من أساليب العرب التقليدية،فهو إمام الطريقة الابتداعية فى الشعر العربى، وحظى شعره بالحكم والأمثال، والإبداع فى وصف القتال، وإجادة التشبيب وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإبداع المديح، وإجادة الهجاء، وأخصّ ما يميزه بروز شخصيته فى شعره، وصدق إيمانه برأيه، واعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس، وخصائص الوجود، وأغراض الحياة.

نموذج من شعره :

قال يتفلسف :

نَحنُ بَنو المَوتى فَما بالُنا ∴ نَعافُ مالا بُدَّ مِن شُربِهِ

تَبخَلُ أَيدينا بِأَرواحِنا ∴ عَلى زَمانٍ هِيَ مِن كَسبِهِ

فَهَذِهِ الأَرواحُ مِن جَوِّهِ ∴ وَهَذِهِ الأَجسامُ مِن تُربِهِ

لَو فَكَّرَ العاشِقُ في مُنتَهى ∴ حُسنِ الَّذي يَسبيهِ لَم يَسبِهِ

وقال :

وَمُرادُ النُفوسِ أَصغَرُ مِن أَن ∴ نَتَعادى فيهِ وَأَن نَتَفانى

غَيرَ أَنَّ الفَتى يُلاقي المَنايا ∴ كالِحاتٍ وَلا يُلاقي الهَوانا

وَلَوَ أَنَّ الحَياةَ تَبقى لِحَيٍّ ∴ لَعَدَدنا أَضَلَّنا الشُجعانا

وَإِذا لَم يَكُن مِنَ المَوتِ بُدٌّ ∴ فَمِنَ العَجزِ أَن تَكونَ جَبانا

عيوب شعره :

بعض شعره أحيانا يعسر فهمه، وتبعد غايته منه، فيطيش سهمه، وقد وقع فى بعض المساوئ، مثل: استكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال الغريب، ومخالفة القياس وكثرة التفاوت فى شعره، والخروج فى المبالغة إلى الإحالة، كقوله :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ∴ ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وكقوله :

أنى يكون أبا البرايا آدم ∴ وأبوك والثقلان أنت محمد

أبو فِرَاس الحمداني :
هو الشاعر "الحارث بن سُعَيد بن حَمْدَان بن حَمْدُون بن الحارث"، ويكنى"أبو العلاء"، ولد فى "الموصل" سنة "عشرين وثلاثمائة" للهجرة، ونشأ "أبو فراس" يتيماً حيث إن "ناصر الدولة" أخاه "سيف الدولة" كان قد قتل أباه، فكفله "سيف الدولة" وتنقلت به أمه بين "الموصل" و"آمد"، و"ميّافارقين"، و"ماردين"، و"الرقة"، ثم ألقت به عصا التسيار، واستقرت به فى "مَنْبج" قرب "حلب"، وتلقى "أبو فراس" علوم زمانه على علماء بلاط "سيف الدولة"، وكان من أشهر هؤلاء العلماء "ابن خالويه"، ولما بلغ من العمر ستة عشر عاماً قلده "سيف الدولة" ولاية "مَنْبج"، و"حَرَّان"، وعَهِد إليه بالدفاع عن التخوم الشمالية، والبلاد المجاورة لها ضد "الروم"، وبقتال القبائل البدوية التى تشق عصا الطاعة على "آل حمدان"، وفى سنة "سبع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة" دخل "المتنبى" بلاط "سيف الدولة"، وأراد "سيف الدولة بذلك" أن يأذن لشمس "أبى فراس" بالأفول والمغيب، وأن يكسف نورها فى الشعر والحرب، وأن ينال منه ومن شاعريته وفروسيته، فجاء "المتنبى" منافساً له فى البلاط الحمدانى، ثم وقع "أبو فراس" فى أَسْر "الروم"، وكان ذلك فى شهر شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة للهجرة، وبقى فى أسره إلى شهر رجب سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للهجرة، والتى توافق سنة ست وستين وتسعمائة للهجرة، ولم يرغب "سيف الدولة"فى افتدائه من الأسر افتداء خاصاً بعظيم من عظماء الروم، بل تركه فى أسره يعانى آلامه وأحزانه، ويجنى ثمرة فروسيته حتى فودى بالطرق المعتادة فى مبادلة الأسرى وتوفى "سيف الدولة" وشيكاً من شهر صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة للهجرة، والذى يوافق شهر يناير سنة سبع وستين وتسعمائة من الميلاد، فخلفه ابنه "أبو المعالى"، فاستبد "أبو فراس" "بحمص"، ثم وقعت الحرب بينهما –فسقط "أبو فراس" فى المعركة قتيلاً فى الثالث من جمادى الأولى سنة "سبع وخمسين وثلاثمائة للهجرة".
و"أبو فراس شاعر مطبوع، مشبوب العاطفة ، يقول الشعر إرضاء لنفسه، ولم يتخذ الشعر حرفة، وكان شعره شعراً وجدانياً خالصاً، يدور على فنين : وهما الفخر ، والغزل وهو من أتباع المذهب الشامى، بَيْد

أن شعره يبدو عليه الضعف أحياناً أو شئ منه، وجاء غزله فى المؤنث رقيقاً، عفيفاً، وبعض شعره صريح، وفخره على عمود الشعر متين فخم وله وسف للطبيعة والخمر، وقد نظم "أبو فراس" فى أسره قصائد عرفت "بالأسريات" و"الروميات"، وكان بعضها "إخوانيات"، وكان يرسلها إلى إخوانه، مثلما ترسل الرسائل بَيْد أنه لم يظهر على هذه "الروميات" خصائص جديدة، سوى أنها كانت أكثر رقة، وأكثر شكوى، وقد صنع ديوانه بنفسه [(١)].

صفاته وأخلاقه:

كان "أبو فراس" بطلاً سخياً معجباً بنفسه، وشعره كثير الفخر بأصله وقومه، عَزوفاً عن الشراب والمجون، وهو القائل :

لَئِن خُلِقَ الأنامُ لَحَسوِ كَأسٍ ∴ وَمِزمارٍ وَطُنبورٍ وَعودِ

فَلَم يُخلَق بَنو حَمدانَ إِلّا ∴ لِمَجدٍ أَو لِبَأسٍ أَو لِجودِ [(٢)]

خصائص شعره :

شعره على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً، ولكن عليه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك، وكان "الصاحب بن عباد" يقول: "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" ويعنى بذلك "امرأ القيس"، و"أبا فراس"، وقد نظم فى أغلب فنون الشعر، فأجاد إلا أن منزلته فى الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، أما "رومياته" فهى أجل وأدل على فضله ومن أروع قصائده قصيدته الرائية التى نظمها حين قال الروم: إن "أبا فراس" وحده من بين الأسرى هو الذى لم يسلب منه سلاحه، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحبه

(١) تاريخ الأدب العربى : د/ عمر فروخ ٤٩٥/٢ وما بعدها بتصرف – ط: دار العلم للملايين – بيروت لبنان – الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨م ، والطبعة الرابعة سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) تاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ٩٢/٢ .

- الديوان ص٩٧ – ط: دار صادر – بيروت – لبنان سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- لحسو كأس : من الاحتساء وهو الشرب ، احتسى الشئ : شربه .

أراكَ عَصِيَّ الدَمعِ شيمَتُكَ الصَبرُ .:. أما لِلهَوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أَمرُ

بَلى أنا مُشتاقٌ وَعِندِيَ لَوعَةٌ .:. وَلَكِنَّ مِثلي لايُذاعُ لَهُ سِرُّ

مُعَلِّلَتي بِالوَصلِ وَالمَوتُ دونَهُ .:. إِذا مِتُّ ظَمآناً فَلا نَزَلَ القَطرُ

تُسائِلُني مَن أنتَ وَهيَ عَليمَةٌ .:. وَهَل بِفَتىً مِثلي عَلى حالِهِ نُكرُ

فَقُلتُ كَما شاءَت وَشاءَ لَها الهَوى .:. قَتيلُكِ قالَت أَيَّهُم فَهُمُ كُثرُ

فَقالَت لَقَد أَزرى بِكَ الدَهرُ بَعدَنا .:. فَقُلتُ مَعاذَ اللَهِ بَل أنتِ لا الدَهرُ

ومنها :

أسِرتُ وَما صَحبي بِعُزلٍ لَدى الوَغى .:. وَلا فَرَسي مُهرٌ وَلا رَبُّهُ غُمرُ

وَلَكِن إِذا حُمَّ القَضاءُ عَلى اِمرِئٍ .:. فَلَيسَ لَهُ بَرٌّ يَقيهِ وَلا بَحرُ

يَمُنّونَ أَن خَلّوا ثِيابي وَإِنَّما .:. عَلَيَّ ثِيابٌ مِن دِمائِهِمُ حُمرُ

سَيَذكُرُني قَومي إِذا جَدَّ جِدُّهُم .:. وَفي اللَيلَةِ الظَلماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ

وَنَحنُ أناسٌ لا تَوَسُّطَ عِندَنا ∴ لَنا الصَدرُ دونَ العالَمينَ أَوِ القَبرُ

تَهونُ عَلَينا في المَعالي نُفوسُنا ∴ وَمَن خَطَبَ الحَسناءَ لَم يُغلِها المَهرُ

أَعَزَّ بَني الدُنيا وَأَعلى ذَوي العُلا ∴ وَأَكرَمُ مَن فَوقَ التُرابِ وَلا فَخرُ [(١)]

ويقول فى استعطاف "سيف الدولة" :

بِمَن يَثِقُ الإِنسانُ فيما يَنوبُهُ ∴ وَمِن أَينَ لِلحُرِّ الكَريمِ صِحابُ

وَقَد صارَ هَذا الناسُ إِلّا أَقَلَّهُم ∴ ذِئاباً عَلى أَجسادِهِنَّ ثِيابُ

تَغابَيتُ عَن قَومي فَظَنّوا غَباوَتي ∴ بِمَفرِقِ أَغبانا حَصىً وَتُرابُ

وَلَو عَرَفوني حَقَّ مَعرِفَتي بِهِم ∴ إِذاً عَلِموا أَنّي شَهِدتُ وَغابوا

---

(١) الديوان ص١٦٠ ، ١٦١ – ط: دار صادر بيروت – لبنان ، عصر الدول والإمارات (مصر والشام) أ.د/ شوقى ضيف ص٧١٠ .

الغمر : غير المجرب – يعنى : الذى ليست له دُربة وخبرة . المهر : الفرس الصغير – حم: قُضى وقُدر – لم نغله المهر: لم نستكثر عليها المهر – ويروى: "لم يغلها المهر" يعنى: من يخطب الحسناء لا يستكثر عليها شيئاً.

وَما كُلُّ فَعّالٍ يُجازى بِفِعلِهِ ∴ وَلا كُلُّ قَوّالٍ لَدَيَّ يُجابُ

وَرُبَّ كَلامٍ مَرَّ فَوقَ مَسامِعي ∴ كَما طَنَّ في لَوحِ الهَجيرِ ذُبابُ

إِلى اللهِ أَشكو أَنَّنا بِمَنازِلٍ ∴ تَحَكَّمُ في آسادِهِنَّ كِلابُ (١)

ويقول أيضاً :

أَمِن بَعدِ بَذلِ النَفسِ فيما تُريدُهُ ∴ أُثابُ بِمُرِّ العَتبِ حينَ أُثابُ

فَلَيتَكَ تَحلو وَالحَياةُ مَريرَةٌ ∴ وَلَيتَكَ تَرضى وَالأَنامُ غِضابُ

وَلَيتَ الَّذي بَيني وَبَينَكَ عامِرٌ ∴ وَبَيني وَبَينَ العالَمينَ خَرابُ

إِن صحّ مِنكَ الوُدَّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ ∴ وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابِ (٢)

والبيت الأخير غير موجود فى ديوانه ، طبع دار صادر – بيروت – لبنان – عام ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، بَيْد أنه فى طبعة: دار صعب – بيروت – لبنان ، وجدته مثبوتاً كما يلى:

إِن صحّ مِنكَ الوُدَّ فَالمال هَيِّنٌ ∴ وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابِ (٣)

وقد نسبت هذه الأبيات للمتصوفة والزاهدة الشهيرة "رابعة العدوية"،وقد يكون هذا من قبيل الاقتباس، أو توارد الخواطر.

---

(١) الديوان ص٢٥ .
(٢) ذاته ص٢٧ .
(٣) الديوان – ط: دار صعب – بيروت – لبنان – ص٢٧ .

الشّريف الرّضي:

هو الشاعر "محمد بن الطاهر أبى أحمد الحسين"، ويكنى "أبو الحسن"، وهو من سلالة الإمام "جعفر الصادق" ا وُلد "الشريف الرضى" سنة "تسع وخمسين وثلاثمائة" للهجرة فى "بغداد"، ونشأ فى حجر والده، ودرس العلم فى طفولته، فبرع وبرز فى "الفقه"، و"علم الفرائض" يعنى "المواريث"، ونبغ فى العلم والأدب، وتفتقت شاعريته، وظهرت نجابته فى وقت باكر من الزمن، حيث إنه قرض القريض، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين.

وقد نهل "الشريف الرضى" من حياض العلماء، وكرع من نميرهم السلسال، ومنح من ركائز علماء عصره، بأرْشِيَة قوية، وأشطان فتيَّة، وكان ذلك فى مدينة "بغداد" من علماء الشيعة، وغيرهم من أمثال "على الفارسى"، و"ابن جنى"، و"المرزوقى" فى اللغة والنحو، و"القاضى عبد الجبار" فى الاعتزال، والشيخ "المتعبد" فى الفقه، كما أقبل على كتب التفسير، ينهل من مواردها العذبة، ويرتشف أفاويق المعانى، والبلاغة، والبيان، كما أقبل على كتب "الحديث النبوى" ينهل منها، ويُفيد من معانيها وإرشاداتها، على نحو ما يتضح فى كتابه "المجازات النبوية" كما أنه قام يجمع خطب الإمام "على بن أبى طالب" رضى الله عنه – فى السِّفر المعروف باسم "نهج البلاغة"[١].

ولما بلغ "الشريف" التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه فى نقابة الطالبين، ثم ضمت إليه مع النقابة سائل الأعمال التى كان يليها أبوه، وهى النظر فى المظالم، والحج بالناس.

وكان من صفات "الشريف الرضى" أنه أبىّ النفس، عالى الهمة، وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صِلة ولا جائزة، حتى بلغ من تشدده فى الفقه أنه رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء، واجتهد "بنو بويه" أن يحملوه على قبول صِلاتهم فما استطاعوا.

---

(١) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران): د/ شوقى ضيف ص٣٧٠، وأيضاً: تاريخ الأدب العربى: للزيات.

مؤلفاته :
ألَّف فى معانى القرآن الكريم كتاباً يدل على تضلعه فى النحو واللغة وأصول الدين وكتاباً آخر فى مجازات القرآن، وله مجموعة رسائل ، وديوان شعر، وكتاب "نهج البلاغة" وهو ما جمعه من كلام الإمام "على بن أبى طالب" – رضى الله عنه – والظاهر أنه جمع كل ما نُسب إلى الإمام، وفيه الصحيح، والمشُوب[١].

شعره :
يدل شعره على أنه تأثر أشد التأثر "بالمتنبى"، فقد أكبّ عليه يقرؤه، محباً له، متعاطفاً معه، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان، وأنه لا يعطيه ما يستحقه، وكان يشعر فى أعماقه بأنه خليق أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمديح يزخر – مثل مديح "المتنبى" – بالفخر، والشكوى من الأيام – حتى يقول "للقادر":

عَطفاً أَميرَ المُؤمِنينَ فَإِنَّنا ∴ في دَوحَةِ العَلياءِ لا نَتَفَرَّقِ

ما بَينَنا يَومَ الفَخارِ تَفاوُتٌ ∴ أَبَداً كِلانا في المَعالي مُعرِقُ

إِلّا الخِلافَةَ مَيَّزَتكَ فَإِنَّني ∴ أَنا عاطِلٌ مِنها وَأَنتَ مُطَوَّقُ

وقد نهج فى شعره نهج الأقدمين، فى جزالة اللفظ، وفخامة المعنى، وشعره أشبه بشعر "البحترى" إلا أنه غلب فى الفخر والحماسة ... وقال "الثعالبى" فيه : "هو أشعر الطالبيين" من معنى منهم ومن غير، على كثرة شعرائهم المفلقين، لو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق"، ثم قال بعد ذلك: "ولست أدرى فى شعراء العصر أحسن تصرفاً فى المراثى منه".

---
(١) عصر الدول والإمارات : د/ شوقى ضيف ص٣٧٢ .

نموذج من شعره :

قال يفتخر من قصيدة يمدح بها أهل البيت:

لِغَيرِ العُلى مِنّي القِلى وَالتَجَنُّبُ ∴ وَلَولا العُلى ما كُنتُ في الحُبِّ أَرغَبُ

إِذا اللَهُ لَم يَعذُركَ فيما تَرومُهُ ∴ فَما الناسُ إِلّا عاذِلٌ أَو مُؤَنِّبُ

مَلَكتُ بِحِلمي فُرصَةً ما اِستَرَقَّها ∴ مِنَ الدَهرِ مَفتولُ الذِراعَينِ أَغلَبُ

فَإِن تَكُ سِنّي ما تَطاوَلَ باعُها ∴ فَلي مِن وَراءِ المَجدِ قَلبٌ مُدَرَّبُ

فَحَسبِيَ أَنّي في الأَعادي مُبَغَّضٌ ∴ وَأَنّي إِلى غُرِّ المَعالي مُحَبَّبُ

وَلِلحِلمِ أَوقاتٌ وَلِلجَهلِ مِثلُها ∴ وَلَكِنَّ أَوقاتي إِلى الحِلمِ أَقرَبُ

يَصولُ عَلَيَّ الجاهِلونَ وَأَعتَلي ∴ وَيُعجِمُ فيَّ القائِلونَ وَأُعرِبُ

يَرَونَ اِحتِمالي غَصَّةً وَيَزيدُهُم ∴ لَواعِجَ ضَغنٍ أَنَّني لَستُ أَغضَبُ (١)

ويقول – رحمه الله – من قصيدة قالها وله من العمر "عشر سنين": ثم هذّبها وأسقط منها أشياء، يقول فيها :

---

(١) ديوان الشريف الرضى – صححه وعلق عليه : الدكتور/ إحسان عباس – دار صادر – بيروت ص١٠٧ ، ١٠٨.

المَجدُ يَعلَمُ أَنَّ المَجدَ مِن أَرَبي ∴ وَلَو تَمادَيتُ في غَيٍّ وَفي لَعِبِ

إِنّي لَمِن مَعشَرٍ إِن جُمِّعوا لِعُلىً ∴ تَفَرَّقوا عَن نَبيٍّ أَو وَصيِّ نَبي

وَإِن عَزَمتُ فَعَزمي يَستَحيلُ قَذىً ∴ تَدمى مَسالِكُهُ في أَعيُنِ النُوَبِ [(١)]

وقال يفخر بآل البيت – رضى الله عنهم – ويذكر قبروهم ويتشوَّقها :

أَلا لِلَّهِ بادِرَةُ الطِلابِ ∴ وَعَزمٌ لا يُرَوَّعُ بِالعِتابِ

وَكُلُّ مُشَمِّرِ البُردَينِ يَهوي ∴ هُوِيَّ المُصلَتاتِ إِلى الرِقابِ

أُعاتِبُهُ عَلى بُعدِ التَنائي ∴ وَيَعذُلُني عَلى قُربِ الإِيابِ

رَأَيتُ العَجزَ يَخضَعُ لِلّيالي ∴ وَيَرضى عَن نَوائِبِها الغِضابِ

---

(١) الديوان ص١١٢ وما بعدها .

وَلَولا صَولَةُ الأَيّامِ دوني .:. هَجَمتُ عَلى العُلى مِن كُلِّ بابِ

وَمِن شِيَمِ الفَتى العَرَبيِّ فينا .:. وِصالُ البيضِ وَالخَيلِ العِرابِ

سَقى اللَهُ المَدينَةَ مِن مَحَلٍّ .:. لُبابَ الماءِ وَالنُطَفِ العِذابِ

وَجادَ عَلى البَقيعِ وَساكِنيهِ .:. رَخيُّ الذَيلِ مَلآنُ الوِطابِ

وَقَبراً بِالطُفوفِ يَضُمُّ شِلواً .:. قَضى ظَمَأً إِلى بَردِ الشَرابِ

وَسامَرّا وَبَغداداً وَطوساً .:. هُطولَ الوَدقِ مُنخَرِقَ العُبابِ

قُبورٌ تَنطُفُ العَبَراتُ فيها .:. كَما نَطَفَ الصَبيرُ عَلى الرَوابي

فَلَو بَخِلَ السَحابُ عَلى ثَراها .:. لَذابَت فَوقَها قِطَعُ السَرابِ

وقال يفتخر :

إِنّا نَعيبُ وَلانُعابُ .:. وَنُصيبُ مِنكَ وَلا نُصابُ

آلُ النَبيِّ وَمَن تَقَل .:. لَبَ في حُجورِهِمُ الكِتابُ

خُلِقَت لَهُم سُمرُ القَنا .·. وَالبيضُ وَالخَيلُ العُرابُ

فاقَني حَياؤُكَ إِن .·. نَما الأَيّامُ غُنمٌ أَو نِهابُ

مَن لَذَّ وِردَ المَوتِ لا .·. يَصفو لَهُ أَبَداً شَرابُ [1]

وقال فى قصيدة متشعِّبة الأغراض والفنون :

دَوامُ الهَوى في ضَمانِ الشَبابِ .·. وَما الحُبُّ إِلّا زَمانُ التَصابي

أَحينَ فَشا الشَيبُ في شَعرِهِ .·. وَكَتَّمَ أَوضاحَهُ بِالخِضابِ

تَروعينَ أَوقاتَهُ بِالصُدودِ .·. وَتَرمينَ أَيّامَهُ بِالسِبابِ

تَخَطّى المَشيبُ إِلى رَأسِهِ .·. وَقَد كانَ أَعلى قِبابِ الشَبابِ

كَذاكَ الرِياحُ إِذا اِستَلأَمَت .·. تَقَصَّفَ أَعلى الغُصونِ الرِطابِ

مَشيبٌ كَما اِستَلَّ صَدرُ الحُسا .·. مِ لَم يَروَ مِن لِبثِهِ في القِرابِ

نُضي فَاِستَباحَ حِمى المُلهِياتِ .·. وَراعَ الغَواني بِظِفرٍ وَنابِ

وَأَلوى بِجِدَّةِ أَيّامِهِ .·. فَأَصبَحَ مَقذىً لِعَينِ الكَعابِ [2]

---

(١) الديوان ص١١٧ .

(٢) الديوان ص١٢١ .

وقال أيضاً :

أَغَدراً يا زَمانُ وَيا شَبابُ ∴ أَصابُ بِذا لَقَد عَظُمَ المُصابُ

وَما جَزَعي لِأَن غَرُبَ ∴ وَحَلّقَ عَن مَفارِقِيَ الغُرابُ التَصابي

فَقَبلَ الشَيبِ أَسلَفتُ الغَواني ∴ قِلىً وَأَمالَني عَنها اِجتِنابُ

عَفَفتُ عَنِ الحِسانِ فَلَم يَرُعني ∴ المَشيبُ وَلَم يُنَزِّقني الشَبابُ

تُجاذِبُني يَدُ الأَيّامِ نَفسي ∴ وَيوشِكُ أَن يَكونَ لَها الغِلابُ

"مهيار الديلمى" نشأته وخصائص شعره :

هو "أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمى"، كان ديلمى الأصل، مجوسى الديانة، ثم تتلمذ "للشريف الرضى"، وأسلم على يديه سنة ٣٩٤هـ، ثم عاش منذ ذلك الحين "ببغداد"، وتوفى يوم ٥ من جمادى الآخرة سنة ٤٢٨هـ.

ويبدوا أنه كان فيه ذكاء حاد، جعله يحسن العربية سريعاً، ويروى أنه كان يسكن فى "الكرخ" مستقر شيعة "بغداد" الإمامية، ولعل ذلك هو الذى أعطاه الفرصة لكى يدرس عقيدتهم، حتى إذا أسلم انتظم فى سلكها.

وقد أعانه "الشريف الرضى" فى أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب "الكاتب".

تولاه بالعناية، ورعاه أديباً أستاذه "الشريف الرضى"، عندما رأى فيه استعداداً حسناً، فمضى معه يثقفه، ويدربه حتى خرجه شاعراً بارعاً ...فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه، وهو نسيج يلاحظ من جهتين: جهة معارضته لكثير من قصائد "الرضى"، يأخذ منه الوزن والقافية، وينظم على غرارها. وجهة ثانية لعلها أهم،

وهى تمثل اتجاهاته الشعرية، ونقصد اتجاهات الشكوى، فإنه يشكو كثيراً سوء بخته، وأن الزمن لا ينيله ما يتمنى، بل يقف حجر عثرة دون أمانيه.

ففى بواكير حياته اتجه يفخر بقومه، فاستحال فخره شعوبياً ذميماً ... ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعوبية، ويملأ شعره بالحنين إلى "نجد"، وبدوياتها الفاتنات مستلهما فى ذلك أستاذه "الرضى"، بمثل قوله :

قد تذوَّقتُ الهوى من قبلها ∴ وأرى مُعذبَهُ قد أَملحا

سل طريق العيس من وادي الغضا ∴ كيف أغسقتَ لنا رَأدَ الضحى

ألشيءٍ غير ما جيراننا ∴ نفضوا نجدا وحَلّوا الأبطحا

يا نسيم الصبح من كاظمةٍ ∴ شدّ ما هِجت الجوى والبُرَحا

الصَّبا إن كان لابدّ الصَّبا ∴ إنها كانت لِقلبي أرْوَحا

يا نداماي بسلْعٍ هل أرى ∴ ذلك المَغْبقَ والمصطَبَحا

اُذكرونا ذكرَنا عهدَكُمُ ∴ ربَّ ذكَرى قرَّبتْ مَن نَزَحا

واذكروا صبّاً إذا غنَّى بكم ∴ شِربَ الدمعَ وعاف القَدحَا

رجعَ العاذلُ عني آيساً ∴ من فؤادي فيكُمُ أن يُفلِحا

لقد كان "مهيار" أجنبياً عن اللغة، وكان لذلك تأثير واسع فى صناة الشعر عنده؛ إذ كان يصل فى أحوال كثيرة التعبير عن المعانى الدقيقة، فيسقط إلى ألوان من الإسفاف تذيع سر المهنة عنده ؛ لذلك كان لا يُحسن التعبير الجاد عما فى نفسه، فقد سلمت له نشأة "فارسية" أو قل "مجوسية"، لذلك كانت قصائده تمتلئ بنوافذ يُشْرف منها الإنسان على "فارس"، ولولا أنه أخذ نفسه بالأسلوب العربى ، أو تخرج على يد شاعر عربى أصيل – هو "الشريف الرضى" – لكان لفارسيَّته وأجنبيته عن اللغة العربية أثر أوسع.

على أن هناك جانباً مهماً كان يؤثِّر فى شعر "مهيار" تأثيراً واسعاً، هو ما يمتاز به من مزاج خاص، وهو مزاج فيه رقَّة، وحدة فى الحسّ، وقد نما ما انتهت إليه الحضارة العربية من ترف شديد، حتى لينقلب إلى ضرب غريب من الدماثة والليونة، ما يزال ينتشر فى جميع أطراف شعره.

كان يلفق قصائده على طريقة الشعراء الذين عاصروه، ولم يعتد فى ذلك على الثقافة "كالمتنبى" مثلاً، انظر كيف تحولت الفكرة القديمة عنده فى الأبيات الآتية :

هل عند هذا الطلل الماحِلِ ∴ من جلَدٍ يُجِدي على سائلِ

أصمٌّ بل يسمع لكنه ∴ من البِلَى في شُغُل شاغلِ

وقفتُ فيه شبحاً ماثلاً ∴ مرتفداً من شبح ماثلِ

ولا ترى أعجبَ من ناحلٍ ∴ يشكو ضنا الجسم إلى ناحلِ (١)

(١) الديوان ص١٠٠ .

أساس الفكرة فى هذه الأبيات هو أنه رَسْمٌ يبكى رَسْماً، وهى فكرة "المتنبى" ، بل فكرة "أبى تمام" من قبله، وكل ما جاء به "مهيار" من جديد أنه عَمَد فيها إلى التطويل والتفصيل، ولكنْ أَلا يَشعر القارئ – على الرغم مما وفق إليه "مهيار" من إحكام الصوت فى هذه القطعة – أن الأبيات لا تبلغ من التأثير ما يريده الشاعر ، فقد تقاربت الأفكار وأصبح الأسلوب هادئاً، ليس فيه عنف العاطفة، ولا حدة التعبير الأصيل، إنه أسلوب نثرى.

وكان فى غزله يميل إلى الميوعة، فقد كان فيه إفراط فى الحسّ والشعور والرقة تنساب فيه ألوان من الذلة والطواعم، فقد خُلق رقيق القلب، هى رقة تخرج عن الحدود المألوفة، كما أنه يتكلّف الليونة، والدماثة والحسّ.

وهناك جانب آخر يلحظ فى غزله، وهو ما نراه عنده من تشبثه بالعناصر البدوية وحشدها فى قصائده، بحيث لا يمر غزل فى قصيدة دون أن نحسّ بأنه لشاعر يقيم فى "نجد" أو فى "الحجاز"، فدائماً صاحبته إمَّا "مها"، أو "الرباب"، أو "لميا"، أو "سعدى"، وهى من سكان "منى"، أو "الحيف"، أو "قباء".. ولذلك فهو يكثر من ذِكر الأماكن الحجازية والنجدية، مثل "أحد"، "أضم"، و"زمزم".. ولعل هذه الحال من التبدِّى فى الغزل تسرّبت للشعراء من تأثرهم بأساليب المتشيّعة، والمتطرِّفة فى شعرهم الخاص.

وإذا أردت أن تتعرف على العناصر البدوية فى غزليّاته فانظر إلى قوله :

سل طريق العيس من وادي الغضا ∴ كيف أغسقتَ لنا رَأدَ الضحى

ألشيءٍ غير ما جيراننا ∴ نفضوا نجدا وحَلّوا الأبطحا

يا نسيم الصبح من كاظمةٍ ∴ شدّ ما هِجت الجوى والبُرَحا

وتحول المديح عند "مهيار" إلى ضرب من المديح الباهت ، ولم يستطع أن ينوِّع في معانى المديح، فقد كانت تنقصه الثقافة والعمق، وقد راح يطيل ويسرف فى التطويل ويبسط الأفكار والصور القديمة، وقد أصبحت قصيدة المديح عنده قصيدة "مُنَاسَبَة، ولم يعد لها شئ من اللذة، والورفة الفنية، فتحول شعر المديح إلى ما يمكن أن نسمِّيه "شعر التّهانى"، أو "شعر المناسبات" (١).

أبو العلاء المعرى وخصائص شعره :

هو الشاعر الفيلسوف "أحمد بن عبد الله بن سليمان"، ويكنى "أبو العلاء" التّنوخى نسبة إلى "تنوخ"، و"تنوخ" على ما ذكر "ابن خلّكان" اسم عُرف لعدّ قبائل أقامت فى "البحرين"، وتحالفت على التّعاون والتّناصر، وهو بكنيته أشهَر .. ويبدو أنه لم يكن راضياً لا عن كنيته ولا عن اسمه؛ لأنه لم يكن يرى فى نفسه كُفْؤاً لهما، وفى لزومياته إشارات عديدة إلى ذلك ، منها قوله :

دُعيتُ أَبا العَلاءِ وَذاكَ مَينٌ ∴ وَلَكِنِ الصَحيحَ أَبو النُزولي (٢)

وقال فى اسمه الأوّل :

وَأَحمَدُ سَمّاني كَبيري وَقَلّما ∴ فَعَلتُ سِوى ما أَستَحِقُّ بِهِ الذَمّا (٣)

ويلقب "بالمعرى" نسبة إلى "المعرّة"، وهى مسقط رأسه ومَدْرَج صباه، وهى بلدة تقع على مسيرة يوم جنوبى "حلب"، وقد كانت تُعرف "بمعرّة حمص"، قبل الفتح الإسلامى فعُرفت بعده "بمعرّة النّعمان"(٤)، و"النّعمان" هذا هو الصحابى الجليل ا النّعمان بن بشير

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٣٥٧ وما بعدها بتصرف .
(٢) اللزوميات ص١٢٨ . المَين : الكذب .
(٣) ذاته ص٥٤ .
(٤) رسائل أبى العلاء : لمرجليوت ص١١ .

الأنصاريّ"، وقد تدبّر أمر "المعرّة"، فنُسبت إليه. وينتهى نسب أبيه إلى "قضاعة"، ثم إلى "تنوخ"، وأمّا والدة "أبى العلاء" فمن "آل سبيكة"، وهى ابنة "محمد بن سبيكة"، وقد ذكر "ابن النديم" على وجه الاحتمال أن أباها من أهل "حَلَب"[1]، وهى أسرة ذات أدب وفَضْل.

وقد اتصل "أبو العلاء" بخاله "على بن محمد بن سبيكة"[2]، وبرجل آخر كان أديباً منظوراً، وهو "أبو طاهر المشرف بن سبيكة"[3]، وكانت أمُّه تعطف عليه عطفاً شديداً، وقد اشتدَّ عليه المرض وهو فى "بغداد"، وفى أثناء الطريق إلى "المعرّة" بلغه "نَعْيُها"، وكانت وفاتها سنة أربعمائة للهجرة ١٠٠٩م تسعة وألف من الميلاد، وكان وقع هذه المصيبة شديداً على نفسه، ولقد كان "لتنوخ" فى "المعرّة" مكانة سامقة، تفرّع منها عدّة أُسَر كانت ذات عِلْم وفضل وشرف ، منهم "آل حصين"، و"آل عمر"، و"آل المهذَّب"، و"آل زريق" و"آل جهير"، و"آل سليمان"، وهم أجداد شاعرنا "المعرّى.

وكانت ولادته لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة، وقيل: سنة ست وستين وثلاثمائة للهجرة، لثلاث بَقِين من شهر ربيع الأول، ولم يكد "أبو العلاء" يتمّ الرابعة من عمره حتى أصيب بمرض الجُدرى، فذهب بعينه اليسرى وحجب نور اليمنى ببياض، فكانت اليسْرى مجوَّفة غائرة، واليُمنَى بارزة [4].

وكان يقول: "أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيرى على البصر، وقد صنع لى، وأحْسَن بى إذْ كفانى رؤية الثُّقلاء والبُغَضاء".

---

(١) الإنصاف والتحرى : لابن العديم ١٠١/٤ وما بعدها .
- وفيات الأعيان لابن خلّكان – ط: بولاق سنة ١٢٧٥هـ ٤٨/١ .
(٢) الإنصاف والتحري : لابن العديم ١٠١/٤ وما بعدها .
(٣) رسائل أبى العلاء : لمرجليوث ص٢٨ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٩٢ .
(٤) وفيات الأعيان : لابن خلّكان ٤٧/١ .

وقد درس النحو واللغة فى "معرّة النّعمان" على والده [١]، وبعض"بنى كوثر" وتلامذة "ابن خالويه" الذى اشتهر فى بلاط "سيف الدولة" فى "حلب"[٢]، فقد درس القرآن الكريم، وقرأه بعِدَّة قراءات [٣]، على مشاهير علماء القراءة فى عصره [٤] وأخذ الحديث فى مسقط رأسه عن جماعة من المحدِّثين ، منهم جَدّه ، وجدّته ، وأبوه وأخوه [٥]، ويذكر "الذّهبى" أنه أخذ فى "المعرّة" أيضاً عن ثقات المحدِّثين، برواية "يحيى بن مصبر التنوخى"عن "ابن عروبة الحرانى"، هذا ما اكتسبه "المعرّى" الناشئ من محيطه العلمى: "القرآن" و"الحديث"، و"اللغة"، وما رافق ذلك من رواية الأسعار، وحفظ السِّير، ومعرف للوقائع عند هذا الحد كانت تقف عادة ثقافة الناشئ العادى، أما شاعرنا "أبو العلاء"، فلم يكن ناشئاً عادياً، بل كان طالباً طَمُوحاً، متعطِّشاً للتحصيل، شديد الظمأ إليه، لذلك ضاق به محيطه، ونَبَا به موطنه، فرحل إلى البلاد قاصيها ودانيها طلباً للعلم وتحصيل المعرفة، فجال بين "أنطاكية"، و"حلب"، و"اللاذقية"، و"طرابلس"، و"العراق" .. وقد كانت بغداد يومذاك منارة علم ومعرفة، ومحطّ رحال طلاب العلم والأدب، وعشاق الثقافة العربية، وسمَّى نفسه بـ"رَهِين المحبسَيْن": العمى، وعُكُوفه فى منزله، عكف على التعليم والتأليف، عازفاً عن ملذّات الحياة، حيث كان نباتياً لا يأكل لحوم الحيوان، كما عزف عن النساء فلم يتزوج، وأوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبى علىّ ∴ وما جنيْت على أَحَد

ولم تزل تلك حاله حتى لحق بالرّفيق الأعلى سنة تسع وأربعين وأربعمائة للهجرة النبوية الكريمة – رحمه الله تعالى .

---

(١) ابن العديم ١٣٨/٤، وياقوت الحموى ١٢٩/٣ وما بعدها .
(٢) وفيات الأعيان : لابن خلّكان ٤٧/١ .
(٣) الذهبى ص١٢٩ .
(٤) ذاته ص١٣٥، وابن العديم ١٠٤/٤، وأيضاً أبو العلاء ولزومياته ص٢٠ – ط: دار الجيل – بيروت – لبنان سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
(٥) ذاته ١٠٥/٤ ، وأيضاً : الذهبى ص١٣٠ : ١٣٥، ورأى فى أبى العلاء : للشيخ/ أمين الخولى رحمه الله.

ويقول عنه الأستاذ "كامل كيلانى": "أبو العلاء" رجل سوادى المزاج، ممعن في السخط على الحياة، بالغ فى سخطه وتبرّمه مَدَى لا يشاركه فيه إلا القليل النادر من الفلاسفة المتشائمين، وهو مطَّلع واسع الاطِّلاع على أدب أكثر الأمم التى نقلت آدابها إلى العربية، وعالم واع أخبارها، صادق حين يقول :

ما مَرَّ فى هذه الدنيا بنو زمن .:. إلا وعندى من أخبارهم طَرَف

و"أبو العلاء" مع هذا العلم الغزير بتواريخ الأمم المختلفة، والرواية الواسعة لآدابهم المتباينة، ممحص فطن خبير بتمييز الأخبار، دقيق فى نقد زائف القول من صحيحه، وهو مفكّر ، عميق التفكير، ملهم المعنى، ملقى الحجة، وعالم من أكبر أساطين اللغة المشهود لهم بالسَّبق والتفوّق، وهو إلى ذلك شاعر فنّان، عريق فى الفنّ، عارف بروائعه ومواطن الجلال، وهو حرّ الفكر، واسع الخيال، فيّاض المعانى، مشْرِق الديباجة، لا يَعْتَاقُه عن بلوغ غايته شأْوٌ،ولا يقف فى سبيله حاجز.

هذه الميزات الباهرة هى أوّل ما يبدَهُكَ من شعر "أبى العلاء المعرّى" الحافل بروائع الفنّ والفلسفة، لَدُن تقرأ كتاب اللزوميات، فتطالعك كلّ صفحة منه بما يزيدك اقتناعاً بتلك المزايا العالية التى أفْرَدت "أبا العلاء"، فأحلّته أَسْمَى مكان بين شعراء العربية جميعاً وتعاونت على تكوين شخصيته الجذابة، فمازته من بين جبابرة الفكر، وأساطين الفن المبرّزين، وأىّ روضة من رياض الفكر أحفل بروائع الفلسفة والفن من ذلك الرّوض الفكرّ البهيج، الذى تمتلئ به كل صفحة من صفحات "اللزوميات"، تقرؤها فتطالعُ فيها سِفْراً من

أسفار الحياة، حافلاً بأَسْمى وأروع مخلَّفات الفقه الإنسانى، وتتمثل أمامها الخوالج النفسية الغامضة واضحة جلية ، لا لَبس فيها ولا إبهام [١]

.

بين العقيدة والموهبة :

كان "أبو العلاء المعرى" رقيق القلب، وفيّاً، كريماً ، سخياً، قمع شهواته، وعزف عن رغائبه، بَيْد أنه كان سيِّء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوىّ الذاكرة، سريع الحفظ حاضر البديهة، لذا قرض القريض، وهو ابن إحدى عشرة سنة، ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه، ومشاركة المبصرين فى ألعابهم، فقد كان "أبو العلاء" يجيد لعب "الشطرنج"، ويدخل فى كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد ذهب الناس فى عقيدته مذاهب شتّى: فمنهم من اتّهمه بالإلحاد، ومنهم من يقول: "إن شعره مثل كلام المتصوفة، حيث إن لشعره ظاهراً وباطناً"، وبعضهم يقول: إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه"، وبعضهم – بل أكثرهم – يرجِّح أنه كان شاكّاً [٢].

ونحن نذهب مذهب الذين يقولون: "إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه، حيث إن ثقافة "المعرّى" تنأى به عمّا اتُّهم ورُمى به من خصومه الألدّاء، وأعدائه وحُسَّاده؛ حيث إنه حفظ القرآن الكريم بالقراءات المتعدِّدة، وتلقَّى حديث رسول الله ﷺ على أشياخ الحديث، فمن غير المعقول أن يجئ شعره فيه مسحة من ضلال، أو زيغ أو شئ مما رماه به الحسَّاد، والحاقدون، وأهل الشَّر من البشر، وقديماً كان فى الناس الحسد :

كل العداوة قد يُرجَى محبتها ∴ إلا عداوة من عاداك عن حَسَد

---

(١) اللزوميات : للأستاذ / أمين عبد العزيز الخانجى – المقدمة التى كتبها الأستاذ/ كامل كيلانى للزوميات التى حققها الخانجى فى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٢٤م بالقاهرة .

(٢) تاريخ الأدب العربى: للزيات ص٣٤٧ بتصرف، وتاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ص٣٦٠ بتصرف.

"فأبو العلاء" هو الذى يقول :

اِركَع لِرَبِّكَ في نَهارِكَ وَاِسجُدِ ∴ وَمَتى أَطَقتَ تَهَجُّداً فَتَهَجَّدِ (١)

وقوله :

بِوَحدانِيَّةِ العَلّامِ دِنّاً ∴ فَذَرني أَقطَعُ الأَيّامَ وَحدي

سَأَلتُ عَنِ الحَقائِقِ كُلَّ يَومٍ ∴ فَما أَلفَيتُ إِلّا حَرفَ جَحدِ

سِوى أَنّي أَزولُ بِغَيرِ شَكٍّ ∴ فَفي أَيِّ البِلادِ يَكونُ لَحدي (٢)

الخصائص الفنية لشعر "أبى العلاء المعرّي":

ينقسم شعر "أبى العلاء المعرّى" إلى قسمين :

أولاً : شعر الشباب، ويحويه ويجمعه ديوان "سقط الزند".

ثانياً : شعر الكُهولة ، وقد حوته "اللّزوميات"، وشعره فى الشيبة كان كثير "المبالغة" واضح التقليد، بيِّن التكلّف، وقد قلَّد فيه الشاعر "المتنبى"، واستخف بقواعد اللغة، وجارَى شعراء عصره فى البديع، وقد خاض غِمار أغراض الشعر، وقد سلمت له فى هذا الطَّوْر جملة من القصائد المختارة فى فنِّ "الرّثاء"، و"المديح" و"الفخر".. وأما شعره فى الكهولة فجاء قليل "المبالغة" و"التكلّف"، عارض فيه "أبو العلاء" المتقدِّمين ، مؤْثِراً اللفظ الجزل، والأسلوب البدوىّ، والتزام ما لا يَلْزَم، وأكثر من البديع، والجناس، وأودعه فلسفته وآراءه، وحَشَاه بالألفاظ الغريبة، والتَّراكيب الغامضة، وقد ابتدع، واخْتَرَع، واختَرَع فى شعره "مناجاة الحيوان"، مثل محاورة "الدِّيك للحمامة"(٣).

---

(١) اللزوميات – تحقيق: الأستاذ / أمين عبد العزيز الخانجى ص٢٨١ رقم "١٢٠"

- أبو العلاء ولزومياته – للدكتور / كمال اليازجى – ط: دار الجيل – بيروت – لبنان سنة ١٤٠٨-١٩٨٨م.

(٢) اللزوميات – تحقيق: الأستاذ/ أمين عبد العزيز الخانجى ٢٧٨/١ .

(٣) تاريخ الأدب العربى: للأستاذ/ أحمد حسن الزيات ص٣٤٨ بتصرف .

نثره ومؤلَّفاته :
وقد جاء نثره مثل شعره يختلف فى "كُهُولته" عنه فى "شبابه"، فقد كان كثير المبالغة متكلِّفاً فى سجعه، كثير المصطلحات العلمية، ثم نراه قد حكَّم فلسفته فى نثره، فجاءت على إثر ذلك قليلة المبالغة، وفاضت الجمل بالمعانى، بَيْد أن كتابته لم تكن خِلْواً من الغموض والتَّطويل.
ومن مؤلَّفاته: "سقط الزَّند"، و"اللّزوميات"، و"ديوان رسائله" و"رسالة الملائكة"، و"رسالة الغُفْران"[١].

فمن قصيدة له فى الرّثاء :

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعْتِقادي ∴ نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنّمُ شادِ

وشَبِيهٌ صَوْتُ النّعيّ إذا قِيـ ∴ سَ بِصَوْتِ البَشيرِ في كلّ نادِ

أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمَامَةُ أمْ غَنْـ ∴ نَت عَلى فَرْعِ غُصْنِها المَيّادِ

صَاحِ هَذِي قُبُورُنا تَمْلأ الرُّحْـ ∴ بَ فأينَ القُبُورُ مِنْ عَهدِ عادِ

خَفّفِ الوَطْء ما أظُنّ أديمَ الـ ∴ أرْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأجْسادِ

وقَبيحٌ بنَا وإنْ قَدُمَ العَهْـ دُ هَوَانُ الآبَاءِ والأجْدادِ

سِرْ إنِ اسْطَعتَ في الهَوَاءِ رُوَيداً لا اخْتِيالاً عَلى رُفَاتِ العِبادِ

(١) ذاته ص٣٥٠ .

رُبّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مراراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأضْدادِ

وَدَفِينٍ عَلى بَقايا دَفِينٍ في طَوِيلِ الأزْمانِ وَالآباءِ

فاسْألِ الفَرْقَدَينِ عَمّنْ أحَسّا مِنْ قَبيلٍ وآنسا من بلادِ

كَمْ أقامَا على زَوالِ نَهارٍ وَأنارا لِمُدْلِجٍ في سَوَادِ

تَعَبُ كُلّها الحَياةُ فَما أعْ جَبُ إلاّ مِنْ راغبٍ في ازْديادِ[1]

ويقول مفتخراً :

ألا في سبيلِ المَجْدِ ما أنا فاعل .·. عَفافٌ وإقْدامٌ وحَزْمٌ ونائِل

أعندي وقد مارسْتُ كلَّ خَفِيّةٍ .·. يُصَدّقُ واشٍ أو يُخَيّبُ سائِل

أَقَلُّ صُدودي أنّني لكَ مُبْغِضٌ .·. وأيْسَرُ هَجْري أنني عنكَ راحل

ويقول – رحمه الله – فى "اللزوميات" :

غَدَوتَ مَريضَ العَقلِ وَالدينِ فَالقَني .·. لِتَسمَعَ أنباءَ الأمورِ الصَحائِحِ

فَلا تَأكُلَن ما أخرَجَ الماءُ ظالِماً .·. وَلا تَبغِ قوتاً مِن غَريضِ الذَبائِحِ[2]

---

(١) سقط الزند : أبو العلاء المعرى – دار صادر – بيروت .
(٢) الغريض : الطرىّ من اللحم وغيره .

وَأَبيَضَ أمّاتٍ أَرادَت صَريحَهُ ∴ لِأَطفالِها دونَ الغَواني الصَرائِحِ

وَلا تَفجَعَنَّ الطَيرَ وَهيَ غَوافِلٌ ∴ بِما وَضَعَت فَالظُلمُ شَرُّ القَبائِحِ

وَدَع ضَربَ النَحلِ الّذي بَكَرَت لَهُ ∴ كَواسِبَ مِن أَزهارِ نَبتٍ فَوائِحِ (١)

فَما أحرَزَتهُ كَي يَكونَ لِغَيرِها ∴ وَلا جَمَعَتهُ لِلنَدى وَالمَنائِحِ

مَسَحتُ يَدَي مِن كُلِّ هَذا فَلَيتَني ∴ أَبِهتُ لِشَأني قَبلَ شَيبِ المَسائِحِ (٢)

بَني زَمني هَل تَعلَمونَ سَرائِراً ∴ عَلِمتُ وَلَكِنّي بِها غَيرُ بائِحِ

سَرَيتُم عَلى غَيٍّ فَهَلّا اِهتَدَيتُمُ ∴ بِما خَيَّرَتكُم صافِياتُ القَرائِحِ

وَصاحَ بِكُم داعِيَ الضَلالِ فَما لَكُم ∴ أَجَبتُم عَلى ما خَيَّلَت كُلَّ صائِحِ

مَتّى ماكَشَفتُم عَن حَقائِقِ دينِكُم ∴ تَكَشّفتُم عَن مُخزَياتِ الفَضائِحِ

---

(١) ضرب النحل : هو العسل الأبيض الغليظ .
(٢) أبِهْتُ: انتبهت . المسائح : الذوائب، أو ما بين الصّدغين إلى الجبهة .

فَإِن تَرشُدوا لا تَخضِبوا السَيفَ مِن دَمٍ ∴ وَلا تُلزِموا الأَميالَ سَبرَ الجَرائِحِ [١]

وَيُعجِبُني دَأبُ الَّذينَ تَرَهَّبوا ∴ سِوى أَكلِهِم كَدَّ النُفوسِ الشَحائِحِ

وَأَطيَبُ مِنهُم مَطعَماً في حَياتِهِ ∴ سُعاةُ حَلالٍ بَينَ غادٍ وَرائِحِ

فَما حَبَسَ النَفسَ المَسيحُ تَعَبُّداً ∴ وَلَكِن مَشى في الأَرضِ مِشيَةَ سائِحِ

يُغَيِّبُني في التُربِ مَن هُوَ كارِهٌ ∴ إِذا لَم يُغَيِّبني كَريهُ الرَوائِحِ

وَمَن يَتَوَقّى أَن يُجاوِرَ أَعظَماً ∴ كَأَعظَمِ تِلكَ الهالِكاتِ الطَرائِحِ

وَمِن شَرِّ أَخلاقِ الأَنيسِ وَفِعلِهِم ∴ خُوارُ النَواعي وَاِلتِدامُ النَوائِحِ [٢]

وَأَصفَحُ عَن ذَنبِ الصَديقِ وَغَيرِهِ ∴ لِسُكنايَ بَيتَ الحَقِّ بَينَ الصَفائِحِ

---

(١) الأميال: الميل هنا هو : المِرْوَد يُسْبَرُ به الجرح ليُعلَمَ مقدار عمقه، فسَبَرُ الشئ: يعنى اختبره، وتقول: سبرت غَوْر الشئ: أى خبرته.

(٢) خُوار النواعى : صياحها .التدام النّوائح : ضَرْبُهن صدورهن فى النِّياحة .

وَأزهَدُ في مَدحِ الفَتى عِندَ صِدقِهِ ∴ فَكَيفَ قَبولي كاذِباتِ المَدائِحِ

وَما زالَتِ النَفسُ اللَجوجُ مَطِيَّةً ∴ إِلى أن غَدَت إِحدى الرَذايا الطَلائِحِ [١]

وَما يَنفَعُ الإِنسانَ أنَّ غَمائِماً ∴ تَسُحُّ عَلَيهِ تَحتَ إِحدى الضَرائِحِ

وَلَو كانَ في قُربٍ مِنَ الماءِ رَغبَةٌ ∴ لَنافَسَ ناسٌ في قُبورِ البَطائِحِ [٢]

وهذه القصيدة تتضمن كثرة كاثرة من آرائه الفلسفية، والتى تعجّ بالحكمة، وتنطق بمأثور الكَلِم، والتى تدل أيضاً على سعة خياله، فهو شاعر فنّان، عريق فى الفنّ، عارف بروائعه، خبير بأسرار الجمال، ومواطن الجلال، وهو حرّ الفِكْر، واسع الخيال، فيّاض المعانى، مُشْرِق الدِّيباجة، لا يعْتَاقه عن بلوغ غابته شأوٌ، ولا يقف فى سبيله حاجز.
هذه الميزات الباهرة هى أوَّل ما يَبْدَهُك من شعر "أبى العلاء"، الحافل بروائع الفنّ والفلسفة، وتلك من مزايا شاعرنا الفيلسوف، أو الفيلسوف الشاعر والتى أجَلَّتْه ورفعته مكاناً عليّاً بين شعراء العربية جميعاً، كما تعاونت على تكوين شخصيته الجذّابة فَمَازَتْه من بين جبابرة الفكر، وأساطين الفنّ المبرّزين، وأى روض من رياض الفكر أحْفَلُ بروائع الفلسفة والفنّ من ذلك الرّوض الفكرىّ البهيج، الذى تعجّ به كلّ صفحة من صفحات "اللّزوميات"، تقرؤها فتطالع سِفْراً من أسفار الحيات الحافل بأَسْمى وأرْوَع مخلفات العقل الإنسانى،

---

(١) طلح: يعنى أعيا وتعب . الرذايا: جمع رزية وهى الناقة المعيبة ، وتقول: رذيت إذا أعيت وكذلك الطلائح.
(٢) اللزوميات – تحقيق: الخانجى ٢١٨/١ وما بعدها – رقم "١٩" – نشر: مكتبة الخانجى بالقاهرة .

وتمثل أمامها الخوالج النَّفسيَّة الغامضة واضحة جليّة، لا لَبْسَ فيها ولا إِبْهام.

الطغرائي:
هو الشاعر "الحسين بن علىّ" المعروف "بالطّغرائى"، ويكنى"أبو إسماعيل"، ولُقب "بالطغرائى" نسبة إلى مهنته التى كان يمتهنها أوّل حياته، فقد كان يكتب "الطغراة"، "الطّرة" فى أعلى الكتب بخط خاص فيها نُعُوت السلطان وألقابه، وقد ولد "الطغرائى" فى "أصفهان" سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة للهجرة، من أسرة فارسية، ثم تقلب فى ظلّ "آل سلجوق"، وكان وزيراً للسلطان "مسعود السّلجوقى" فى "الموصل"، وصار يُنعت ويُوصف "بالأستاذ"، ويُلقَّب "بالمنشئ"، فلمّا نشبت الحرب بين السلطان "مسعود"، وأخيه السلطان "محمود" بالقُرب من "همذان" ، وكانت النصرة والغلبة للسلطان "محمود"، وفى هذه الحال أُسِر "الطّغرائى" ، ثم أغْراه وزيره "نظام الدين" بقتله، وحرَّضه على ذلك بعض حُسَّاده من رؤوس الكتَّاب ، فرَمَوْه بالإلحاد، فقُتل ظُلماً من جرَّاء هذا الاتِّهام، وكان ذلك عام ٥١٣هـ، وقيل عام ٥١٥هـ [١].
وكان شعره جيداً، متين القافية، وألفاظه مُنتقَاة، يغلب على شعره "الفخر" و"الحكمة"، وكان نثره من طبقة شعره فى إحكام الصَّنعة، ورصانة الأُسْلوب وله ديوان شعر كبير، أكثره فى مدح السّلطان "سعيد بن ملك شاه"[٢].
وقد اشتهر "الطّغرائى" بمعرفته العميقة بالصَّنعة، أو كما نقول الآن "علم الكيمياء" وله فيها أشعار تصوِّر هذا الضَّرب العلمىّ أو التعليمىّ، ويكثر لديه ولدى مُعاصريه معارضته للشاعر "الشَّريف الرَّضى"، و"مهيار الدّيلمىّ" فى بعض قصائدهما، وربّما كانت "لاميَّته" من أروع وأجْوَد قصائده، من حيث قوة السّبك، وجميل الصياغة، ومع ذلك

(١) تاريخ الأدب العربى: للزيات ص٣٢٦، وتاريخ الأدب العربى : لكارل بروكلمان ص٥٤٥ بتصرف
(٢) تاريخ الأدب العربى: للزيات ص٣٣٦

فقد حاول الصّفدىّ فى شرحه لها أن يردّ معانى أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقيه، وكان "الطّغرائى" مثل شعراء عصره، يصطنع فنون البديع، وأيضاً فنون التكلّف، والحقّ والحقَّ نقول: إن الطّغرائى كان شاعراً بارعاً حتى إنه بلغ من إعجاب الذين سبقوه أنهم عارضُوا "الاميّته"، وهم كُثْرٌ من شعراء زمانه.

يقول فى مطلع "الاميّته":

أصالةُ الرأيِ صانتْنِي عن الخَطَلِ ∴ وحِليةُ الفضلِ زانتني لدَى العَطَلِ

وقد اشتهرت خطأ باسم "لامية العجم"، مع أن قائلها عربى الأرومة، ولا نرى فى اللامية رائحة تعصب للعجم ضد العرب، ولعلها سمِّيت بذلك لأن قائلها كان يعيش فى بلاد العجم، وجعلها على "روِىّ" "لاميَّة العرب" "للشنفرى"، وموضوعها: شكوى الزمان وأهله، وهى شكوى فيها مغالاة ومبالغة واضحة، ومع هذا فستظل له فضائله التى يفتخر بها، وربما أشار بتعطّله من وظيفته الديوانية حينئذ أو ربّما يومئ ويشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العُطل [١]. وقال مفتخراً بثقافته العالية الراقية، وإلمامه بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ ببغْيتي ∴ منها فما أحتاجُ أنْ أتعلّمَا

وعرفت أسرارَ الخليقةِ كلّها ∴ عِلماً أنارَ ليَ البهيمَ المُظلما

ونراه يُرزق مولوداً بعد أن بلغ من الكبر عِتيّاً، فيقول:

---

(١) عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) – د/ شوقى ضيف ص٥٨٤ .

هذا الصغيرُ الذي وافَى على كِبَري ∴ أقَرَّ عيني ولكنْ زادَ في فِكَرِي

سبعٌ وخمسونَ لو مرَّتْ على حَجَرٍ ∴ لبانَ تأثيرُها في صفحةِ الحَجَرِ

وقال يرثى زوجه :

ولم أنسَها والموتُ يقبِضُ كفّها ∴ ويبسُطُها والعينُ ترنُو وتُطْرِقُ

وقد دمِعَتْ أجفانُها وكأنها ∴ جَنَى نرجسٍ فيه النَّدى يترقْرَقُ

وحلَّ من المحذورِ ما كنتُ أتَّقِي ∴ وحُمَّ من المقدورِ ما كنتُ أفْرَقُ

وقيل فِراقٌ لا تلاقِيَ بعدَهُ ∴ ولا زادَ إلّا حسرةٌ وتَحرُّقُ

ولو أنَّ نفساً قبلَ محتومِ يومِها ∴ قضَتْ حسراتٍ كادتِ النفسُ تزهَقُ

هلالٌ ثوى من قبلِ أن تَمَّ نورُه ∴ وغصنٌ ذوى فينانُه وهو مورِقُ

فواعجَباً أنّى أُتيحَ اجتماعُنَا ∴ ويا حسرَةً من أينَ حُمَّ التفرُّقُ

ولم يبقَ فيما بينَنا غيرُ حثْوةٍ ∴ على العين تُحْثَى أو على القلب تُطبِقُ

أحِنُّ إليها إنْ تراخَى مزارُهَا ∴ وأبكي عليها إنْ تدانَى وأشهَقُ

وأبلِسُ حتى ما أبينُ كأنَّما ∴ تدورُ بيَ الأرضُ الفضاءُ وأُصْعَقُ

وألصِقُها طَوراً بصدري وأشتِفي ∴ وأمسحُهَا حِيناً بكفي فتعبَقُ

وما زُرْتُها إلّا توهمتُ أنَّها ∴ بثوبيَ من وجدي بها تتعلّقُ

وأحسَبُهَا والحُجْبُ بيني وبينَها ∴ تعي من وراء التُّرْبِ قولي فتنطِقُ

وأشعِرُ قلبي اليأسَ عنها تصبُّراً ∴ فيرجِعُ مرتاباً به لا يُصَدِّقُ (١)

---

(١) المنتخب من كلام العرب : للدكتور/ طه حسن وآخرين ١٤٣/١ .

أهم المصادر والمراجع

- ❖ ابن المقفع – تأليف/ سليم الجندى – ط: دمشق – سوريا.
- ❖ ابن المقفع – تأليف/ عبد اللطيف حمزة – ط: دار الفكر العربى ١٩٥٢م ـالثانية.
- ❖ ابن المقفع – لابن خليل مردم – مطبعة الاعتدال – دمشق – سوريا.
- ❖ ابن المقفع – لحنا الفاخورى – دار المعارف – بيروت – ١٩٥٧م.
- ❖ ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة – د/ عمر فروخ – لبنان ١٩٤٩م.
- ❖ أبو العلاء ولزومياته – د/ كمال اليازجى – ط: دار الجيل – بيروت – لبنان – ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ❖ اتجاهات الأدب الصوفى بين الحلاج وابن عربى – للمؤلف/ أ.د/ على الخطيب.
- ❖ أخبار أبى تمام – للصولى .
- ❖ الأخبار الأدبية– د/حمدان عبد الرحمن – مطبعة الأمانة – ط: الأولى ١٩٨٩م.
- ❖ أخبار الحلاج – تقديم وتعليق: عبد الحفيظ محمد مدنى هاشم.
- ❖ الأدب الصغير – أحمد زكى – ط: دار المعارف – القاهرة.
- ❖ الآدب العربية فى العصر العباسى – د/ خفاجى.
- ❖ الأدب الكبير والأدب الصغير – د/ يوسف خليفة – ط: دار البيان.
- ❖ الأدب المقارن – د/ محمد غنيمى هلال.
- ❖ الأدب الوجيز – للولد الصغير – ترجمة وتحقيق:محمد غفران الزاوائى.
- ❖ الأدب فى عصره الذهبى – د/ عبد الرحمن عثمان.
- ❖ أراء فى الشعر العربى – مذاهبه وفنونه – للدكتور/ عبد الرحيم محمود زلط.

❖ أسس النقد العربى – للأستاذ أحمد بدوى.
❖ الأعلام – للزركلى .
❖ الأغانى – لأبى الفرج الأصفهانى – ط: دار الكتب .
❖ الأغانى – لأبى الفرج الأصفهانى.
❖ الأنساب – للسمعانى.
❖ البخلاء وقصور المجتمع العباسى – د/ أحمد أحمد منصور نفادى.
❖ البيان والتبيين – للجاحظ .
❖ البيان والتبيين للجاحظ .
❖ تاريخ الأدب الأموى – أحمد حسن الزيات.
❖ تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات .
❖ تاريخ الأدب العربى – الأعصر العباسية – د/ عمر فروخ.
❖ تاريخ الأدب العربى – العصر العباسى الأول – د/ شوقى ضيف – ط: دار المعارف.
❖ تاريخ الأدب العربى – د/ عمر فروخ – ط: دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – سنة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
❖ تاريخ الأدب العربى – كارل بروكلمان .
❖ تاريخ الأدب العربى – لكارل بروكلمان .
❖ تاريخ الأدب العربى – للأستاذ / أحمد حسن الزيات.
❖ تاريخ الأدب العربى – للدكتور / عمر فروخ .
❖ تاريخ الأدب العربى .
❖ تاريخ الأدب العربى ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر – د/ أحمد منصور نفادى.
❖ تاريخ الأدب فى العصر العباسى – د/ عبد المنعم خفاجى.
❖ تاريخ الكنيسة المصرية – مجلة الهلال – عدد ديسمبر سنة ١٩٧٧م.
❖ تاريخ بغداد – للخطيب البغدادى .
❖ تاريخ بغداد – للخطيب البغدادى.
❖ تاريخ بغداد .

- تذكرة الأولياء – للعطار.
- التصوف الإسلامى – تأليف/ محمود أبو الفيض المنوفى.
- التصوف عند المستشرقين - د/ أحمد الشرباصى.
- التصوف عند المستشرقين من سلسلة الثقافة الإسلامية بالقاهرة.
- تلبيس إبليس – للحافظ الإمام/ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى البغدادى – مكتبة الإمام سنة - ١٩٨١م.
- التوجيه الأدبى – د/ طه حسين.
- حلية الأولياء – لأبى نعيم الأصفهانى.
- خزانة الأدب .
- دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثامن.
- دائرة المعارف الإسلامية (مارجليوس).
- دائرة معارف القرن العشرين : للأستاذ/ محمد فريد وجدى.
- دراسات فى الأدب الصوفى – د/ محمد عبد المنعم خفاجى .
- دراسات فى الأدب العباسى – د/ عيد قناوى .
- دراسات فى الأدب العباسى – د/ عيد قناوى.
- دراسات فى الأدب العباسى – د/ كمال لاشين .
- دراسات فى الأدب العباسى.
- الديباج المذهب – لابن فرحون .
- ديوان ابن أبى حفصة .
- ديوان ابن الفارض .
- ديوان أبى تمام .
- ديوان الحلاج – جمع وتحقيق: د/ كامل مصطفى الشيبى.
- ديوان الشبلى – طبع المجمع العلمى العراقى – تحقيق: كامل مصطفى الشيبيى.
- ديوان الشريف الرضى – تعليق: د/ إحسان عباس – دار صادر – بيروت – لبنان.
- ديوان مهيار الديلمى – شرح وضبط: أحمد نسيم – مؤسسة الأعلمى للمطبوعات – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

❖ رسائل أبى العلاء المعرى – لمرجليوس.
❖ الرسالة القشيرية – للدكتور/ عبد الحليم محمود – د/ محمود بن الشريف – دار الكتب الحديثة – القاهرة – سنة ١٩٧٢م.
❖ رشفات من رحيق الأدب العباسى – د/ عبد السلام سرحان.
❖ روضات الجنات – لليافعى اليمنى.
❖ زهر الآداب – للحصرى.
❖ سر الفصاحة – لابن سنان الخفاجى – تحقيق: عبد المتعال الصعيدى – ط: صبيح.
❖ سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون.
❖ شخصيات قلقة فى الإسلام – لويس ماسنيون –ترجمة: د/ عبد الرحمن بدوى.
❖ شذرات الذهب فى خبر من ذهب – لابن العماد.
❖ شرح رشيق بن غالب لديوان ابن الفارض – المطبعة الخيرية – القاهرة .
❖ الشعر العباسى – الرؤيا والفن – د/ عز الدين إسماعيل.
❖ الصبغ البديعى – د/ أحمد إبراهيم موسى – دار الكتب العربية سنة ١٩٦٩م.
❖ صفة الصفوة – لابن الجوزى.
❖ الصناعتين – لأبى هلال العسكرى .
❖ الطباعة الفنية ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.
❖ طبقات الشعراء : لابن المعتز .
❖ طبقات الصوفية – للسلمى – ط: القاهرة سنة ١٩٥٣م.
❖ عبد الله بن المقفع – دراسة فى الأدب والتاريخ – لجورج غريب – دار الثقافة – ١٩٦٦م.
❖ عدة الصابرين – لابن القيم الجوزية.
❖ عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران) د/ شوقى ضيف – دار المعارف – القاهرة.
❖ عصر الدول والإمارات (مصر ، والشام) د/ شوقى ضيف .
❖ العصر العباسى الثانى – د/ شوقى ضيف.

❖ العمدة فى محاسن الشعر – لابن رشيق القيروانى .
❖ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى – د/ شوقى ضيف – ط: دار المعارف.
❖ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .
❖ فى الشعر العباسى – د/ محمد فتوح .
❖ فى الشعر العباسى – د/ محمد فتوح .
❖ القاموس الإسلامى – د/ أحمد عطية الله.
❖ القاموس المحيط – للفيروزآبادى.
❖ قصة الأدب فى مصر – د/ محمد عبد المنعم خفاجى.
❖ القصة القصيرة – للأستاذ / عباس خضر – الدار القومية للطباعة سنة ١٩٦٦م
❖ الكشاف – للزمخشرى.
❖ اللزوميات – لأبى العلاء المعرّى – تحقيق: الأستاذ/ أمين عبد العزيز الخانجى – ط: مكتبة الخانجى.
❖ لسان العرب – لابن منظور.
❖ مجلة الهلال – عدد حزيران سنة ١٩٣٨م.
❖ محاضرات فى تاريخ الأدب العباسى – د/ على جاد الحق.
❖ محاضرات فى تاريخ الأدب العربى – د/ أحمد منصور نفادى.
❖ مروج الذهب – للمسعودى .
❖ مشوار المحاضرة – للتنوخى .
❖ مضاهاة أمثال كتاب كليلة ودمنة بما يشبهها فى أشعار العرب.
❖ معجم الأدباء – لياقوت الحموى.
❖ معجم البلدان – ياقوت الحموى – ط: بيروت – لبنان .
❖ مقدمة الفخر والحماسة – فنون الأدب العربى – دار المعارف ١٩٨٠م.
❖ مقدمة كتاب التمثيل والمحاضرة – لأبى منصور الثعالبى.
❖ ملامح الحياة الأدبية فى عصر الدويلات – د/ جلال حجازى.

- من حديث الشعر والنثر – د/ طه حسين – ط: دار المعارف.
- المنتخب من أدب العرب – د/ طه حسين وآخرون.
- الموازنة – للآمدى .
- الموشح – للمرزبانى .
- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال – تأليف: أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى – تحقيق: على محمد البجاوى – دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابى الحلبى – الأولى – ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.
- النجوم الزاهرة – لابن تغرى بردى.
- النصوص الأدبية – د/ عبد الحميد هلال.
- النصوص الأدبية فى العصر العباسى – د/ مصطفى يونس.
- النصوص الأدبية فى العصر العباسى الثانى – د/ حبر.
- نقد النثر .
- هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام – للشيخ يوسف البديعى.
- الوساطة بين المتنبى وخصومه – للجرجانى.
- وفيات الأعيان – لابن خلّكان .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – لابن خلّكان.